


دفاتر العنف المقدس

سراييڤو ـ الجزائر ـ غزة - أريحا ـ الشيشان

للكاتب الاسباني: خوان غويتيسولو

ترجمة وتقديم: د. طلعت شاهين

دفاتر العنف المقدس

دفتر سراييفو
الجزائر في مهب الريح
غزة-أريحا.. لا حرب ولا سلام
مشاهد حرب، والشيشان خلفيتها

للكاتب الإسباني:

خوان غويتيسولو

ترجمة وتقديم:

د.طلعت شاهين

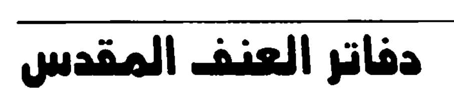
- عنوان الكتاب: دفاتر العنف المقدس
- تأليف: خوان غويتيسولو
- ترجمه عن الإسبانية: د.طلعت شاهين
- الناشر: مصر العربية للنشر و التوزيع

  ١٩ شارع إسلام - حمامات القبة

  تليفون و فاكس: ٢٥٦٢٢٦٨

  ص.ب.: ٥٧٤٠ - هليوبوليس غرب- القاهرة
- تصميم الغلاف: صابر كامل
- اللوحة "صدى صرخة" للفنان: دافيد ألبارو- متحف الفن الحديث- نيويورك
- رقم الإيداع: ٩٦/٩/٢٩
- الترقيم الدولي: ٧-١١-٥٤٧١-٩٧٧

- الصف: مصر العربية لنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى: ١٩٩٦


دفاتر العنف المقدس

العنوان الأصلي للموضوعات التي يضمها هذا الكتاب:

1-EL CUADERNO DE SARAJEVO.
2-ARGELIA EN EL VENDAVAL.
3-NI GUERRA NI PAZ.
4-PAISAJES DE GUERRA, CON CHECHENIA AL FONDO.

والتي تم نشرها ما بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٦ في صحيفة " البابيس "EL PAIS" الإسبانية وفي أكثر من عشر صحف عالمية أخرى من بينها هذه الترجمة العربية التي نشرتها صحيفة "الحياة" اللندنية، بالإتفاق مع الصحيفة الإسبانية، ثم صدرت بعد ذلك في كتب منفصلة عن دار "البابيس–أجيلار" بمدريد.

تقديم

الكتابة في زمن القبض على الجمر...!

يتخذ بعض المثقفين مواقف تضعهم فـي مواجهـة حقيقيـة مـع زملائهم الذيـن يتبـاهون بالإعلان عن مواقف دعائية، ولكن عند المواقف الحقيقية يهربـون مـن الميـدان إلـي الصمت المريب، خاصة إذا ما تعلقت المواقف بقضايا الشعوب المناضلة ضد القوى المسيطرة. ومن المثقفين الحقيقيين الذين يلتزمون بالقضايا التي يدافعون عنها الكاتب والروائي الإسباني خوان غويتيسولو، الذي يعتبر من أبرز كتاب إسبانيا المعاصرين، وإلتزامه لم يكن من فراغ، فقد تمرد مبكرا على الجماعات اليسارية التي كانت تتاجر بمواقفها في مواجهة نظام الجنرال فرانكو الدكتاتوري، وكان من أول المثقفين الأوروبيين المطالبين بالبحث عن صيغة أيدلوجيـة جديدة بديلة عن الماركسية اللينينية، نظرا لما تمثله من أخطار على الحرية الفردية، التي يجب على كل مبدع أن يستند إليها مهما كانت مواقفه معادية للأيدلوجيات الأخرى، لأن أية أيدلوجية في رأيه إذا تخلت عن احترام كرامة الفرد والرأي الآخر لا يجب أن تحظى بالاحترام.

كل هذه الآراء جعلته شبه ملعون بين زملائه من المثقفين الأوروبيين، ثم جاء انغماسه المبكر في القضايا العربية والإسلامية الذي دفعه إليها إيمانه الشديد بأن الثقافة الإسلامية في الأندلس تمثل جزءا لا يتجزأ من تاريخ إسبانيا وثقافتها، ومن هنا كان تفردها عن غيرها من ثقافات الأمم الأوروبية الأخرى، فجرت آراؤه هذه عليه الكثير من اللعنات التي حاولت التقليل من شأنه ككاتب وروائي له شخصيته الإبداعية الخاصة، ولكن لأنه يؤمن بقيمته الحقيقية لم تؤثر فيه مواقف الآخرين، فهو يعرف أن القيمة الحقيقية التي تكمن في كتاباته سوف تفرض نفسها على النقاد الذين لن يجدوا مفرا من الإعتراف بها، ووضعها في مكانها الحقيقي اللائق بها في الأدب الإسباني المعاصر.

لكنه بمواقفه المناقضة لمواقف المثقفين الأوروبيين الذين ركنوا إلى الدعة والراحة حكم على نفسه بأن يعيش موزعا في منفاه الإختياري منذ عام ١٩٥٧ ما بين فرنسا ومراكش

المغربية حتى يظل وفيا لآرائه ومواقفه، يعلن عنها كلما دعت الحاجة إلى ذلك، برغم كراهيته للمعارك غير المجدية، لكنه يرد على من يهاجمونه بهدوء الواثق من نفسه دون أن يترك لهم فرصة لاتهامه بالتطاول، وكانت معاركه الحقيقية هي التي تدخل فيها حريات الشعوب في خطر حقيقي، وعندما عادت الديمقراطية إلى إسبانيا مع أول إنتخابات جرت بها عام ١٩٧٨ بعد رحيل دكتاتورها العجوز، كان خوان غويتيسولو لا يرى جديدا في هذا التغير السياسي في بلاده، لأنها بدأت تسير في الاتجاه نفسه الذي تسير فيه الديمقراطيات الغربية التي لا ترى في العالم غير نفسها، وتعيش عالة على بؤس وابتزاز الشعوب المنكوبة بالنهب الاستعماري.

وبدلا من التهليل لسقوط جدار برلين وانهيار الاتحاد السوفييتي السابق -رغم أنه كان أولى من غيره بالفرح لسقوط هذا الجدار، باعتباره من أوائل الذين دعوا إلى تغييرات جذرية في النظم الشرقية لتعيد إلى أفرادها وشعوبها الحرية والاحترام- أعلن أن هذه التغييرات يجب النظر إليها على أنها دليل على فشل الرأسمالية، قبل أن تكون دليلا على انهيار الشيوعية، لأن الأحداث المتلاحقة التي أدت إلى انهيار النظام العالمي القديم، لم تتح الفرصة أمام بناء أسس واضحة لنظام عالمي جديد، يقوم على أساس العدل والمساواة بين شعوب العالم أجمع، ويمكنه أن ينقذ العالم من حروب تذهب ضحيتها الشعوب البريئة، التي لا ناقة لها ولا جمل في شبكة المصالح التي تتنازع عليها أوروبا الغربية لإخفاء فشلها في إدارة أمورها، وحذر أيضا من ترك الأمور تنهار إنهيارا سريعا في أوروبا الشرقية دون المساعدة على إقامة البديل.

وأكدت الأحداث صدق تحليله، وتحليل العديدين غيره من الكتاب الذين لا يبحثون عن مصالح خاصة، حين يرفعون أقلامهم للكتابة عن شيء يعتبر أخطر ما يمكن للكاتب أن يتناوله ألا وهو التحليل للواقع المعاش، وإضاءة الطريق أمام الشعوب لترى ما ينتظرها قبل أن يقع، حتى تكون على بينة بالطريق الذي تسير فيه، فقد اندلعت الحرب في الخليج من جديد، واندفعت حمى الإرهاب مخترقة العديد من البلدان الإسلامية دون أن يحاول أحد تحليل مغزاها أو معرفة من الذي يقف خلفها، ثم كانت الحرب العرقية الطاحنة في قلب أوروبا، والتي لا ضحية لها إلا شعب البوسنة المسلم، فقام خوان غويتيسولو بجهود حقيقية للتعرف على أسباب هذه اللعنات الطاحنة الموجهة في اتجاه واحد، تغذيه في رأيه جهات معينة ومشبوهة داخل أمريكا ودول المجموعة الأوروبية نفسها، وتتمثل في إحياء النازية الجديدة

والعداء لكل ما هو عربي ومسلم في القارة الاوروبية، وحاول لفت الانظار إلى خطورة التطهير العرقي الذي يتعرض له المسلمون في البوسنة، خاصة سراييفو التي كانت لقرون طويلة مثالا للتعايش بين المعتقدات والحضارات المختلفة، التي جعلت منها رمزا للمحبة والسلام، فكتب في العديد من الصحف الأوروبية يحذر من استمرار الاعتداء الصربي، وكان أول من لفت الأنظار إلى أن هذه الحرب لا تهدف إلا إلى التطهير العرقي ضد المسلمين، وأن الصرب يحاولون إحياء تراث الأرثوذكسية المعادي لكل ما هو مخالف والقضاء عليه بأبشع الطرق.

وكان خوان غويتيسولو أول كاتب أوروبي يتجرأ على اتهام فرنسا وبريطانيا بأنهما يتآمران في هذه الحرب ويساعدان الصرب على إبادة شعب البوسنة المسلم، ويحاولان إعادة ما حدث في الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦-١٩٣٩)، ودعا في كتاباته إلى كشف القناع الذي يضعه "اللورد اوين" مبعوث الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية إلى البوسنة بحثا عن حل يضمن القضاء على المسلمين، وتمكين الصرب من تحقيق هدفهم قبل أن يعترض أحد، واتهمه بأنه يمثل المصالح الصربية وأنه في مسعاه يحاول تهدئة الرأي العام الأوروبي الذي بدأ يعي المؤامرة ليتيح الفرصة للصرب لكي ينفذوا مؤامرتهم، تحت سمع وبصر جنود الأمم المتحدة، بل وبمشاركة منهم في تشديد الحصار حول العاصمة سراييفو.

وحاول خوان غويتيسولو أن يقود قافلة من المثقفين الأوروبيين المؤمنين بحق الشعوب في مواجهة الإبادة العرقية، لفضح ما يحدث في سراييفو من قتل وحشي وإبادة للآمنين العزل من الشيوخ والنساء والأطفال، ولكن محاولاته هذه كشفت عن زيف المثقفين الأوروبيين، وعندما اكتشف خوان غويتيسولو هذه الحقيقة المرة، قرر أن يكون هو كبش الفداء، واندفع في مغامرة خطرة يؤكد من خلالها إلتزامه بمبادئه، وسافر إلى سراييفو في رحلة كان يعلم أنها قد تكون بلا عودة، زاد من حماسه لها الكاتبة المسرحية الأمريكية سوزان سونتاج التي خاطرت هي الأخرى بحياتها لتعلن عن إدانة مواقف بلادها المتخاذلة، وزيف ادعاءات السياسة الأمريكية التي تلعب دورين متناقضين، فالولايات المتحدة كانت تعلن الوقوف إلى جانب المسلمين في البوسنة، ولكنها في الوقت نفسه تعارض أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم، فتمنع عنهم السلاح إلتزاما بمواقف أصدقائها الأوروبيين، وحفاظا على علاقاتها مع روسيا وريثة الإتحاد السوفييتي، والتي أعلنت بوضوح لا لبس فيه، أنها لن تسمح بإجبار الصرب على إيقاف مذابح الأبرياء من المسلمين العزل.

لكن خوان غويتيسولو قرر ألا تكون رحلته إلى سراييفو مجرد بيان احتجاج، فقام بتسجيل هذه الرحلة في مجموعة من المقالات نشرها في أكثر من عشر صحف عالمية، وصف فيها الرعب الذي يعيشه سكان المدينة، التي لا يستطيع أحد أن يقسمها إلى أجزاء كما حدث في برلين قبل نصف قرن مضى، فقد اكتشف أن سكانها خليط من المسلمين والمسيحيين واليهود، بل أن العائلات المقيمة فيها مختلطة من الصرب والبوسنيين، وان بها صربا من المسلمين وأيضا بها مسيحيين من البوسنة، ويهودا ما بين هذا العرق وذاك. وكانت هذه المقالات تلقي أضواء أكثر من كاشفة على أن ما يحدث في سراييفو يمثل مؤامرة غربية حقيقية لتصفيه آخر المسلمين في أوروبا.

ولأن الكشف عن المؤامرة تم بالكتابة والصوت والصورة التي سجلتها إلى جوار قلم خوان غويتيسولو عدسات كاميرات التليفزيون من جميع أنحاء العالم، فإن هذه الكتابة لم تجد من يتجرأ على الرد عليها باتهام الكاتب بالاتهامات القديمة التي كانت توجه إليه باعتباره من المناصرين للثقافة الإسلامية، التي تعتبر في عرف الأوروبيين ثقافة متخلفة يسيطر عليها العنف والدم، وكان لصدور كتاب "دفتر سراييفو" باللغتين الإسبانية والفرنسية ثُم باللغة العربية التي توليت ترجمتها صداه الواسع، حيث كان تقديم الطبعة الإسبانية في المسرح القومي الإسباني بمدريد "مسرح ماريا جيريرو" حدثا ثقافيا كبيرا غطته جميع وسائل الإعلام الإسبانية والعالمية، وحضره حشد كبير من المثقفين والفنانين والسياسيين ووجوه المجتمع، لم يتمكن معظمهم من دخول صالة المسرح لازدحامها، فاحتشدوا في القاعات الجانبية لمتابعة حديث الكاتب وتعليقات الحاضرين عبر مكبرات للصوت.

لم يكن "دفتر سراييفو" هو الكتابة الوحيدة التي قدمها الكاتب دفاعا عن القضايا العربية والإسلامية، بل توالت كتاباته بعد ذلك عن الأوضاع في الجزائر، والحرب الأهلية التي تطحنها، فكانت مقالاته السبع التي نشرتها عدة صحف عالمية أيضا من بينها ترجمتي لصحيفة "الحياة" اللندنية دراسة متعددة الجوانب، حلل خلالها الأوضاع السائدة الآن في الجزائر، وبحث في جذورها وحاول أن يضع لها توصيفا نابعا من علاقته القديمة بالجزائر التي عرفها وعرف زعماءها منذ حرب التحرير ضد الفرنسيين، عندما كان يخبئ في بيته الحقائب المليئة بأموال التبرعات لشراء الأ-لحة للمجاهدين، وعرف عن قرب "بن بيلا" و"بومدين" وغيرهما من الزعماء الجزائريين الذين لعبوا دورا بارزا في تاريخ الجزائر

المعاصر، فكان تحليله صادقا ومبنيا على رؤيه شامله لجدور المشكله التي تشبه في جوانب كثيرة منها المشاكل التي يعانيها العالم العربي الآن.

ثم جاءت كتابته الفريدة عن الأوضاع في الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد اتفاق "غزة-أريحا"، تلك الكتابة التي كانت نتاجا لرحلة قام بها لتفقد الأوضاع في الأراضي المحتلة، بعد رحلتين سابقتين كان قد قام بهما إلى فلسطين المحتلة، الأولى أثناء تصويره للحلقات التليفزيونية "القبلة"، التي كانت نافذة مضيئة للتعرف على العالم الإسلامي وحضارته، ثم رحلته الثانية لتفقد "ثورة أطفال الحجارة" الكتابة عنها، وفي هذه الرحلة الثالثة تأكد من صدق حدسه بأن هذا الاتفاق وأن كان أفضل ما يمكن الوصول إليه الآن في ظل الهيمنة الأمريكية على مقدرات المنطقة وتواطؤ أوروبا الغربية مع هذه الهيمنة، إلا أن هذا لن يكون سوى مسكن مؤقت لهذه المشكلة المعقدة، سرعان ما يعود الجمر بعدها متقدا ليشعل المكان بحثا عن إعادة الحق الضائع إلى أصحابه، فاتفاق "غزة-أريحا" في ظل بقاء المستوطنات اليهودية يحول السلطة الوطنية الفلسطينية إلى مجرد "حرس" لهذه المستوطنات التي تم زرعها على طريقة "القص واللصق"، لتشويه خريطة الحكم الذاتي، إن كان هناك حكم ذاتي، فما "عرفات" في هذه المنظومة-في رأيه- سوى "مختار" يتلقى أوامره من السلطات "الإسرائيلية" التي تخلصت من عبء المقاومة لتلقي به إلى تلك السلطة الفلسطينية الشكلية، لتقوم نيابة عنها بالأعمال القذرة التي تحمي إسرائيل والإسرائيليين من رعب المقاومة.

وقبل أسابيع قليلة حاول ما حاوله من قبل في البوسنة، حيث دعا بعض الكتاب والمثقفين الأوروبيين للإنضمام إلى قافلة احتجاج ضد ما يحدث في جمهورية الشيشان المسلمة التي يتعرض شعبها للإبادة على يد الروسي المخمور سليل القياصرة "بوريس يلتسن"، ولكنه وجد نفسه وحيدا في هذه المحاولة، فغامر بمفرده كما غامر من قبل في سراييفو، لا يدعمه سوى صحيفة "الباييس" الإسبانية التي تعتبره أحد أبرز كتابها، فذهب إلى هناك مسلحا بقراءاته عن هذه المؤامرة التي بدأت قبل قرنين من الزمان بهدف استئصال الإسلام من القوقاز، ومن خلال مقالاته التي نشرتها الصحيفة الإسبانية وعدة صحف عالمية أخرى، كشف عن وجود كتابات روسية ممنوعة عن هذه المؤامرة منذ بدايتها، منها رواية للعبقري الروسي "تولستوي" الذي سجل معاناة المسلمين الشيشان في روايته الرائعة "حاج مراد"، الممنوعة حتى الآن في روسيا ولم تنشر سوى في طبعة محدودة في برلين، وأعمال أدبية أخرى للكاتب الروسي "ليرمونتوف"، وخلال هذه الرحلة قضى "خوان غويتيسولو" بين

المقاتلين الشيشان أسبوعا تعرف فيه على الأوضاع هناك التي تعتبر في رأيه "فيتنام" جديدة، أو "أفغانستان" أخرى بالنسبة للروس، مع فارق واحد وهو أن أوروبا وأمريكا تتآمران ضد المسلمين هناك من خلال ستار الصمت الإعلامي المفروض على هذه الحرب، التي يمارسها الجيش الروسي على طريقة "الأرض المحروقة"، حيث يتم تدمير كل شيء، وكذلك بدعم الرئيس بوريس يلتسن على اعتبار أنه الضمانة الوحيدة في مواجهة العودة الشيوعية إلى الاتحاد السوفييتي السابق(؟!).

خلال رحلته تعرف خوان غويتيسولو على المعاناة اليومية التي يعيشها شعب الشيشان المسلم، الذي تعرض عبر تاريخه الطويل لعمليات الإبادة والنفي الجماعي، سواء أثناء حكم القياصرة كما حدث في عهد نيقولا الثاني، أو في العصر الحديث عندما قام "ستالين" بعملية نفي جماعي لشعب الشيشان، ونقلهم من بلادهم إلى مناطق أخرى في القوقاز وسيبيريا، هذا بالطبع تم بعد عمليات الاعتقال والسجن والتعذيب والإعدام التي لاحقت قياداتهم السياسية والدينية.

ولا يرى خوان غويتيسولو أملا في حل سلمي قريب يضمن للشعب الشيشاني المسلم حريته في ممارسة عقيدته، واختيار نظامه السياسي من خلال إقامة جمهورية مستقلة، لأن القوى السياسية الفاعلة في العالم كله من أمريكا إلى أوروبا غير مستعدة للتخلي عن مخططها ضد الإسلام في أوروبا، ذلك المخطط الذي بدأ في البوسنة ولم ولن ينتهي إلا بالقضاء على كل أثر لهذه الشعوب التي لازالت تؤمن بعقيدة مخالفة للعقيدة السائدة في أوروبا.

ومواقف الكاتب الإسباني خوان غويتيسولو ومغامرته بحياته وقلمه للتعبير باسم ضحايا السياسات الاستعمارية المعاصرة، نابعة من الالتزام الذي يعيشه في حياته الخاصة التي تشبه حياة المتصوفة في الزمن القديم، وهو يمارس في حياته قناعات تعلمها على يد شيخه ورائده المتصوف الإسلامي الكبير "محيي الدين بن عربي" الأندلسي، وذنبه الوحيد أنه ولد ويعيش في زمن الكتابة فيه كـ"القبض على الجمر"، لذلك كانت كتاباته دائما جمرات يمسك بها بيديه العاريتين، ومأساة الشيشان لم تكن سوى آخر "جمراته".

إن المواقف الجريئة لهذا الكاتب لم تقابل حتى الآن في العالم العربي والإسلامي بما كان يجب أن تقابل به من تكريم، على الرغم من أنه لم يخاطر بحياته في انتظار كلمة شكر من أي نوع، لكن للأسف لم تحاول أي مؤسسة شعبية أو رسمية من تلك المؤسسات التي

ترفع عقيرتها بصراخ الدعوة إلى إنقاذ اخوتنا الذين يكسر الصهاينة عظامهم في فلسطين، ويبيدهم الصرب في البوسنة، أو من يسحقهم الروس في الشيشان بالقنابل والصواريخ وجميع أسلحة الإبادة الجماعية صباح مساء تحت سمع العالم وبصره، لم تحاول أي من تلك المؤسسات تبني هذا الصوت الشريف الذي لا ينتظر سوى أن يعرف العالم العربي والإسلامي أيضا، أن في الغرب المعادي أصواتا حقيقية -غير تلك التي تحاول استغلالنا والمتاجرة بقضايانا- تقف إلى جوارنا والى جوار شعوب أخرى تناضل من اجل حرية ممارسة عقيدتها، وحرية اختيار طريقة حياتها الكريمة.

د. طلعت شاهين

القاهرة في ١ يوليو ١٩٩٦

حوار مع الكاتب

يعتبر الكاتب الروائي خوان غويتيسولو واحدا من أهم الكتاب الإسبان المعاصرين الذين أثروا الكتابة الأدبية في السنوات الأخيرة؛ وله مساهمات عديدة في التعريف بالعالم العربي والإسلامي من خلال المقالات الأدبية والبرامج التليفزيونية التي أعدها وعلق عليها؛ ومن أهمها سلسلة طويلة في التليفزيون الإسباني بعنوان " القبلة"، التي حاول التعريف من خلالها بجوانب متعددة من التراث الإسلامي الذي يعتبره نموذجا للأصالة والمعاصرة . ويعتبر هذا الكاتب من القلائل الذين يحافظون على خط ملتزم واضح في الإبداع الأدبي، يحاول الإنتصار لحقوق الشعوب في وقت يعتبر فيه الإلتزام جريمة أو موضة قديمة؛ فقد قاد في شوارع باريس مظاهرات تطالب بإلغاء قانون الهجرة الجديد الذي سنته الحكومة الفرنسية المحافظة الجديدة؛ ومن القلائل أيضا الذين أصدروا بيانات ضد النازية الجديدة في البوسنة والهرسك، التي تحاول القضاء على آخر شعب مسلم في أوروبا. وخاطر مؤخرا بالسفر إلى "سراييفو" حيث قضى هناك أسبوعا كاملا ،عايش خلاله الموت الذي يحيط بالمدينة في كل لحظة؛ وكان نتاج رحلته هذه مجموعة من المقالات التي قمت بترجمتها لنشرها في صحيفة "الحياة" العربية، التي تزامن نشرها في الوقت نفسه في حوالي خمس عشرة صحيفة عالمية أخرى، بالإتفاق مع صحيفة "الباييس" الإسبانية التي تحتكر حقوق نشر مقالاته، والتي كانت وراء دعم الكاتب ماديا ومعنويا للقيام برحلته الخطرة.

من أهم أعماله الأدبية روايات " ألعاب الأيدي" و"احتفالات" و" الجزيرة"، وهي روايات واقعية؛ ثم كانت رواية "إشارات شخصية" التي نشرها عام ١٩٦٦، أول عمل لفت النظر إليه ؛ إضافة إلى أنها كانت العمل الأول في ثلاثية أكملها بروايات: "مطالبات الكونت دون خوليان"، ثم " خوان بلا أرض". ومن أعماله الأدبية الأخرى "حرية؛ حرية؛ حرية و" المقبرة" ويعترف الكاتب بتأثره الواضح بالآداب العربية الإسلامية خاصة الصوفية منها؛ فبعد روايه "الطائر الوحداني" التي يبدأها ببيت شعر لسلطان العاشقين عمر بن الفارض ؛ أصدر الكاتب مؤخرا رواية " أربعينية "، التي يستوحي فيها "فتوحات مكية" لمحيي الدين بن عربي.

وتمت ترجمة بعض أعماله إلى العربية منها: "في الإستشراق الإسباني" الذي صدر عن دار الكرمل ١٩٨٨؛ و"على وتيرة النوارس"، الذي صدر عن دار توبقال المغربية ١٩٩٠؛ و" رحلات إلى الشرق" الصادر عن دار إفريقيا الشرق بالدار البيضاء ١٩٩١.

وهو من مواليد برشلونة عام ١٩٣١ ؛ ويعيش الآن في المنفى بين باريس ومراكش منذ عام ١٩٥٦؛ بسبب معارضته لنظام الجنرال فرانكو الفاشستي، حيث كان يعيش من خلال الكتابة بأسماء مستعارة في الصحف الفرنسية مثل :"لا اكسبريس" و"لا اوبزيرفر"، إضافة إلى عمله بالتدريس في جامعات كاليفورنيا وبوسطن ونيويورك. وهو الشقيق الأوسط لثلاثة من أهم الكتاب المعاصرين في إسبانيا يحملون نفس اللقب؛ شقيقه الأكبر الشاعر "خوسيه أغسطين غويتيسولو" الذي يعتبر واحدا من أهم شعراء جيل ما بعد الحرب الاهلية، الذي يطلق عليه اسم "جماعة الخمسينات الشعرية" وشقيقه الأصغر الروائي والناقد "خوسيه لويس غويتيسولو"، الحاصل على الجائزة الوطنية في الرواية.

والحديث مع هذا الكاتب له طعمه الخاص؛ فهو ينطلق في آرائه من معرفة حقيقية وحساسية مميزة تجاه القضايا الإنسانية بشكل عام، والعربية الإسلامية بشكل خاص. ويعتمد على ثقافة واسعة إيمانا منه من أن الكاتب ا... ع لابد وأن يجمع ثقافة أخرى إلى جوار ثقافته الخاصة؛ ورغم رفضه التصنيف إلا أنه؛ يضيف إلى تصنيف النقاد له رؤيته الخاصة في أعماله ككاتب يريد أن يكون " كاتبا مبدعا، وليس كاتبا فحسب".

وهذا الحوار الذي أجريته معه، كان ثمرة ما يقرب من الساعة عبر الهاتف بين مدريد وباريس، حيث كان يكتب رحلته إلى سراييفو، وإضطررنا الى اجرائه هاتفيا بعد أن تعذرت زيارته، التي تواعدنا على اللقاء فيها أكثر من مرة، لاجراء حوار مباشر بيننا، فقد إنشغل وقتها بإلقاء العديد من المحاضرات حول المأساة التي عايشها:

- **إلى أي جيل من الكتاب الإسبان ينتمي خوان غويتيسولو؟**

– أنا لا أؤمن كثيرا بتقسيمات الأجيال؛ لأنني أعتقد أن الإنتماء إلى جيل معين يمكن أن يكون له تأثير في الكتابة؛ أنا أؤمن بأن هناك كتاب ولا كتاب؛ وأحاول دائما أن أكون من الكتاب الحقيقيين. وأنا نتاج الحرب الأهلية الإسبانية؛ فقد كنت طفلا أثناء هذه الحرب؛ وتعرضت أسرتي فيها للدمار؛ لذلك فأنا حساس جدا تجاه الحروب.

• إذن هل يمكن تصنيفك كواحد من "جيل ما بعد الحرب" طبقا لتقسيمات النقاد؟

- بالطبع أنتمي إلى جيل ما بعد الحرب من الناحية الزمنية؛ إلا أنني لم أضع نفسي أبدا في أي مجموعة معينة؛ وتجربتي الأدبية تختلف تماما عن غيري من الكتاب الذين ينتمون زمنيا إلى جيلي؛ فقد عشت فترة طويلة من حياتي بعيدا عن إسبانيا، وكنت على علاقة حميمة بثقافات أخرى مختلفة جدا؛ لذلك فإن تجربتي الثقافية والأخلاقية والسياسية تختلف تماما عن غيري من كتاب جيلي.

• في كتاب صدر حديثا للزميل الدكتور حامد ابو أحمد يشير فيه إلى أنك تعتبر من المتأثرين أسلوبيا بالكاتب الشهير "أميركو كاسترو" فما رأيك؟

- أعتقد أننا جميعا مدينون لأميركو كاسترو لشجاعته في إعادة تصحيح تاريخ إسبانيا؛ متخطيا كل أساطير مؤرخينا؛ وإبرازه للعنصر الإسلامي في تاريخنا؛ وكذلك توضيحه للدور الذي لعبه اليهود في تاريخنا في القرون الوسطى؛ وأعتقد أن الأحداث أكدت صحة تحليله؛ وأنا اعتبر نفسي وريثا له ؛ فقد تعلمت منه الكثير.

• الأسلوب المدجن الذي تتحدث عنه كثيرا كأفضل وأجمل أساليب الكتابة في إسبانيا؛ ماذا يعني بالنسبة لك؟

- نعرف جميعا أن الفن المدجن ولد على أيدي المعماريين المسلمين، الذين خدموا في بلاط الملوك المسيحيين؛ فأنشأوا كنائس وقصورا بإسلوب مزج بين المعمار العربي وبين عناصر مسيحية؛ وأميركو كاسترو كان أول من أشار إلى أن هذه الظاهرة توجد أيضا في الأساليب الأدبية الإسبانية؛ ومنها ("كتاب الحب الطيب") لـ"خوان رويث" الملقب باسم "ارسيبسبو دي هيتا"؛ الذي يعتبر عملا أدبيا مدجنا تماما؛ ثم انصب إهتمامي على الكتابات التي ظهرت بعد عام ١٤٩٢؛ أي بعد سقوط غرناطة؛ والتي توجد منها مجموعة كبيرة تعتبر من الأعمال المدجنة؛ وأبرزها أعمال "ميغيل دي سرفانتيس" ربما يعود ذلك إلى تجربته في سجون الجزائر؛ وعلاقته بالأعمال الروائية هناك؛ وليس من قبيل الصدفة أن يقدم روايته " دون كيخوته " على أنها ترجمة لمخطوطة عربية. ومن هنا يمكن التأكد من وجود تأثير

عربي في إبداعه؛ سواء من ألف ليلة وليلة أو غيرها.وفي أعمال "سان خوان دي لا كروث" نجد أيضا هذا الأسلوب الغامض الرائع المأخوذ عن الصوفية؛ وعندما بدأت في قراءة "عمر بن الفارض" وشعراء الصوفية الآخرين، وجدت أن لديهم تجربة شعرية صوفية رائعة؛ فيما سان خوان دي لا كروث يعتبر تجربة خاصة لا شبيه لها في الأدب الغربي؛ لكنه يعتبر في الوقت نفسه أحد طيور سرب الصوفية. وجدير بالذكر أن هذا الأسلوب المدجن إستمر أيضا في العمارة الإسبانية المعاصرة؛ وأبرز مثال على ذلك المعماري العبقري "غاودي"، الذي كان يقول أن العبقرية في الإبداع هي العودة إلى الجذور؛ وكان يعتبر أن جذور العمارة الإسبانية هي "المدجن".

• في أكثر أعمالك الأدبية تعتمد على الأدب العربي بشكل عام والإسلامي بشكل خاص؛ ولعل هذا يبرز أكثر في كتابك "الطائر الوحداني" الذي تبدأه ببيت شعر لسلطان العاشقين عمر بن الفارض يقول فيه:

شربنا على ماء الحياة مدامة سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم

هل هذا يعني أنك متأثر كثيرا بالأدب العربي والإسلامي؟

- نعم ؛ خاصة في السنوات الأخيرة التي ازدادت فيها علاقتي بالآداب العربية؛ فقد إكتشفت شيئين: أولهما معاصرة في اللغة التعبيرية؛ خاصة الصوفية التي تعتبر الأكثر معاصرة؛ وثانيهما أنه إذا كان البعض يعتبر أن الحداثة بدأت بالشاعر الفرنسي "رامبو"، فأنا أقول "لا" ؛ لأن الشعر الحديث في إسبانيا بدأ مع قصيدة" النشيد الإلهي" لخوان دي لا كروث؛ وخمريات عمر بن الفارض" مثال على الحداثة المطلقة؛ وهذا أثر في كثيرا؛ وأعتقد أنه من الناحية الروحية يتوافق مع تجربتي الروحية كثيرا.

• هل بدأ اهتمامك بالثقافة العربية قبل الإقامة في مراكش؛ أم بدأ بعد بدء علاقتك المباشرة بتلك الثقافة؟

- بدأت علاقتي بالثقافة العربية مع بدايات الستينات؛ وبدأت سياسية أولا؛ لأنه عندما وصلت إلى فرنسا كانت السنوات الأخيرة لحرب تحرير الجزائر؛ وكما ذكرت في كتابي "مملكة الطوائف"، حاولت أن أقترب سياسيا من الجزائريين؛ من خلال علاقتي بجبهة التحرير

الجزائرية؛ وكنت وزوجتي نخفي في بيتنا حقائب مليئة بالنقود، لتمويل حرب التحرير؛ كنت أعيش زخم هذا النضال.

- **كيف ترى الوضع العربي والإسلامي حاليا؟**

– من الناحية السياسية فإن الوضع العربي يمثل كارثة حقيقية؛ أقول هذا بكل صراحة؛ فالحديث عن الوحدة العربية يعتبر أقصر "مزحة" يمكن أن تقال؛ وأحداث البوسنة تعبر عن واقع الحال في العالم الإسلامي؛ فالعجز تام عن تقديم المعونة إلى أخوة يتم ابادتهم في أوروبا؛ بالطبع هناك تضامن من بعض الحكومات والهيئات، لكن ليس بالحجم الذي كان منتظرا في ظل هذه الظروف.

- **كيف ترى العناصر العربية في الثقافة الإسبانية المعاصرة في ظل تجاهل وسائل الإعلام لهذه العناصر وعدم التركيز عليها؟.**

– في الحقيقة هناك جهل كبير؛ ويمكنك أن تذهب إلى غرناطة وأن تسأل الغرناطيين ما معني كلمة "الحمراء"؛ أنا متأكد أن أقل من واحد بالمئة يعرفون أصل الكلمة؛ رغم أننا في لغتنا الإسبانية نستخدم أكثر من ثلاثة آلاف كلمة ذات أصول عربية ؛ إضافة إلى تعبيرات مترجمة من اللغة العربية مثل "أوليه" و"إن شاء الله" و"إذا أراد الله" وغيرها من التعبيرات الدارجة؛ دون أن نعرف من أين جاءت ولا معناها؛ في ثقافتنا. وفي حياتنا اليومية هناك كم ضخم من العناصر العربية أكثر الناس يمارسوها دون التنبه إليها.

- **هل لهذا السبب هاجمت هيمنة الثقافة الأوروبية في كلمة لك قبل قليل أثناء تسلمك الجائزة الأدبية الأوروبية "ايروباليا"؟**

– هناك طريقتان لتكوين أوروبا؛ لو أننا تبنينا أوروبا التي تحافظ على حقوق الإنسان والمواطنة؛ ولعل أهم ما في الثقافة الأوروبية هو الإهتمام بالثقافات الأخرى؛ إذا كانت هذه أورروبا فأنا أعتبر نفسي أوروبيا بالكامل؛ أما إذا كانت أوروبا هي التي تتحول الآن إلى "نادٍ للدول الغنية يحتفظ بحقه في قبول أو رفضْ أعضاء جدد"، في هذه الحالة أنا ضد هذا النوع من "أوروبا"؛ بكل مبادئها الأنانية؛ لأن الثقافة المعاصرة لأوروبا لا يمكن أن تكون لا فرنسية

فرنسية ولا ألمانية ولا إنجليزية؛ ولا حتى أوروبية، إذا لـم تكن ممتزجـة بالثقافـات الأخـرى؛ فعلى مدى ثلاثة قرون أثرى الإسلام الثقافة الأوروبية ليس فـي إسبانيا فقط، بـل فـي إيطاليـا أيضـا إلـى أن ولـد "عصـر النهضـة"، الـذي يعتبر الإبـن الشـرعي لـتزاوج الثقافــة العربيــة الإسلامية بالثقافة الأوروبية؛ وللأسف فإن هذه الثقافة الجديدة هي التـي تحـاول القضـاء علـى أي أثر للثقافة الإسلامية. لكن تلك التأثرات توجد في "الكوميديا الإلهيـة" وفـي الآداب والفنـون الإسبانية؛ وأيضا في عدد من القضايا الخلافية الإسلامية التقليدية التـي إنتقلـت إلـى المسـيحية بكل حذافيرها. وهناك كتاب للمؤرخ "روبرت سوثرن" يبين أن القضية التي تجادل حولها ابـن سينا والفيلسوف الأندلسي ابن رشد حول الروح ؛ وهل الأرواح الطاهرة للصالحين من النـاس سترى الله في الآخرة أم لا ؟. حيث كـان يـرى ابـن سـينا أن هـذه الأرواح لـن تـرى الرفيـق الأعلـى. هـذه القضيـة أثيـرت فـي نطـاق المسـيحية وعارضـهـا "البابـا"؛ إلا أن القديس "تومـا الأكويني"، إلتزم رأي ابن رشد ليرد علـى هـذه القضيـة؛ وكمـا تـرى فـإن القضيـة الإسـلامية البحتة التي أثيرت بيـن اثنيـن مـن الفلاسـفة المسـلمين، تحولـت إلـى قضيـة مسـيحية أطرافهـا مسيحيون. وهناك آلاف الأمثلة الأخرى التي يمكن ذكرها في هذا المجال.

- **أي رد فعل أثاره خطابك قبل تسلم جائزة "ايروباليا"؟**

– أعتقد أنه فاجأ الناس؛ وبعضهم أعجب به وآخرون لـم يعجبـوا بـه؛ فمـن المسـتحيل تجنب الخلاف حول مثل هذه القضايا؛ فقد تحدثت عن أن إنتشار الثقافـة الأوروبيـة خلـق مـن أبناء القارت الأخرى الذين يعيشون بيننا أوربيين مثلنا تماما؛ فأي شخص من كراتشي نشأ في لنـدن يعـرف الثقافـة الإنجليزيـة تمامـا كـالإنجليزي ؛ إضافـة إلـى ثقافـة اخـرى وهـي ثقافتـه الخاصة؛ أو مغربي من الدار البيضاء يتمثل الثقافة الفرنسية بالإضافة إلى ثقافته العربية؛ فـي رأيـي أنهم أوربيـون إضافـة إلـى ثقـافتهم؛ أمـا الأوروبييـن الذيـن لا يعرفـون سـوى الثقافــة الأوروربية فهم أوروبيون أقل درجة. وأنا بشكل شخصي حاولت الإهتمام بثقافات أخرى مثـل الثقافتين العربية والتركية، لأكون أوروبيا من اندرجة الأولى.

- **في رأيك كيف يمكن خلق انفتاح في الثقافة الأوروبية على الثقافـات الأخـرى دون أن تفقد تلك الثقافات تفردها؟**

- يمكننا أن نتعلم كثيرا من الثقافات الأخرى؛ وروايتي الأخيرة "الأربعينية" متأثرة بشكل مباشر بمؤلف "فتوحات مكية" لابن عربي؛ وهو ما يكشف عن ثراء ومعاصرة هذا التراث؛ وأي أوروبي يطلع على "فتوحات مكية" ويبني عملا إبداعيا على هذا المؤلف، يمكنه أن يصنع عملا أدبيا معاصرا، يعتبر مثالا حقيقيا للمعاصرة.

• كيف يمكن تفهم أن كاتبا مثلك يبدي إهتماما كبيرا بمؤلف "فتوحات مكية" في الوقت الذي تحظر فيه دول عربية هذا الكتاب؟

- هذه تراجيديا العالم العربي الكبرى؛ وإنه لمحزن أن أذهب إلى مصر وأطلب أن أسجل للتليفزيون الإسباني أناشيد دينية للترحم على الموتى، فيقابل طلبي بالرفض من الهيئة العامة للإستعلامات؛ لأنه في رأيهم يشوه سمعة مصر السياحية؛ وعندما أحدثهم عن مقبرة "عمر بن الفارض" أكتشف أن لا أحد في وزارة الإعلام يعرف من هو عمر بن الفارض؛ أو أنهم يعرفون "رابعة العدوية" من خلال أغنية لأم كلثوم؛ وربما لولا هذه الأغنية ما كانوا يعرفون من تكون. وأعتقد أن هذا أمر مأساوي؛ لأن الثقافة العربية تضم في تراثها عناصر معاصرة جدا ولا تهتم بها؛ والقطيعة مع هذه العناصر في رأيي بتر للماضي غير مقبول.

• المثقفون العرب يتصارعون حاليا تحت شعار "الأصالة والمعاصرة" ولم يصلوا بعد إلى حل لهذه القضية؛ فما رأيك من خلال تجربتك مع ثقافتنا العربية؟

- كل النقاد يصنفوني على أني الكاتب الأكثر طليعية في إسبانيا؛ وأنا أقول دائما أنني في الوقت ذاته الكاتب الأكثر تمسكا بالتراث؛ لأن كل النماذج التي أتمثلها مأخوذة من مؤلفات كتاب من القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر؛ وأعترف أنني تعلمت منهم المعاصرة؛ وأعتقد أنه لا تعارض بين الأصالة والمعاصرة. وأنا أعتبر نفسي الأكثر تمسكا بجذوري البعيدة التي تصل إلى الجذور العربية في ثقافتي ؛ في الوقت الذي يحاول آخرون البحث عن نماذجهم في ثقافات فرنسية أو أميركية شمالية (الولايات المتحدة)، وغيرها من الثقافات الغربية؛ ويمكنني أن أؤكد أنني أكثر معاصرة منهم. فأنا أؤمن بقول غاودي: "التفرد في العودة إلى الأصل".

• **كرواتي أين تضع الرواية الإسبانية في الأدب العالمي؟**

– اللغة الإسبانية واسعة ولا يمكن وضع حدود جغرافية بين كتاب اللغة الواحدة؛ خاصة إذا كانت منتشرة مثل اللغة الإسبانية التي هي لغة الإبداع في دول أميركا اللاتينية أيضا. ولكني أعتبر الأدب المكتوب باللغة الإسبانية بما فيه أدب أميركا اللاتينية في الوقت الحالي، أكثر إثارة للإهتمام من لغات أخرى مثل الفرنسية مثلا. في هذا الشأن يمكن الحديث عن اتجاهات في الأدب داخل اللغة الواحدة؛ فأنا أجد نفسي مثلا أقرب إلى الكاتب الكوبي "كابريرا إنفانتي"، و"كارلوس فوينتس" المكسيكي.

• **لكن لو تحدثنا عن كتاب إسبان الجنسية من جيلك؟**

– من الكتاب الذين يقاربوني في السن هناك عدد منهم أحترمهم وأحترم إبداعهم؛ ولكني أقول بكل صراحة أن تجربتهم محدودة؛ أما الشاعر "خوسيه انخيل فالنتي" فهو الوحيد الذي يبدي إهتماما مشابها لإهتمامي، خاصة فيما يتعلق بالشعر الصوفي سواء الإسلامي أو المسيحي. وأنا أعتبره من أكبر شعراء جيل ما بعد الحرب في إسبانيا. وهناك كتاب شباب مثل "خوليان ريوس"، الذي لا يقبل اللغة كإرث، بل كشيء يمكن التعامل معه تعاملا معمليا، رغم كل العواصف التي تهب عليه من كل جانب.

• **السفر إلى سراييفو ؛ لماذا؟**

– سأكون صريحا معك، حاولت أن أظل محافظا على إحترامي لنفسي. فقد كنت أشعر بالغثيان من قراءة ما يحدث هناك يوميا؛ وبعد مرور أكثر من سبعة عشر شهرا لم أعد أقبل هذا دون أن أكون طرفا مباشرا فيه بأي طريقة؛ كنت قد كتبت عدة مقالات حول ما يحدث هناك ؛ لكني أعتقد أنه لم يعد كافيا مجرد الكتابة فقط. وعندما يكون هناك حدث مثل الذي يحدث هناك، على المرء أن يختار؛ ويختار ما يتلاءم معه.

• **عرفت أنك حاولت أن تكون رحلتك جماعية مع كتاب آخرين لكنك لم تنجح في ذلك؟**

- يجب أن أعترف أن الشخص الوحيد الذي شجعني على هذه الرحلة هي الكاتبة الاميركية "سوزان سونتاج " التي أظهرت شجاعة أكثر من الكتاب الآخرين. وقد حاولت أن أحلل في "دفتر سراييفو" صمت هؤلاء المثقفين ؛ وإن كان هذا الصمت قد بدأ يذوب خاصة في المقالات الصحافية؛ سواء في صحيفة "الاندبندنت" الإنجليزية أو في " الهيرالد تريبيون" بدأنا نقرأ مؤخرا مقالات تهاجم بعنف السياسة الأوروبية تجاه البوسنة والهرسك؛ بعكس فرنسا التي يسودها شعور بعدم إنتقاد السياسة الأوروبية المتخاذلة بشكل مباشر.

• هل تعتقد أن هناك تأثير للمثقفين على السياسيين في أوروبا؟

- السياسيون الأوروبيون لا يلتفتون إلى ما يقوله المثقفون؛ وقد أشرت في الفصول الأخيرة من "دفتر سراييفو" الى هذه الظاهرة؛ وضمنتها أقوالا للشاعر "انطونيو ماتشادو" عن الموقف إزاء الحرب الأهلية الإسبانية؛ والتي تنطبق على الموقف الراهن من ما يحدث في سراييفو؛ أو موقف عصبة الأمم من الجمهورية الإسبانية عام ١٩٣٦، وهو الموقف المتخاذل ذاته الذي تتخذه الأمم المتحدة من البوسنة؛ وعرضي لمقالات ماتشادو تعتبر ردا على بعض السياسيين الإسبان الذين يتشدقون بأقوال ماتشادو دائما، دون أن يقرأوه بشكل حقيقي.

• نشر المؤرخ غابرييل جاكسون مقالا في صحيفة "البايس" السبت الماضي يعقد فيه هذه المقارنة بين أحداث الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦، وأحداث البوسنة الآن؛ ولفت نظري أنه يحذر من أن الموقف المتخاذل من الصرب قد يدفع بالأقليات في العالم الثالث والاتحاد السوفييتي السابق إلى فعل الشيء نفسه؛ لكن سؤالي هو : ألا تعتقد أن في أوروبا نفسها عناصر عرقية يمكن أن تتخذ نفس الأسلوب؟

- هذا هو الخطير في الأمر؛ لأن السياسة الغربية الحالية تكافيء من يملك القوة؛ وهو ما قد يدفع بأي متطرف عنصري بالتفكير في أنه إذا احتل البلد المجاور لن يجد الرد المناسب؛ لذلك قلت أيضا أنه لا بد من دفن ميثاق الأمم المتحدة ووثيقة حقوق الإنسان في مدافن سراييفو، لأن هذا هو الواقع. الغرب يمارس سياسة الكلام الذي لا يقابله فعل واقعي؛ بل أوروبا تمارس النفاق بوضوح ودون خجل. وأعتقد أن الجريمة الوحيدة التي ارتكبها مسلمو البوسنة، أنهم في بلد لا يملك آبار نفط؛ فالمواطن البوسني المسلم لا يساوي ثمن

برميل من النفط الخام. وموقع البوسنة والهرسك لا يؤثر في شيء على " المصالح الحيوية" للولايات المتحدة ودول المجموعة الأوروبية.

• **ألا تعتقد أن العناصر العرقية في الدول الأوروبية يمكن أن تبدأ حربها الخاصة أيضا؛ وأنت تعرف أن هناك عناصر عرقية في العديد من الدول الأوروبية ومنها إسبانيا تنتظر الفرصة؟**

– إن هذا الموقف الأوروبي المتخاذل سوف يؤدي إلى نشر هذه الحروب العرقية ولا شك ؛ وتحدثت أنا من قبل عن هذا الوضع أمام البرلمان الأوروبي في نوفمبر ١٩٩١؛ عندما دعوني ضمن مجموعة من الكتاب؛ وذكرت بالتحديد أن هناك مجموعتين مرشحتين بشكل مباشر في أوروبا للتعرض للإبادة الجماعية؛ وهما : المسلمون والغجر. لأن أيدلوجية "الشكناز" التي تقتل أطفال المسلمين ونسائهم في البوسنة؛ هي نفس أيدلوجية أولئك الذين يشعلون النار في مساكن الأتراك والمغاربة في المانيا وفرنسا؛ وهي أيضا التي تحرك الذين يتعرضون بالإيذاء للمغاربة والأفارقة في إسبانيا. وأعتقد أنه أمر واضح للغاية أن يقيم ""لو بن" اليميني الفرنسي المتطرف علاقة مباشرة مع كاراديتش في بالي.

• **ألا تعتقد أن تعبير "التطهير العرقي" الذي يستخدمه الإعلام الغربي وللأسف يتبعه الإعلام العربي في استخدامه؛ يعد تعبيرا خادعا؛ وأن التطهير أسبابه دينية وليست عرقية كما يدعون؟**

– من المستحيل تطبيق التطهير العرقي في مكان مثل سراييفو؛ حيث تجد الأسرة الواحدة مكونة من زوجة مسلمة مثلا وزوج مسيحي صربي أو كرواتي؛ ثم إذا قررت الفصل بين الزوجين لمن يكون الأولاد. وأعتقد أنه حسب ما يرمي إليه المفاوضون الأوروبيون من المستحيل أن يقبل المسلمون العودة للحياة في قرى ومدن عزلاء محاطة بالعداء الصربي والكرواتي؛ إن محاولة صنع "غزة" جديدة أو "سوتو لاند" زنجية في جنوب أفريقيا أمر مستحيل.

• **ألا تعتقد أن ما يحدث في البوسنة والهرسك طبعة جديدة معاصرة من "الحروب الصليبية"؟**

- أعتقد أن اللغة التي يتحدث بها الصرب واليونانيون هي لغة "صليبية"؛ ولعل الذي يزعجني شخصيا أن مثقفين من المفترض أنهم يساريون مثل "متيكيس تيودراكس" أو "ميلينا ميركوري" يستخدمون الآن نفس اللغة التي يستخدمها ميلوزوفتش وكارادينش؛ ويتحدثون عن "الخطر الإسلامي" والحاجة إلى الاحتفاظ ببلادهم نظيفة من الإسلام والمسلمين !. لقد سقطت الحواجز بين الأيدلوجيات واستطاعت الأيدلوجية العرقية أن تقضي على اليسارية وتحول المؤمنون بها إلى متطرفين عنصريين. وهذا خطير جدا.

• كيف ترى مستقبل الوضع في البوسنة وأوروبا الآن من خلال موقعك كشاهد؟

- الحرب لن تنتهي بالسلام الذي من المفترض أنهم سيوقعوه؛ لأن الدولة المسلمة الصغيرة التي سيتم خلقها طبقا لخطة المفاوضين سوف تتعرض إن عاجلا أو آجلا لمحاولة صربية جديدة للقضاء عليها وابتلاعها نهائيا؛ دون أن يحرك أحد ساكنا. ثم هناك مشكلة كبرى في كوزوفو التي تغلي الآن؛ حيث يرجد مسلمو السنجق الآن في الوضع ذاته لمسلمي البوسنة والهرسك. ووضعهم في الوقت الحالي أسوأ من وضع الفلسطينيين في الأراضي المحتلة؛ واليونان تطمع في احتلال جنوب ألبانيا؛ واليونان وميلوزيفيتش متفقان على القضاء على مقدونيا. كل هذا قد يؤدي إلى الوضع الذي انطلقت منه شرارة الحرب العالمية الأولى من سراييفو عام ١٩١٤؛ لذلك أعتقد أنه سوف تنطلق من سراييفو أيضا كارثة أكبر وأعنف .

دفتر سرايفو

١- دفتر سرايبفو.

("قصر الطريق
لا يقلل في شيء
من دائرة الظلم اللانهائية "

أنطونيو ماتشادو)

على امتداد الطريق المؤدي إلى مطار رويسي؛ باتجاه باب شابيل ؛ تطل لوحات الإعلانات بشكل ملح على جانبي الشارع: حيث يبرز وجه ملطخ وحيوي لممثل سينمائي (توم بريتجر؟)، تحت عنوان مكتوب بحروف مطبعية ضخمة "سنيبر؛ قناص من الدرجة الأولي" يحاصرني البطل المؤله من اليمين واليسار؛ ويطل علي من أعلى الأعمدة ولوحات الإعلانات ؛ كما لو كانت الرسالة موجهة إلي بشكل خاص. هل تلك نبوءة؛ أم علامة أم تحذير مكشوف؟، أم مجرد نبوءة مسبقة لعراف أو مصير محتوم من المستحيل التنبؤ به لرحلة محطاتها الوحيدة المدونة في بطاقة سفري؛ هي روما وسبليت؟. يقترب التاكسي الآن من الطريق الشمالي؛ يعبر نفق أول طريق دائري حول الضواحي؛ تاركا من خلفه باريس؛ وآخر مشهد لباريس: ذلك الوجه الصارم والقاسي للقناص الماهر؛ النموذج المجيد المعظم والمثالي لأولئك الذين يمارسون في الواقع إطلاق رصاصاتهم في سرايبفو.

وصلت إلى فيوميسين بعد أكثر من ساعتين؛ انتظرت في أقصى ممر المسافرين على طائرة الخطوط الجوية الكرواتية. وعلى المقاعد القريبة من الطاولة الخالية لموظفي الشركة؛ لفت نظري بشدة وجود مجموعة من المسافرين مترفي الهيئة يحيط بهم شيء من الغموض؛ مما أثار لدي شيئا من الريبة. فطبقا لما ذكرته الصحف قبل فترة قصيرة؛ هناك شركة سياحة إيطالية تعلن عن رحلات خاصة لنوع من السائحين يتشوقون إلى الاستمتاع بمشاهد خارقة للعادة؛ وتتضمن تلك الرحلات مسارات تجوب تلك المناطق التي دمرتها الحرب حديثا في مختلف أنحاء العالم؛ حيث يمكنهم استنشاق رائحة البارود الحريفة؛ والتجول في قرى مدمرة

وحجرات شبحية هجرها سكانها؛ ومراقبة الأجساد المتحللة عن بعد والمقابر الجماعية التي لا يكاد يغطيها التراب؛ والجثث المصطفة بأكوام هائلة. يتضمن العرض مبدئيا رحلات إلى أفريقيا وآسيا. أليس من المحتمل أن تكون تلك الشركات قد غيرت خطوط رحلاتها في الوقت الحالي لتقليل التكلفة، حيث لم تعد تلك الحروب من الأحداث الخاصة بالعالم الثالث فقط، بل مدت جذورها إلى مناطق أوروبية؟. على بعد ساعة واحدة من روما ؛ سيهبط زبائن تلك الرحلة الفريدة على الشواطئ الدلماسية (اليوغوسلافية) ليلتقوا بمرشديهم ذوي الأطوار الغريبة؟. أفراد هذه المجموعة السياحية المزودين بمعدات الكشافة - قبعة ومناظير مكبرة وآلات تصوير فوتوغرافي وكاميرات فيديو وجربندية وسراويل قصيرة - ربما كانوا في طريقهم إلى البوسنة بحثا عن مائدة لذيذة؟. فأي مكان فسيح من مشاهد الرعب الحقيقية أكثر من تلك البلاد يمكن أن يشبع الشهية المفرطة، لأكثر الناس شراهة إلى تلك المشاهد؟.

المجموعة السياحية التي صعدت معي إلى الطائرة باتجاه سبليت؛ ترى هل هي في طريقها لمشاهدة جثة "آدم" الأحدب، الذي اعتدل عموده الفقري بما يشبه المعجزة، بعد أن تمت خوزقته على خازوق أمام مدخل بيته؟. أم مشاهدة رأس الغجري "ابرو" ورأسي زوجته وطفله المعلقة على السياج المحيط ببيته، عقابا له على جريمة عدم هروبه منه؛ "على نحو ما كان يحدث في زمن الاحتلال التركي"، كما قال رجال كارادينتش؛ أم مشاهدة رماد قرية "جرابكا" المسلمة؛ التي احترق كل سكانها بعد حفل الطقوس الوثنية الموروثة؛ من تمزيق الأطراف والاغتصاب الجماعي، والنحر الذي أقيم على شرف الإله المطهر المنتصر "سان سافا" ؟. أم للبحث في قرية "بروكو" أمام فندق باسافينا عن الآثار المتخلفة من احتفال الدم والنبيذ العظيم، الذي مارس فيه أبناء المملكة السماوية طوال ثلاثة أيام وأربع ليال طقوس إبادة القرية "التركية" (المسلمة)، ثم نقلوا جثث أهلها في مبردات وألقوا بها في نهر سافا؟. أم ليراقبوا بمناظيرهم المكبرة المشهد الغريب لإحدى نساء قرية "مودريكا"، وهي تمتطي برج إحدى الدبابات مشيرة بسبابتها كساحرة إلى بيوت جيرانها وأصدقائها لتدمرها بعد ذلك بثوان قليلة قذيفة عادلة ؟. (هذه أمثلة من المشاهد المتوحشة التي جمعتها شهادة كاتب بوسني لجأ إلى فرنسا)، أم أنهم ذاهبون لتقصي آثار نهاية ست فتيات من مدرسة فيشجارد للفتيات المقعدات، اللاتي أعدمن وألقيت جثثهن من أعلى الجسر إلى نهر درينا، بينما أطلق عدد من ميليشيات "النسور البيض" المدربين باقي الفتيات في حقل ألغام، ثم تسابقوا فيما بينهم بتجريب مدى إحكامهم في الإصابة بإطلاق الرصاص عليهن؟. أم أن هؤلاء ذاهبون لالتقاط صور

فوتوغرافية للنساء والأطفال المكدسين في قطارات النفي، بعد عملية تنظيف عرقي شاملة؛ أم لتصوير الجثث المجففة في "بريجيدور"، كما حدث مع يهود تريبلانكا؟، أم لتصوير البيوت المحترقة والأجساد المتفحمة والمساجد المدمرة في فيتز وأهنيسي ودونيا فيسيميزكا، التي خلفتها قوات مجلس الدفاع الكرواتي ؛ الذين ينافسون في بسالتهم قوات الشكناز على الطرف الآخر؟.

أم أنهم يتأهبون لالتقاط صورة لتلك الفتاة المسلمة "ياسمين" التي إلتقتها زميلتي مايتي ريكو ؛ وهي التي رسم أبطال الحكايات الشعبية الجديدة على ذراعها الصليب بسكين حاد؛ وغيرها من مئات المساجين الذين يحملون على أجسادهم وإلى الأبد الأحرف الأربعة ل"c" أو "s" التي تمثل طبقا للأبجدية السيريلية شعار Samoa Slog srbina Spasava وترجمته: " الاتحاد هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن ينقذ الصرب"، وهو شعار محبوب من الشاعر الحالم "كاراديتش" ومحاربيه الأبطال؟. أم لتسجيل صورة تلك المرأة الباكية أمام كاميرات التليفزيون وهي تقص الاغتصاب المتكرر الذي تعرضت له على أيدي جيرانها في السكن بالحي "الوطني" لمدينة سراييفو، وتبول على وجهها طفل أحدهم بينما يمسكون بها بين أيديهم، وكل هذا بسبب جريمة زوجها التي لا تغتفر، الذي هرب من المشاركة في الدفاع عن القضية المباركة، وتعاون مع "المتطرفين المسلمين"؟. أم لإعادة تركيب المشهد الدرامي ؛ الذي أشارت إليه سوزان سونتاج؛ وكانت بطلته الزوجة المسلمة لأحد أفراد قوات الشكناز؛ التي قتلوا إبنها ببرود شديد لرفضها القوي تجنيده، ومقاومة الابن لفكرة الذهاب إلى جبهة القتال؛ وذلك قبل ساعات قليلة من حضور الزوج المثالي الغاضب، الذي تتغنى به الأغاني الشعبية الصربية ودخوله إلى البيت ؛ ودون أدنى نظرة إشفاق إلى جسد صبيه المسجي ؛ يقتل ببطولة زوجته التي ارتكبت جريمة منع الصبي من القيام بواجبه، وحولته إلى صربي حقير؛ وكما يقول المثل الصربي: "الجريمة العلنية عقابها علني"؟.

لحسن الحظ فان الحقيقة كانت على خلاف ما توقعت؛ فعند الوصول إلى سبليت؛ تأكدت أن تلك المجموعة السياحية ربما تتكون من عشاق الجمال الطبيعي لجزر براك وهفار أو كوركولا؛ وأنهم يتحرقون شوقا إلى الاستمتاع بالراحة وحمامات الشمس لعدة أيام أو أسابيع، والاستمتاع بطعم النبيذ الطازج وأنواع الأسماك اللذيذة؛ أو ربما كانوا حجاجا إلى قمة الهرسك الجبلية الجرداء، التي تظهر فيها السيّدة العذراء لتابعيها بشكل اعتيادي، وتعلن عن كل أنواع الفواجع والمصائب قبل نهاية العالم المحتومة، والانتصار السماوي الأخير.

أيا كان الأمر؛ فالحقيقة أن السائحين برغم قلتهم، عادوا من جديد إلى الشاطئ الدلماسي (اليوغوسلافي) مستغلين العرض المغري الذي تقدمه الشركات السياحية، بفضل التفريغ المستمر للمنتجعات والفنادق من الهاربين من عمليات التطهير العرقي. هل يمكن للسائح أن يستلقي على الشاطئ أو حول حمامات السباحة في فنادق النجوم الثلاث أو الأربع؛ ويتجاهل ما يحدث على بعد ١٠٠ كيلومتر فقط؟. ألا يكرس على الأقل فكرة شاردة لمنفى مئات الآلاف من الأشخاص الشاردين دون اتجاه محدد؛ تطاردهم قنابل مواطنيهم السابقين وقد حرموا بشكل وحشي من أي ملجأ أو مهرب؟. إنها اللامبالاة الكاملة؛ أليست هذه اللامبالاة نفسها التي تم بها استقبال الجمهوريين الإسبان المتعبين والجوعى على شواطئ أرجيليز عام ١٩٣٦، تم بعد ذلك وضعهم خلف الأسلاك الشائكة؟ هل كان يعرف الفرنسيون الذين منعوا جرعة الماء عن المهزومين وتندروا عليهم بازدراء عندما كانوا يتحدثون عن "الحمر"، أن الفاشية المنتصرة في شبه الجزيرة الليبيرية (إسبانيا) سوف تحتل بلادهم بعد سنة واحدة، وبذلك دفعوا الثمن السياسي لعدم تدخلهم؛ ولامبالاتهم إزاء الجمهورية المقهورة؟.

في فندق سبليت الذي قادني إليه زميلاي "ألفونسو أرمادا" و"خيرفاسيو سانشيث"؛ توقفت لأقرأ العروض الموجهة إلى الصحافيين الذين يقومون بتغطية الأحداث للصحافة الأوروبية والأميركية: "الحماية الذاتية في البوسنة"؛ "استأجر أمنك الخاص". حيث تعرض شركة ألمانية للسيارات المصفحة عددا كبيرا من الموديلات ؛ من السيارة الفارهة مرسيدس بنز ٥٠٠، أو السيارة أوبل سيناتور، إلى سيارة فولكس فاغن المتواضعة!!. لسوء الحظ فإن بطاقة الدعوة لا تتضمن قائمة بالأسعار.

لم أستطع السفر مع أصدقائي من روما بسبب تأخير في توقيت الإقلاع؛ وكان على أن أنتظر إلى اليوم التالي للحصول على بطاقة الصحافة من مكتب قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة (Unprofor)، ثم السفر في الطائرة العسكرية الفرنسية التي تنقل المعونات الإنسانية عبر الجسر الجوي إلى سراييفو.

قررت استغلال الوقت للتجول في المكان المحاط بأسوار قصر "ديوكليسيانو"؛ والتعرف على شوارع تراجير الجميلة؛ والصعود إلى إحدى القمم المطلة على شواطئ سبليت، لأرقب من هناك جزر الشواطئ الدلماسية (اليوغوسلافية) المنتشرة كالتماسيح، أو أقراص النهر الطافية على الماء، والممتدة حتى نهاية الأفق البحري.

في طريق العودة إلى الفندق؛ أسأل سائق التاكسي عن من أستطيع الحديث معهم باللغة الإيطالية؛ أو أين يمكنني إجراء أحاديث مع المهجرين من البوسنة والهرسك.

فيقول لي: " في الفندق نفسه؛ حيث تقوم الراهبات بتوزيع الأطعمة عليهم كل صباح".

- "حتى المسلمين أيضا؟"

- " هذه مدينة نظيفة. وجودهم هنا يسبب لنا هروب الزبائن. نحن لا نريدهم هنا في سبليت"

- " إلى أين تريدهم أن يذهبوا؟"

- "إلى تركيا أو إلى ليبيا. عن نفسي أقول لك فليذهبوا إلى الجحيم"

أحبس نفسي في الغرفة، وأحاول مع جهاز التحكم عن بعد (الريموت كونترول)، إلى أن أتمكن من العثور على نشرة أخبار كرواتية - يالها من مفاجأة إلهية - فالنشرة مكرسة للأنشطة والخطب واللقاءات اليومية للرئيس العبقري "توجمان".

هل هو التأثير المنوم لبرنامج العمل، أم التعب المتراكم طوال اليوم؟، فلأول مرة منذ سنوات طويلة أنام والضوء مشتعل .

٢- في مصيدة الفئران.

الرحلة إلي سرايفو تشبه لعبة "الإوزة" التي يلعبها الأطفال؛ آخر مربع فيها عبارة عن مصيدة للفئران. تطير طائرات الهيركوليس العسكرية الفرنسية يوميا من سبليت إلى عاصمة البوسنة لنقل المعونات الإنسانية؛ وعلى متنها يتم حجز دستة من المقاعد على الجانبين للمراسلين الصحافيين وموظفي المنظمات والهيئات الدولية. في يوم سفري اكتشفت في ممر الإقلاع بالمطار أنني كنت الصحافي الوحيد؛ ويحتل باقي المقاعد الأخرى مديرة اللجنة العليا لمساعدة اللاجئين بالأمم المتحدة "ساوكو أوغاتا"؛ وفريق من مستشاريها. ما أن وضعنا أقدامنا على أرض المطار حتى أحاط بنا سرب من المصورين وكاميرات التليفزيون، قادنا العسكريون باستعجال في متاهة عبر ممرات محاطة بجدران وأكياس رملية؛ لحضور مؤتمر صحافي أعد على عجل. وكان يجب أن تنقلني عربة مدرعة من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة عبر الأراضي التي تسيطر عليها القوات الصربية، لأصل إلى مبنى البريد السابق في وسط المدينة والذي لا يزال في أيدي قوات الرئاسة البوسنية. لكن قبل القيام بهذه الرحلة كان يجب أن أوقع وثيقة أعفي فيها قيادة قوات الحماية الدولية التابعة للأمم المتحدة من أية مسئولية تتعلق بـ"الفقد أو الإصابة بجروح أو الموت"، التي قد تحدث لي أثناء الطريق. هذا الإجراء بدأ تطبيقه بعد ما حدث مع نائب رئيس البوسنة "حاكيجا توراجلكش"، الذي انتزعته ميليشيات كارادتش بالقوة من إحدى عربات الأمم المتحدة المدرعة، وقتلته بكل هدوء أمام أعين حرسه الخاص؛ ثم تبعها "الاحتجاج العنيف" من الحرس الخاص؛ لهذا أتفهم موقف أفراد قوات الخوذات الزرقاء الذين تعلموا من خلال التجربة أن يؤثروا السلامة . ففي البوسنة يسيطر قانون الغاب، حيث يتحكم الأقوى. فعجز قيادة قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وخضوعها أمام تعسف وابتزاز كاراديتش ورجاله، يذكرني بشعار إعلاني مناسب لعملية السفر المحتملة: "تقدم بجثتك، وقوات الحماية الدولية التابعة للأمم المتحدة تتولى الباقي".

جاء ضابط صف إسباني ليحييني ويساعدني على صعود العربة المدرعة مع حقائبي المتواضعة، بعد أن أخبره الزميلان ألفونسو أرمادا وخيرفاسيو سانشيث بموعد وصولي، كانت الحراسة مكونة من جنود أردنيين ومصريين؛ أثناء الطريق كنت ألمح عبر نافذة جانبية

مشاهد الدمار: بيوت تطايرت أسقفها؛ هياكل سيارات متفحمة؛ أعمدة تليفونية مقصوفة؛ أعمدة مهملة لأسلاك شائكة؛ وطرق مليئة بحفر أخدودية لا تؤدي إلى أي مكان.

عدنا إلى لعبة الأوزة من جديد في جراج السيارات الخاص بمبنى البريد: تفتيش وانحناء للمرور عبر الموانع ثم متاهة صغيرة من الأكياس الرملية، إلى أن نصل أخيرا منهكين إلى المبنى الحدودي، حيث كان العسكريون الفرنسيون يدعون زملاءهم لتذوق مائدة لذيذة من الأطعمة الباردة، جبن ودجاج ولحوم وحلوى ونبيذ وشمبانيا احتفالا بيوم ١٤ يوليو، بمناسبة العيد الوطني الفرنسي!. عثر علي زملائي في مكتب التسجيل والمحفوظات الخاص بالمراسلين الصحافيين، ثم انطلقنا على الفور في سيارة باتجاه فندق "هوليداي إن".

أعيدت تسمية شارع "فويفود بوتنيكا" الذي يخترق الحي الحديث في سراييفو من جديد؛ فقد أطلق عليه المحاصرون في المدينة اسم "طريق القناصة". في دليل سياحي مصور للعاصمة تمت طباعته قبل سبع سنوات، يمكن أن تقرأ أوصافا كالوصف التالي: "أضواء المدينة، تماما كقطرات الندى، تشكل الظلام بأضواء لامعة، أكثر من لمعان النجوم في السماء البوسنية: تماما كإحساس السائح الذي يصل ليلا إلى ضواحي سراييفو. إذا سافرت نهارا، ستعثر على مدينة شرقية تشبه تلك التي توجد فقط في الأساطير وستذهل وأنت تخترق طرقها الواسعة ذات العمارات الحديثة البراقة، أو على الطراز النمساوي في القرن التاسع عشر". لكن المدينة التي أتأملها الآن ليست سوى ساحة من الدمار؛ مليئة بالجراح؛ والأوصال الممزقة؛ والأحشاء؛ وقروح طافحة؛ وآثار مفزعة. شوارع ومبان كاملة اختفت من الوجود؛ لا ترى فيها لا الترامات ولا الحافلات العامة؛ وطريق فويبود بوتنيكا خال تماما. الأشجار تم قطعها، والناس قابعون في مخابئهم. واجهات بعض المباني ذات العشر أو الاثني عشر طابقا تبدو واجهاتها محترقة أو مليئة بالثقوب؛ كتثاؤب أجش أو عيون حشرات قلقة؛ ناطحات سحاب من زجاج لآلاء تنتصب كخلايا نحل عمياء. المرايا التي كانت تنعكس عليها الشمس وتتألق تتناوبها مناطق بصرية مفرغة، وتحفها نظرات شريرة ناقصة. سيارات خاصة وحافلات عامة متفحمة، تنشر رعب الحريق في منتصف الطريق. ترامات باللونين الأحمر والأبيض؛ ساكنة ومليئة بخروق الرصاص؛ تصدأ إلى جوار الأرصفة التي اجتاحتها الحشائش والشجيرات الصغيرة. أسلاك الترولي معلقة بشكل خطر ما بين الأعمدة وتحتك بالأرض كالثعابين. هناك مبان لم يتبق منها سوى أسياخها الحديدية؛ وأكشاك وكبائن تليفونية شبه منصهرة ومدمرة؛ أعمدة كهربائية ملتوية ولا فائدة ترجى منها، أكوام وأكوام من الخردة؛

حافلات مفككة سوداء كالفحم. ولا يكاد يوجد سكن واحد يحافظ على نوافذه سليمة: أما تلك التي لا تزال مسكونة برغم تعرضها لرصاص القناصة؛ فقد تمت تغطية الفتحات برقع من البلاستيك الذي توزعه قوات الحماية الدولية التابعة للأمم المتحدة. وفي منتصف تضاريس الدمار؛ هناك ساعة توقفت عقاربها على الساعة الثامنة تماما (لأي يوم، لأي شهر، لأي سنة. لا ندري؟). تبدو مدينة سراييفو لأول وهلة مدينة شبحية بلا ماء ولا كهرباء ولا مواصلات عامة ولا حتى تليفون؛ تبدو كهيكل متفسخ، أو جسد بلا حياة. إلا أن القعقعات المتقطعة لطلقات المدافع الرشاشة، وصخب طلقات المدفعية بين وقت وآخر؛ وأزيز رصاصات القناصة تذكر الزائر بأن عذابه مستمر. لكن العاصمة البوسنية تقاوم، ولا تزال تقف على قدميها بإعجاز رغم حمم النيران التي تتساقط عليها، وعمليات الخنق المستمرة التي تضغط عليها.

ما أن يصل الغريب إلى سراييفو حتى يجب عليه أن يبدأ في تطبيق قوانين وقواعد بدائية لمواصلة الحياة. فإذا كان معتادا على حياة حرة وبدون منغصات، فإن حياته الجديدة في مصيدة الفئران التي يتقاسمها مع ٣٨٠ ألف كائن بشري، تجبره على التعلم السريع: عليه أن يعرف الأماكن التي تعتبر خطورتها عالية؛ وتلك التي يمكن التنزه فيها دون خطورة كبيرة؛ والأحياء التي تسقط عليها طلقات المورتر وقذائف المدفعية؛ والزوايا والتقاطعات المفضلة لدى القناصة؛ والأماكن التي يحسن السير فيها منحنيا؛ وتلك التي يجب الهروب منها بسرعة. إن أي غفلة أو خطأ في حسابات اختيار الطريق يمكن أن تكون النهاية المشئومة . وكما يقول أهل سراييفو: "أي إطلالة على الخارج، كلعبة الروليت الروسية". مع أن الجميع مضطرون إلى الخروج بحثا عن الماء والطعام ومواد التدفئة. هكذا عرفت منذ اليوم الأول أن الحذر يفرض علي أن أخرج من الفندق بسرعة، متفاديا "طريق القناصة" المؤدي إلى المدخل القديم للهوليداي أن؛ يجب الصعود بسرعة الريح باتجاه كراجيفيكا، والوصول إلى أكثر المناطق أمنا عن طريق المارشال تيتو، وطريق المشاة في شارع "فاسي مسكينا"، ثم الدوران إلى الخلف. فالسيارات التي لا تزال تسير في الشوارع تتدفع بشكل فجائي عندما تعبر تقاطعا مكشوفا؛ مع احتمال كبير أن تتصادم بسيارات أخرى أو بمدرعات قوات الحماية الدولية البيضاء التي تقطع المدينة طوال النهار. وللحماية من نيران "الأبطال" الذين يحتلون السفوح المحيطة بالمدينة، ويفضلون إطلاق رصاصهم على الأطفال والنساء، قام جنود جيش البوسنة بإغلاق الفتحات ذات الخطورة الكبيرة بكل ما وصلت إليه أيديهم من أشياء: حاويات وأتوبيسات

وسيارات ولوحات إعلانات، تستخدم كسواتر تحميهم من الشراهة الدموية لصليبي صربيا الكبرى.

يتوقف سكان سراييفو في "الشوارع الأكثر أمنا" لشراء ما يستطيعون أو يصطفون أمام النوافير محملين بأواني الماء. إلا أن ذلك الأمن نسبي؛ فالشكناز (متطرفو الصرب) يزيلون هذا الأمن في كل مرة يركن فيها السكان إلى الطمأنينة: المذابح المستمرة أمام مركز توزيع الخبز في فاسي مسكينا؛ إطلاق القنابل على ملعب الأطفال، أمام الصنابير التي يتجمع الناس حول مائها، أو تشييع الموتى في المقابر. كل هذا يؤكد أنه لا أحد ؛ لا أحد على الإطلاق يمكنه أن يشعر بالأمان في أي مكان من المدينة. فقد قتلت عائلة بكاملها عندما أصيب المكان الذي لجأت إليه بطلقة مورتر، رغم أن تلك العائلة كانت قد تركت الشقة العليا التي كانت تسكنها في المبنى، لأنها كانت تشعر هناك أنها معرضة للخطر أثناء سقوط القذائف المدفعية على المكان. كل الناس مستعدون للقاء الملاك الأسود؛ المؤمنون منهم مستعدون للقاء عزرائيل؛ ملاك الموت في العقيدة الدينية الإسلامية. يجب أن توطن نفسك على الموت في تلك المدينة، التي لا توجد فيها أخشاب لصناعة التوابيت، يجب أن توطن نفسك على السير بإيمان واضح بأنك تفتقد إلى الحماية والطمأنينة. فلا أحد يمكنه أن يضمن لك أن لا يركز أحد القناصة الممتازين، بشكل محتمل على شخصك الذي لا قيمة له، أو أن تنفجر قنبلة يدوية أو طلقة مدفع في داخل بيتك.

يتحمل سكان سراييفو تلك الإبادة المشئومة منذ أكثر من سنة، ما بين نظام الاعتقال في سجن مفتوح بلا رحمة؛ ولا كرامة، لكن التأثير الناتج عن الجوع والإنهاك والإحساس العام بالخيانة والإهمال قد سيطر أخيرا عليهم، منذ اتفاق العار في واشنطون، ومن ثم صارت مقاومتهم المعنوية في أقصى درجات التحمل. فقد أدركوا فجأة أن مصيرهم قد تقرر، وألا ينتظروا مساعدة من أحد: لا من مدرعات قوات الحماية الدولية البيضاء العاجزة عن حماية نفسها؛ ولا من الطائرات الأميركية التي تقطع سماء المدينة في مهمات عقيمة، وغير مجدية بالحفاظ على سماء المدينة نظيفة. فكل الجرائم التي ترتكب في سراييفو وكل البوسنة من عمليات قتل وتدمير ومذابح - كل هذا الطقس المعروف باسم التطهير العرقي - يجري على الأرض بلا رادع.

٣- مستشفيات،

ومقابر،

وصحيفة.

تكشف النشرة الإعلامية التي أصدرتها وزارة الصحة العامة برئاسة البوسنة قبل وصولي بقليل، بكل فظاعة عن حجم عمليات القتل الجماعي، التي تمارس ضد الشعب البوسني منذ أبريل ١٩٩٢: ١٤٠ ألف قتيل (منهم ٩٠٤٠ في سراييفو)، ١٥١ ألف جريح (منهم ٥٣٠٩٥ في سراييفو)؛ ومليون و٨٣٥ ألف شخص مهجر؛ و١٥٦ ألف معتقل في معسكرات اعتقال تسيطر عليها قوات الصرب والجبل الأسود؛ و١٢١٠٠ عاجزا ومشلولا (منهم ١٢٨٠ طفلا)، ورقم تقريبي يذكر بحوالي ٣٨ ألف إمراة تم اغتصابها.

* * *

ما أن وضعت حاجياتي في الفندق؛ حتى قررت أن أزور مستشفى كوسوفو، الذي يعد أكبر وأحدث مستشفى في المدينة. ويعتبر الطريق عبر كرانجيفيكا ودور داكوفيكا أول إشارة إلى المعاناة التي يعيشها المحاصرون: أكثر المشاة في هذا الطريق يحملون عدة براميل بلاستيكية بحثا عن الماء، أو يدفعون أمامهم عربات صغيرة؛ من ذلك النوع الذي يوجد في محطات القطارات والمطارات والمحلات والمخازن الكبرى. أو يدفعون أمامهم عربات أطفال ودراجات وعربات من ذوات العجلات الثلاث وزلاجات وقناني محمولة على دعامات. ويكاد حمل الأخشاب أن يقضي على طاقة احتمال النساء والرجال، الذين يصعدون منحدر الحي الذي يوجد فيه المستشفى.

* * *

يرسم الدكتور "فيوك كولينوفتش" مدير المستشفى، صورة قاتمة للوضع هناك: لا ماء ولا كهرباء منذ تسعة أيام ؛ ولم يعد في الخزانات سوى عشرة لترات من الكيروسين لتغذية مولد غرفة العمليات، لذلك يجدون أنفسهم مجبرين على إجراء العمليات الجراحية نهارا. بالقرب من النوافذ لاستغلال ضوء النهار، وفي الطرقات المكشوفة مما يجعلهم معرضين

للإصابة بنيران العدو. ويحتفظون بالمولد الكهربائي لاستغلاله في إجراء العمليات الجراحية العاجلة للجرحى الذين ينقلون إلى المستشفى ليلا.

- "ماذا يحدث لو أطلقوا على المدينة صواريخ عنقودية الآن؟"

- " سنجد أنفسنا مجبرين على إجراء العمليات الجراحية، وإجراء عمليات البتر على ضوء الشموع ومصابيح الكيروسين".

***

رافقني الدكتور كولينوفتش وأصدقائي إلى قسم حديث للجراحة، يتكون من عدة أجنحة يخيم عليها الظلام. حيث توجد آلات المراقبة وأجهزة رسم القلب وأشعة اكس عاطلة عن العمل لعدم وجود تيار كهربائي. إضافة إلى الحاجة العاجلة إلى مواد تخدير وضمادات ومضادات حيوية ومحاقن. وأشار إلى أن مخزون الأوكسيجين على وشك الانتهاء، وأن قسم العمليات مغلق بشكل مؤقت بعد إصابته بقذيفة. أما معقم مركز الإنعاش فيعمل باستخدام الأخشاب كوقود.

***

ثم انتقلنا إلى صالات القسم الداخلي للمرضى. فكنا نلتقي على الدرج بمصابين في طور إعادة التأهيل، من مقطوعي الأيدي ومبتوري السيقان، يتحاملون على عكازات أو بدون عكازات، أو رجل فقد ذراعيه. يرقد في الغرفة ثلاثة من الجرحى؛ أشار الدكتور كولينوفتش بإصبعه إلى فتحة نتجت عن اختراق قذيفة للحائط، ثم سقطت بين سريرين، ولكن لحسن الحظ لم تنفجر. ومشاهد بشعة لا تحتمل لثلاث نساء أدخلن إلى المستشفى حديثا: اثنتان منهن مصابات بجراح قذيفة مورتر، أما الثالثة فقد أصابها قناص بطلقة في الرقبة، وهي محملة بالقناني بحثا عن ماء للشرب. كل حالة حكاية، وكل حكاية رعب. جلس ميروسلاف باجيك الكرواتي الأصل والبالغ من العمر ٤٦ عاما على حافة سريره، ليحدثنا بعد أن كان يحاول السير على عكازاته؛ فقد أصيب عندما انفجرت إلى جواره قنبلة يدوية أثناء سيره في الشارع؛ وظل ينزف طويلا، لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يقدم له يد المساعدة. وهو يرقد في منتصف الطريق تحت وابل القصف. يقول: "الشكناز يريدون زرع الكراهية في قلوبنا حتى لا نستمر في الحياة معا. لكن أنظر يا حضرة إلى تلك الصالة: هذه الغرفة أشغلها أنا وصربي ومسلم، يعيش ثلاثتنا كأشقاء.

***

عدت بعد ثلاثة أيام برفقة مترجمتي "ألما" إلى قسم جراحة الأطفال بنفس المستشفى. شرح لي مسئول القسم كيف أنه وفريقه المكون من أحد عشر طبيبا، أجروا عمليات جراحية لعدد ١٢٠٠ طفلا منذ بداية العدوان الصربي؛ وأن هؤلاء الأطفال يعيشون في نفس الظروف التي يعيش في ظلها باقي أقسام المستشفى. وأنه رغم المساعدات التي تصلهم من منظمة "أطباء بلا حدود"، وغيرها من المنظمات الإنسانية؛ فإنهم يفتقدون إلى أدنى المتطلبات العاجلة.

•••

جناح الأطفال حديثي الخروج من غرفة العمليات يعتبر نموذجا وعينة للمعاناة المفروضة على المدينة. تواجهني طفلة صغيرة بنظرات تائهة وعضلة ساقها الممزقة تتدلى في دلو ماء. فشعرت باستحالة الوقوف إلى جوارها وتوجيه أي سؤال لها. عرض الجراح يبدو وكأنه ترتيل للألم: "إزرا" مصابة بجرح في الرقبة نتيجة رصاصة قناص أصابتها قبل يومين؛ "تظيرة"؛ ضحية قنبلة حارقة أصابتها في السابع من يوليو الماضي. وأصيب "أديس" قبل أسبوعين، عندما كان يحاول وصديق له أن يجنيا ثمار الكرز من إحدى الأشجار؛ أما الطفل "ألمير" الذي لا يكف عن الضحك، فقد أصابته طلقات مدفع رشاش منذ تسعة أيام بالقرب من المطار، ومنذ ذلك الوقت لا يعرف شيئا عن أسرته. وكذلك الطفل "الفيدين" الشاحب النحيل؛ الذي ترتسم في عينيه نظرة حيوان أليف مصاب بالرعب. كيف يمكن تفسير وجود هذا العدد الضخم من الضحايا بين الأطفال؟. هل حقيقة ما أكده لي الجريح الكرواتي الذي إلتقيته، وذكر لي أن الميليشيات وأفراد الشكناز يتلقون مكافأة مضاعفة عن كل إصابة يلحقونها بامرأة؛ وتتضاعف المكافأة خمس مرات إذا كانت الضحية طفلا؟.

•••

هزال المرضى يدل على انعدام الغذاء الصحي. أين يمكن العثور على الحليب؛ أو اللحوم والفيتامينات المركبة الأساسية لهؤلاء المرضى، إذا كان جنود كاراديتش يوقفون ناقلات المساعدات الإنسانية؛ ويعاملونها بطريقة مهينة؛ رغم كل الوعود والاتفاقيات الموقعة؛ ويمنعونها من الوصول إلى سراييفو طوال أيام وأيام؟. في صالة ألعاب الأطفال الذين يقضون فترة النقاهة؛ كان هناك دستة منهم يرسمون أو يتحادثون حول إحدى الطاولات، بينما يعرض علينا الممرض بابتسامة دبا كبيرا من القطيفة، ويقول أنه هدية من الجنرال موريلون (!!).

•••

في الايام والليالي الساخنة تضيق المساحات في المستشفيات؛ تضيق المساحات في مخازن الجثث - يجب صفهم على الرصيف جثة إلى جوار أخرى - تضيق المساحات في المقابر. فقد كانت مشاهد الدفن من الأهداف المفضلة للقناصة؛ مما أدى إلى البحث عن أماكن أخرى أقل تعرضا للخطر (مثل حديقة سفح كوفاسي)، أو استغلال ساعات الغروب لدفن الضحايا في الخفاء، (بالقرب من الإستاد الأولمبي الذي أقيمت عليه ألعاب الشتاء عام ١٩٨٤). مشهد مقابر الإستاد تعتبر نموذجا خاصا جدا: فيما تتراوح تواريخ ميلاد الموتى التي تمتد حتى تغطي عقودا عديدة، فإن تواريخ الرحيل ثابتة؛ إما ١٩٩٢ أو ١٩٩٣. وسبب الموت معروف، وبعض الضحايا قضوا نحبهم في المقابر ذاتها. تحت أقدام تمثال السبع القديم؛ تجد الشواهد التي تحمل رسم الهلال والنجمة الخماسية تختلط بالصلبان الكاثوليكية أو الأرثوذكسية، وتحاصر الشواهد الرخامية للمقبرة اللادينية التي تضم رفات كبار رجال الدولة في عهد "تيتو"؛ تتوجه كل هذه الشواهد الإسلامية والمسيحية بجميع طوائفها باتجاه القبلة؛ لقد وحد الموت بين المؤمنين من ديانات أهل الكتاب؛ ضحايا الوحشية نفسها. ذلك الحصاد الكبير من الصلبان والشواهد الجنائزية؛ كان يجب أن يضم شاهدا آخر؛ ضخما؛ يحمل تواريخ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨؛ والاتفاق الأوروبي لحقوق الإنسان لعام ١٩٥٠؛ واتفاقية الحقوق المدنية والسياسية الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٦٦؛ وإعلان مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي المنعقد في باريس عام ١٩٩٠؛ وكذلك تاريخ إعلان إنشاء الأمم المتحدة واتفاق جنيف الشهير، مع إضافة جملة إلى الشاهد تقول: "هنا ترقد كرامة المجموعة الأوروبية، ومصداقية منظمة الأمم المتحدة المقتولتان في سراييفو، بجبن واستهتار مفاوضيهم، وزعمائهم الذين لا مثيل لهم"؛ كتذكار لكل شعوب العالم بقيمة الوعود الأخلاقية للقوى الكبرى - العشرات والعشرات من الاتفاقيات التي لم تنفذ، والقرارات التي ترقد في الأدراج - لأن المصالح الحيوية لتلك القوى الكبرى لا تتعرض للخطر.

•••

ربما كانت صحيفة " اوسلوبودي" ذات السمعة الدولية، أفضل مثال على حقد المتطرفين الصرب وشجاعة الذين يقاومونهم. فالبرج البيضاوي الذي يضم صالات تحريرها، تحول إلى كتلة لا شكل لها، بفضل القذائف، فالمبنى محاط بالرواسب الكلسية والشجيرات المتسلقة التي تبدو وكأنها تبتهل؛ فالإصرار على الضرب المستمر يكشف عن التسلط الذي يحاول إسكات صوت الضحايا. في اليوم الذي ذهبت فيه برفقة "ألما" وخيرفاسيو سانشيث،

اخترقنا "طريق القناصة" باقصى سرعة للسيارة؛ وجدنا عددا من الصحافيين والمصففين؛ قد اختبأوا من القناصة؛ في الحديقة الملاصقة للمدخل الأمامي؛ ليغسلوا ملابسهم ويعرضوها للشمس، أو يستريحوا في ظل الشجيرات من عناء عمل الليل.

•••

ندلف إلى المبنى شبه المظلم. ماكينات الطباعة توجد في الطابق تحت الأرضي، لذلك لم تصب بسوء كباقي المبنى الذي يتعرض لضربات القذائف المتواصلة: تحت الفتحتين أو الثلاث فتحات التي تخترق السقف؛ كانت هناك براميل من الزنك لتجميع مياه الأمطار حتى لا تغرق الأرضية. أما صالة التوزيع فتوجد في طابق سفلي؛ في جانب المبنى البعيد عن قصف الشكناز. وعند الصعود إلى الطابق الأول فإن المشهد مفزع؛ طرقات مغطاة بالأطلال؛ ومكاتب محطمة؛ وأسقف ساقطة؛ وآلات تحونت إلى ضفائر؛ ومقاعد دوارة تمزقت أحشاؤها؛ ونوافذ من الزجاج المحطم؛ ثم نلمح في المواجهة عبر الوهاد وأخشاب الحماية على بعد حوالي مئتي مترعلم جمهورية صرب البوسنة غير المعترف بها؛ يرفرف على مبنى قريب. أما المسافة بين ذلك المبنى وبين ما تبقى من مبنى صحيفة "اوسلوبودي" فمزروعة بالألغام. ومنذ مايو ١٩٩٢ هناك اثنان من قناصة كاراديتش يطلقان رصاصهما من هناك، لكنهما لم يحاولا عبور المنطقة الفاصلة.

•••

أتجاذب أطراف الحديث مع اثنين من "لصحافيين في الكافيتيريا، فيؤكدان أن حوالي أربعين من الصحافيين وعمال التصفيف يعملون سبعة أيام في الأسبوع، لضمان طبع الصحيفة وتوزيعها في الشارع. وأنه لدواعي أمنية تم نقل التحريو إلى شقة بشارع المارشال تيتو ؛ وهو المكان الذي كنت قد أجريت فيه قبل ثلاثة أيام لقاء برفقة زميلي ألفونسو أرمادا مع رئيس التحرير كمال كورزبانتش، والكاتب زليتكو ديزداريفتش مؤلف يوميات حربية المنشورة في فرنسا. يقول الصحافيون أن "صحيفة "اوسلوبودي" في عام ١٩٩٠ كان يعمل فيها ٢٨٠٠ من العاملين؛ وكانت تصدر إضافة إلى الصحيفة ١٨ مجلة في مجالات السينما والرياضة والموضة والسياسة، وغيرها من مجالات النشر؛ توزع كلها في جميع أنحاء يوغوسلافيا. وكانت الصحيفة تطبع يوميا ٧٠ ألف نسخة؛ وكان إجمالي ما يصدر عن المؤسسة حوالي المليون نسخة. وحاليا تطبع ثلاثة آلاف فقط، نظرا لعجز مخزون الورق؛ فالمخزون الحالي لا يسمح بطباعة أكثر من هذا العدد؛ حيث لا يكفي لأكثر من أسبوع واحد.

وتنفد أعداد الصحيفة في لحظة وصولها إلى أماكن البيع". وكما يقول رئيس التحرير فإن الصحيفة في حاجة بشكل عاجل إلى ٣٠ لترا من الوقود: لأنه بغير هذا الوقود لا يمكن لماكينات الطباعة أن تواصل العمل. وأنه بحلول ٣٠ أغسطس تمر الذكرى المئوية الأولى لإنشائها. وأن الوصول إلى هذا التاريخ متوقف بشكل كامل على مدى التضامن الدولي.

•••

رغم مرور خمسة أيام على وجودي في فندق "هوليداي أن"، فإنني لم أشاهد واجهته الأمامية بعد؛ لذلك أثناء العودة من مبنى صحيفة "اوسلوبودي" توقفنا في "طريق القناصة"على بعد ثلاثمائة متر منه ؛ تحت رحمة رصاصة تنطلق من المبنى الممزق لمتحف الثورة المأسوف عليه؛ صورنا المبنى الأصفر ؛ المصمت كمخبئ فخم؛ سارياته عارية من أعلام الترحيب؛ بمظلته الفاخرة التي كان البوابون ذوو الهندام الأنيق يستقبلون تحتها الزوار بمجرد هبوطهم من السيارة. بعض القذائف حولت نوافذه وطوابقه إلى شبكة مما حط من قدره كمحدث نعمة.

•••

ياله من مكان غريب الذي أمضيت فيه أيامي طوال إقامتي في سراييفو؛ فكنت أسمع ليلا ونهارا؛ ما بين هدنة كاذبة وأخرى صفير الطلقات ؛ وقعقعات المدافع الرشاشة وصخب نيران المورتر! وكنت أنام دائما وقد وضعت في أذني كرتين من الشمع، وخامرني إحساس بأني موجود في قرية من قرى الأندلس أو قشتالة، في يوم الاحتفال بعيد قديسها الراعي.

٤- تقرير الرعب.

لو تصفحنا إحصاءات اللجنة الحكومية لتسجيل جرائم الحرب في جمهورية البوسنة والهرسك؛ فإن بلاغة الأرقام الجافة تغني عن أي تعليق: ٦٥٠ شاهدا؛ و٢١ ألف اسما لأشخاص اغتيلوا؛ و٥٠٣٩ من مجرمي الحرب؛ و١٦٩ معسكرا للاعتقال؛ و٧٢ قرية أبيدت بالكامل؛ و٥٥٩ مسجدا تم تدميرها. وكما يقول الصحافي البريطاني المعروف روبرت فيسك:" إنه تقرير الرعب".

هذا التقرير وغيره من الشهادات الدامغة، التي لا يمكن تكذيبها تبين بما لا يدع مجالا للشك الهدف الذي يرمي إليه المتطرفون الصرب -الذين تربوا على الميثولوجيا الدموية، والشوق العلماني للانتقام لهزيمتهم أمام الأتراك في معركة ميرلوس بإقليم كوزيفو في القرن الرابع عشر- وهو الإبادة الجماعية لمسلمي البوسنة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى مادي. ودون أن نتوقف طويلا أمام تلك الشهادات المذهلة والمخجلة، أذكر فقط تلك الشهادة التي قرأتها في التحقيق الصحافي الممتاز الذي نشره "ديفيد ريفي" في مجلة " نيو يوركر" الأميركية؛ الذي يتضمن تصريحات "خوسيه ماريا مينديلوثي" المسئول السابق للجنة العليا للمعونات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة "أكنور".

فالحادثة التي أستحضرها وقعت في مدينة "زفورنيتش" البوسنية الصغيرة؛ عندما احتلتها قوات المتطوعين الصرب الشهيرة باسم "النسور البيض". يقول خوسيه ماريا مينديلوثي: " شاهدت أطفالا تحت جنازير الدبابات؛ أجبرهم على ذلك رجال أقوياء ينفذون أوامر أولئك الذين يحكمون سيطرتهم عليهم ويوجهونهم كيفما شاءوا(!). فهؤلاء يتبعون إستراتيجية صارمة. هدفها زرع أقصى رعب ممكن بين السكان المدنيين ؛ وتدمير أكبر قدر من الممتلكات، وممارسة أبشع أصناف العنف ضد النساء والأطفال. وبعد أن يكمل هؤلاء مهمتهم، تأتي السلطات الحاكمة في المنطقة - ميليشيات كاراديتش أو البوليس - لتعيد أحكام السيطرة والنظام.

أما التهديدات بتشكيل محكمة دولية لمحاكمة الذين ارتكبوا جرائم ضد الإنسانية في يوغوسلافيا السابقة، التي تضمنتها قرارات عديدة واتفاقيات، كان آخرها القرار "٤+١" الذي

صدق عليه في واشنطون خافيير سولانا (وزير الخارجيــة الإسباني وقتها والسكرتير العام لحلف الأطلنطـي حاليـا)؛ فإنها جميعـا لا تجـدي، لأن ميلوزفيتـش وكـارادتيش ومـاتي بوبـان وأمثالهم يعرفون أنها قرارات صادرة للاستهلاك المحلي، ولا تعدو أن تكون حروفا ميتـة بـلا حياة. فالمجرمون معروفون للجميع؛ يتجولـون بيـن نيويـورك وبـاريس ولنـدن وجنيـف، ويتـم استقبالهم بالابتسامات وحرس الشرف من قبل الأشخاص ذاتهم الذين أصـدروا: "الاحتجاجـات المتشنجة" بكلمات "واضحة وعنيفة لا لبس فيها"؛ رغم الكم الهائل من البراهين علـى عمليـات الإبادة الجماعية والتطهير العرقي. فالكوميديا التي يجيد الطرفان أداء أدوارهـم فيهـا لا يمكـن أن تخدع أحدا. فالسيد رادوفان كارادتيش يتخفى خلف مظهر الشاعر الحالم المعجب بالشـاعر الأميركي "والت ويتمـان"؛ ويتظـاهر بجهلـه التـام حتـى بتعبير "التطهير العرقـي". ويضمنـه ببلاهة في إجاباته على الصحافيين؛ ويبدو كما لو أصابته دهشة ملائكية فيرد مستنكرا: "مذابح وغرف غاز ومعسكرات قتل؟، إنها من صنع خيال المجـاهدين؛ والمتطرفيـن المسـلمين الذيـن يحاولون السيطرة على أوروبا!". إنه الاعتياد على الكذب حتى يصدق الكذاب نفسـه وهـو مـا تحدث عنه الكاتب الألماني "هانز ماغنوسي انزنزبيرغر" في إشارته إلى المثقفين الحزبيين في أوروبا الشرقية؛ نقول أن هذا الاعتياد على الكذب قد أكتمل في بلغراد وبالي(عاصمة صـرب البوسنة)، بفضل "الاختلاق والخيال والقدرة التي لا تبارى" في الكـذب؛ وهـي أشـياء يمتدحهـا رئيس اتحاد الصرب والجبل الأسود فريد عصره "دوبريكا كوزيك"، في إحـدى رواياتـه التـي بلغ بها أقصى قمم الفن. "مكتبة سراييفو أحرقها "أتراك" علي عـزت بيغوفتـش لجـذب الانتبـاه إليهم واتهامنا بالوحشية! والمساجد التي تم تدميرها بـالقصف المدفعي مـن عمـل المجـاهدين، بهدف تحريـض الرأي العـام العـالمي ضـد الصـرب! والهجـوم الـذي تعرض لـه المعسـكر المتحرك لقوات الخوذات الزرقاء (قوات الأمـم المتحـدة) فـي حـي زيـترا، أثنـاء كتـابتي لهـذه السطور، " سيناريو عبقري نفذه المسلمون لتخريب محادثات السلام في جنيف وفتـح الطريـق أمام التدخل العسكري"!. والمذبحة التي جرت في مدافن سـراييفو " تـآمر مـن جـانب الرئاسـة البوسنية للتمويه على الأهداف التوسعية الإسلامية"!. إنه شيء يشبه تماما قيام الدكتور غوبلز (وزير الدعاية النازي في عهد هتلر) بالإعلان عن أن يهود أوشويتز كانوا يلقون بأنفسهم إلـى أفران الغاز لاستدرار العطف وتأجيج الدعابة المعادية للنازية. هـدف معـروف عالميـا وليـس من السهل قبوله. ذلك أن السادة ميلوزفيتش وكارادتيش وسيسليج يحاولون لعب دور الضحايـا لمؤامرة فاتيكانية – إسلامية – ألمانية. وأنهـم يقـاومون كـل المؤامـرات التـي تهددهـم بفضـل

مساعدة الوطنيين الروس وأخوتهم اليونانيين، والحماية التي لا تقهر التي يوفرها لهم "سان سافا"، ضامن النصر النهائي للشعب السماوي المختار الذي تتغنى به الأغاني الشعبية الصربية.

إن تطبيق اتفاق الأمر الواقع، بتوزيع ما تبقى من أشلاء البوسنة والهرسك بين زعماء جمهورية الصرب الكبرى النقية وكرواتيا الكبرى النقية؛ يدفع جيش البوسنة وأتباع عزت بيغوفتش إلى اللجوء إلى تطبيق أسلوب أعدائهم ؛ فعنف القتال والرعب من التطهير العرقي يدفع بجموع هائلة لا تحصى من المروعين والجائعين إلى طرقات وممرات المناطق التي يسيطر عليها المسلمون: مشاهد رهيبة من البؤس والألم في قلب هذه القارة الأوروبية التي فقدت آدميتها وحجرت الأنانية إحساسها؛ حتى أصبح اختفاء دولة ذات سيادة واحتضار شعب يتكون من أكثر من مليونين من البشر، مجرد نبأ إلى جانب الأنباء الأخرى في عالم من الضجيج والغيظ، تسيطر عليه النظرة الأحادية لنظام بوش العالمي الجديد وكلينتون من بعده. أين يذهب مئات الآلاف من المشردين العزل المحاصرين بالعنف والقذائف من كل جانب؟. منذ الهجوم الصربي الكرواتي الشامل على المتمسكين بفكرة الدولة المتعددة الأجناس - جميعهم تقريبا أصبحوا الآن من المسلمين - انكمشت أراضيهم إلى أقل من عشرة بالمئة، ولا تزال آخذة في الانكماش؛ كجلد حذاء؛ ولم يعد لها أي امتداد إقليمي على الإطلاق. رغم المقاومة العنيفة لقوات الأرميا (جيش رئاسة البوسنة)، فإن خريطة البوسنة تتمزق بلا رحمة وتتحول إلى مجموعة من مصائد الفئران البشرية؛ كائنات محشورة تعيش تحت ظروف قاسية وقلقة، أسوأ من تلك التي يعيشها سكان سراييفو.

قادتني مترجمتي "ألما" يوم ١٧ يوليو إلى وسط المدينة؛ لزيارة ذلك المكان الذي كان يوما ما فندق أوروبا الفخم ؛ والذي تحول إلى مأوى للاجئين بعد الدمار الشديد الذي لحق به من جراء القصف . في المدخل المدمر والخالي من الأثاث ؛ شاهدت بضع نساء جالسات على الأرض تتجاذبن أطراف الحديث بينما تلعب مجموعة من الصبيان كرة القدم أو لعبة الاستخفاء (الإستغماية)؛ يتقافزون بين أعمدة الفندق والشرفة المخربة والحديقة المجاورة، التي لم تتمكن أي شجرة فيها من مواصلة الحياة. تسكن الفندق خمس وستون عائلة مكونة من ٢٧٦ فردا، محشورين في الغرف. إنهم من مهجري المناطق المحيطة بسراييفو، من فوكا وفيشغارد وفوراشده. ونصعد طابقين عبر سلم بدون دعامات، ثم ندلف إلى جناح مؤثث بأرائك ومرآة ومقاعد من البلاستيك، ومسابح إسلامية معلقة على الحائط إلى جوار شعار

البوسنة والهرسك. يرحب الزوجان ياسمينكا بوتميتش وإيزاك كرنوغورفيش بزميلتي ألما بحرارة؛ ويقدمان لنا ما يمكن أن يقدماه: "كوب فخاري من ماء الورد". كانا يعيشان في ضواحي سراييفو حتى زحف مايو ١٩٩٢.

تقول هي: " الشكناز ينفذون الأوامر كالآلات المبرمجة تماما؛ يقتلون ويسلبون ويحرقون دون أدنى شعور بالشفقة. أكثرهم مرتزقة من روسيا وأوكرانيا أو من المجرمين الذين أطلقهم ميلوزفتش من السجون. يريدون أن يزرعوا الكراهية بيننا؛ لكنهم لن يتمكنوا من ذلك. سنعود لنعيش معا في يوم من الأيام".

- "حتى بعد هذه المذابح والوحشية ؟ "

فيقول هو :" لا ننسى؛ لكننا نعفو. هنا تعيش عائلات صربية في الجانب الآخر من الشارع. ويساعد كل منا الآخر؛ ونهبط إلى المخابئ معا. لقد كانت سراييفو هكذا دائما".

إن الشعور العام بغدر قوات الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية ينمو بمرارة.

- " ماذا أفادتنا المناطق المحمية؛ وبماذا أفادتنا طلعات الطائرات الأميركية ومدرعات الخوذات الزرقاء، إذا كانوا لا يزالوا يواصلون قتلنا؟. نحن لا نخشى غزو المدينة. فإذا حاولوا ذلك ؛ نعرف كيف ندافع عن أنفسنا. لذلك يريدون إجبارنا على الاستسلام بالتجويع ومذابح المدنيين والرصاصات الجبانة".

انتظرنا سيدة صديقة للزوجين؛ ولاجئة في الفندق أيضا؛ ونظرا لعدم حضورها فقد قررنا أن نعود إلى حجرة ياسمينكا وإيزاك بعد أربع وعشرين ساعة.

شهادة الأرملة "ابزيا ميدوزرياك" ؛٥١ سنة؛ عن ما حدث في فيشغارد في مايو ١٩٩٢؛ يستحق عرضه باستطراد.

- " قام عدد من قوات النسور البيض بغرز مكلاب جزار في فم جاري أحمد كارازيك، وقد وثقوا يديه ثم ربطوه إلى خلفية سيارة؛ وجرجروه عبر طرق القرية كلها، ليراه الناس ويسمعوا صرخاته. ثم ذبحوه ولعبوا برأسه كرة القدم. وأخيرا ألقوا بأشلائه إلى النهر".

- " شخص آخر من معارفي؛ حسن بركو؛ مزقوا ذراعيه وأجبروه على شرب دمه. وذبحوه أيضا ثم ألقوا به إلى النهر".

- " رجال النسور البيض ينتمون إلى منطقة فوكوفار؛ لكنهم جندوا الكثيرين من صرب القرية. جاءوا إلى بيتي يرافقهم أحد جيراني؛ استفسروا عن ابني الأكبر؛ المجند في الجيش البوسني؛ وقالوا أنهم سيعودون مرة أخرى. أرسلت ابنتي إلى جانب آخر من القرية

خوفا عليها من أن تتعرض للأذى؛ وحيث يمكنها أن تختبئ وتنقذ حياتها. جاءوا في العاشرة من مساء اليوم التالي؛ دون أن يرافقهم جاري؛ ضربوني وضربوا ابني الصغير؛ وأجبرونا على الاستلقاء على الأرض تحت تهديد المسدسات؛ ثم أجبروني على وضع فوهة مسدس محشو بالرصاص في فم ابني وهم يضربوني بأيديهم وأقدامهم بهدف أن تنطلق رصاصة في فم ابني وتقتله. وعندما أصابهم التعب من هذه اللعبة؛ ودون سبب واضح تركونا وذهبوا. فقدت النطق طوال ثمانية أيام : لم أكن أستطيع النطق بأي حرف".

- " المسلمون الذين لجأوا إلى قوارشده تلقوا وعودا بعدم التعرض لهم إذا عادوا؛ الذين صدقوا الوعود وعادوا أبيدوا جميعا؛ لقد حشروا أكثر من ٣٠٠ شخصا داخل المسجد القديم؛ القريب من محطة الأوتوبيس؛ ثم أشعلوا فيه النار؛ لن أنسى أبدا صرخاتهم المرعبة ولا رائحة اللحم المحترق".

- " حاولت بعض الفتيات الانتحار؛ بالقفز من الغرف التي سجنهم فيها رجال النسور البيض بهدف اغتصابهن. جارة لي وابنتها البالغة من العمر سبعة عشر عاما تم اغتصابهن وذبحهن ثم ألقوا بجثتيهن إلى النهر. واستطاعت فتاة أن تهرب من بيت أشعلوا فيه النار بعد أن سكبوا عليه البترول؛ أحترق جلد الفتاة وفقدت شعرها وصارت كجرح حي متقيح؛ تبدو الآن كشبح أو هيكل عظمي. أمكن إنقاذ حياتها، وتعالج الآن في مستشفى لوبليانا. تقول: "سأعيش لأكون شهادة حية".

- " هل شارك صرب القرية في هذه الأعمال الوحشية ؟ ".

- " نعم ؛ تعاون الجانب الأكبر منهم في هذه الأعمال الوحشية؛ إنه أمر لا يصدقه عقل ؛ لكنها الحقيقة. إلا أن قلة منهم ظلت على الهامش، بل أن بعضهم حاول مساعدتنا".

- " هل تعتقدين أنه بإمكانك أن تعودي للعيش معهم من جديد ؟ ".

تعلو وجه "ابزيا" سحابة قاتمة، وبدت عيناها كما لو كانتا تنظران في الفراغ.

- " لا ادري؛ أعتقد أنه من الصعب أن أعود للعيش إلى جوار الرجل الذي أرشدهم إلينا".

٥- اغتيال الذاكرة.

أقرأ في دليل سياحي لسراييفو مطبوع قبل سنوات قليلة: "لاكتشاف المدينة يجب التجول فيها بصبر كبير؛ وتحديد مواقع أحيائها الرئيسية حتى يمكن معرفة لماذا ينبض قلبها دائما في الحي القديم "شارشيا"، حي البازارات الشعبية؛ والتجار والفضوليين والسائحين. البشارشيا (كلمة تركية تعني السوق الرئيسي) وهو الاسم الحالي لهذا الجزء من المدينة؛ يجب زيارته سيرا على الأقدام. لأن جراجات السيارات من حوله قليلة جدا ومن الصعب العثور عليها".

منذ اليوم الثاني لوجودي هناك اتبعت نصيحة استغلال أوقات الفراغ التي تسنح لي خلال أوقات النشاط اليومي؛ خاصة تلك الساعات التي تصمت فيها المدافع وتعيش فيها المدينة المحاصرة إحساسا بسلام خادع.

الساحة الرئيسية؛ مستطيلة الشكل؛ تبدأ متصلة بالانحدار الذي يهبط من طريق المارشال تيتو باتجاه مسجد بازشارزيا الصغير، الذي يظهر في صور الدليل السياحي عاجا بالحياة والنشاط. يبدو اليوم عبارة عن مكان خال معرض لطلقات المورتر وقذائف متطرفي القومية الصربية القابعين في القمم الموجودة على الطرف الآخر من النهر. شاهدت هناك عدة معارض بيع من المعدن الملتوي على الرصيف، تبدو منكسرة وخالية؛ وأعمدة إعلانات مثيرة، تحمل لوحات ممزقة تعلن عن أنشطة ثقافية ميتة؛ وأتوبيس أصفر سكن في مكانه إلى الأبد إلى جوار الكشك الخشبي الجميل المصنوع على الطراز العثماني؛ بقبة مزينة بالنجوم وتنتهي بقمة من كرتين وهلال صغير. البازارات مغلقة بالمزاليج أو دمرتها القذائف؛ أسقفها الضاربة إلى الحمرة ممزقة أو مليئة بالخروق من آثار الطلقات؛ والأعمدة المضيئة التي لا فائدة ترجى منها تحمل علامات إرشادية للطريق السياحي؛ كلها ذكريات ساخرة لزمن مضى.

كل الشوارع المستعرضة تؤدي إلى فلسي ومسكينا؟. تتكرر صفوف البازارات العمياء؛ التي لم يتبق من رصيفها سوى آثار البلاط؛ وقرميد على الطراز الإسباني يحمل كتابات تعلن عن حانوت حلاقة أو "غريل دومي" متخيل. وسوق بروسيا المغطى الذي تم

إغلاقه؛ لكني أكتشف حول مسجد المدينة الرئيسي آثار حياة: بعض الصاغة؛ وحلاق ؛ ومكتبتين للكتب الدينية الإسلامية؛ أعثر في واجهة عرض إحداهما على ترجمة لكتاب "أوروبا والإسلام" للمؤرخ التونسي العظيم هشام جعيط.

مسجد "غازه خزنيف بيه" الذي تم إنشاؤه عام ١٥٣١، ويعتبر من الأعمال المعمارية العثمانية البلقانية العظيمة؛ إصابته ٨٦ قذيفة مورتر، لكن جسم المبنى ومئذنته الفارعة لا زالا يقاومان، فيما أصيب الجزء الداخلي إصابات شديدة ويجري إعادة إصلاحه. من بين الأعمدة والأغطية البلاستيكية التي تحجب المحراب والمقصورة يمكن تمييز السلم الرخامي للمنبر الذي لم يصب بسوء.

يمثل معهد الدراسات الشرقية القديم الذي يضم مكتبة سراييفو الشهيرة أكثر مشاهد الدمار بشاعة. فقد قام المتطرفون القوميون الصرب يوم ٢٨ أغسطس ١٩٩٢، بإطلاق وابل من الصواريخ الحارقة على مبنى المكتبة، فحولوا في ساعات قليلة كل محتوياتها الثقافية الثمينة إلى رماد. وكما يصف مكتب إعلام حكومة البوسنة والهرسك هذا العمل بأنه: "أكثر الأعمال الوحشية التي ارتكبت ضد الثقافة الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية". وفي الحقيقة فإن تلك الجريمة يمكن وصفها بدقة بأنها "اغتيال الذاكرة" - فقد كان هذا هو هدف عصابة الروائيين عديمي الموهبة والشعراء والمؤرخين الذين لا يجيدون سوى إشعال الحرائق؛ الذين كان تقريرهم إلى أكاديمية بلجراد سبب صعود ميلوزفتش إلى السلطة، وما تبعه بعد ذلك من تفسخ يوغوسلافيا - لأن المطلوب هو إزالة كل أثر إسلامي من أرض صربيا الكبرى؛ وأول هذه الآثار كانت المكتبة التي تمثل ذاكرة الشعب البوسني المسلم؛ لذلك كان محكوما عليها أن تنتهي حرقا بنيران التطهير الانتقامي.

بعد خمسة قرون تقريبا من حرق المخطوطات العربية الغرناطية في باب الرملة (غرناطة)، تنفيذا لأمر الكاردينال ثيسنيروس؛ تكرر المشهد بشكل أعنف أثناء الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة. فبعد أن أعاد حدادو الميثولوجيا الصربية تشكيل تاريخ بلادهم بالحديد والنار - الذين أدانهم ببلاغة كتاب من بني جلدتهم أمثال درفتش وبوغدانوفتش - حققوا أحلام انتقام أسلافهم بإحراق ٥٢٦٣ مخطوطا عربيا وتركيا وفارسيا تبخرت إلى الأبد.هذا الكنز الذي تم تدميره بهذه الطريقة البشعة يضم أعمالا في التاريخ والجغرافيا والرحلات؛ والفقه والفلسفة والتصوف؛ والعلوم الطبيعية وعلوم التنجيم والرياضيات والقواميس اللغوية والصرف والنحو ودواوين الشعر؛ ومؤلفات في الشطرنج والموسيقى.

اليوم لا يبقى من المكتبة بالإضافة إلى الجسم المفرغ سوى حوائطها الخارجية الأربع المزينة بالأعمدة؛ وأقواسها نصف الدائرية؛ وكواتها وشرفاتها. وتبدو دعامات سقفها المعدنية التي تساقطت من خلالها الصواريخ كخيوط عنكبوت عملاق، لا تكاد أعمدتها الداخلية تحافظ على زخارفها الجصية الرقيقة القديمة، أما الساحة الداخلية فهي عبارة عن مخزن أطلال كبير؛ تكومت فيها الأنقاض والدعامات والأوراق المحترقة. ألتقط إحدى هذه الأوراق، فأكتشف أنها عبارة عن بطاقة تصنيف من المحفوظات. أخذتها كتذكار لهذه الوحشية المبرمجة التي تهدف إلى محو تاريخ أرض، ثم تقيم عليها مبنى من الأكاذيب والأساطير والنسيان.

إذا كانت قوات الشكناز قد مارست جرائمها ضد المسلمين طوال القرنين الأخيرين دون عقاب (طبقا لما هو منشور في كتاب "Le nettoyage ethnique" الصادر بالفرنسية عن دار فيارد؛ باريس؛ ١٩٩٣، والذي كتبت أنا عنه في صحيفة البابيس بتاريخ ١٩ مايو ١٩٩٣). فلماذا تعاقبهم المجموعة الأوروبية التي تتخبط ضحية تناقضاتها؛ وجبنها وأنانية مهندسيها السياسيين؟. فعلى الخارطة الجديدة للبلقان التي رسمها بالدم والنار، المدافعون عن سيادة القيم الوطنية والدينية، فإن مجرد ذكر اسم سراييفو يعتبر رمزا لوجود عالم مكروه ومحسوس كالإهانة: لأنها مكان للقاء والتقارب؛ نقطة تختلط فيها الاختلافات وتنصهر بدلا من التهميش والتناطح؛ فالعاصمة البوسنية شفرة - من الصعب أن أكتب كانت شفرة - لها محتوى مختلف؛ نشط ومنفتح على المدنية الأوروبية. لقد أصابنا العمى والطرش والخرس لأننا نسمح بتدميرها.

يكفي أن تعبر ذلك النهر الصغير المسمى "ملياكا" عن طريق الجسر القريب من المكتبة العامة لتجد الحي اليهودي الصغير الملتف حول المعبد؛ في قلب الشاطئ الأيسر الذي تطمع في ضمه "جمهورية صرب البوسنة". يوجد طابور طويل في الشارع الذي تطل عليه واجهة المعبد اليهودي الوردية الباهتة ذات النوافذ الكبيرة بكواتها، وقبابها المزينة بالنجمة السداسية؛ أفراد هذا الطابور زبائن "الصيدلية العبرية"؛ أكثر الحوانيت تموينا في المدينة. وفي المبنى المجاور للمعبد -الذي لا يمارس طقوسه الدينية منذ زمن بسبب نقص الحاخامات- توجد هيئة خيرية ذات أصول إسبانية واضحة؛ تلك الهيئة الخيرية توزع يوميا المئات من طاسات المرق على الجائعين. وللصعود إلى الطابق الأول يجب المرور بين أهل سراييفو الذين يذهبون إلى هناك لملء بطونهم أو للاتصال بأفراد عائلاتهم اللاجئين في كرواتيا، أو

يقيمون في المناطق التي لا تزال مخلصة للرئاسة البوسنية؛ حيث يجري الاتصال بواسطة محطة استقبال صغيرة مقامة في إحدى الغرف.

نائب رئيس الجمعية الإنسانية للثقافة والتعليم اليهودي "دافيد كمحي" عازف كمان ويشبه في مظهره مرتاد كازينو بإحدى القرى الإسبانية: أصلع وبليغ وحيوي وله نظارات؛ كالذين يجلسون في منتصف الدخان ويتحدثون إلى مواطنيهم بصوت مرتفع؛ أثناء لعبة الورق أو أمام طاولة الدومينو. لغته الإسبانية -ليست متعلمة بل "لغة يهودية إسبانية"؛ محددة- ثرية ومعاصرة بشكل مذهل. دافيد كمحي حفيد أولئك الذين طردوا من شبه الجزيرة الليبيرية عام ١٤٩٢؛ وانتشروا في أراضي الإمبراطورية العثمانية؛ ثم استقروا في سراييفو عام ١٥٥١.

- "وصل عددنا إلى ١٤ ألفا قبل وصول النازي؛ منهم ١٠ آلاف من السفارديم؛ البعض ظل مختفيا في المدينة؛ وآخرون عادوا إليها بعد انتهاء الحرب".

"لكن في إبريل ١٩٩٢، كان عدد الطائفة ١٤٠٠ فردا أكثرهم من السفارديم مثلي؛ وبعد انتهاء التضييق على الديانات بعد موت تيتو؛ أكتشف كثيرون أصولهم اليهودية واقتربوا منا. إلا أنه بعد أن بدأ الحصار في الخريف الماضي ذهب حوالي سبعمائة. وتبقى ما يقرب من هذا العدد ونحن لا نرغب في ترك هذا المكان".

يتذكر بأسف: "منذ استقلال البوسنة لم يزرنا أي دبلوماسي من بلادك. لماذا لا يرسلون ممثلا لهم في سراييفو؟. هل نحن لا نوجد؟. أنا بوسني ويهودي وإسباني. كثيرون من رفاقي أسماؤهم برادو وبينتو والكالاي والفنداري ومركادو. لغتي الأولى كانت الإسبانية؛ حضرت في مدريد الاحتفال بمرور خمسة قرون على وصول كولومبوس إلى أميركا، وصافحت الملك خوان كارلوس".

" انه لمخجل أن تتجاهلنا إسبانيا ولا تقيم علاقات مع البوسنة. لا يزورنا إلا ضباط وقادة الجيش. لقد جاء إلى هنا الجنرال دلميريو برادو ؛ وتجاذبنا أطراف الحديث في هذا المكتب. سمعت أن الملك عرض جواز سفر إسباني على جميع اليهود السفارديم. لكن؛ كيف يمكن الحصول عليه إذا لم يفتحوا أية قنصلية هنا؟".

-" العلاقة بين الطوائف الدينية في البوسنة كانت طيبة جدا. كانوا يطلقون على سراييفو اسم "أورشليم الصغرى". كان الأطفال المسلمون يذهبون للعمل في مشاغلنا الحرفية، ويتعلمون فيها الحرف. كانت سراييفو خليطا من الثقافات المتعددة والأديان المتعددة والجنسيات المتعددة. في هذا الحي ؛ المعبد اليهودي على بعد خطوة من المسجد؛ والمسجد

على بعد خطوة من الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية. لقد حبسونا الآن في "غيتو"؛ في معسكر اعتقال يضم ٣٨٠ ألف شخص. من غير المعقول أن تقبل أوروبا هذا بعد القتل الجماعي الذي مارسته النازية!".

-" المعونات الإنسانية ؟ إنها مزحة! نحن لا نحصل على خمس ما نحتاج إليه؛ إنها زكاة مهينة. سأكون صريحا ومباشرا في حديثي معك؛ إنهم يرسلون إلينا المخزون والبواقي التي لا تصلح للبيع، سواء من الملابس أو الأطعمة المحفوظة. وأولئك المتوحشون الذين يطلقون علينا قذائفهم بلا تمييز يقتلوننا لأننا نعيش معا؛ ونريد أن نواصل الحياة معا. أما الحديث عن التهديد الإسلامي فإنها فرية من أكاذيب ميلوزفتش. المتطرفون الحقيقيون هو وعصابته".

دافيد كمحي مثل كل سكان سراييفو يفضل ألا يفكر في المستقبل: لأن هموم الحاضر ثقيلة ولا يوجد مخرج ممكن.

يقول وهو يودعني: " نحن اليهود لن يجدوا مكانا ليدفنوننا فيه. لأن مقابرنا توجد في خطوط القتال. لقد حفر الشكناز فيها مخابئهم وانتهكوا حرمتها".

٦- كيف تمضي الحياة.

الفنادق التي ينزل بها المراسلون الذين يقومون بتغطية أماكن النزاعات الساخنة في الكرة الأرضية ؛ يلفها عادة جو أسطوري ورومانتيكي كحاجة طبيعية لإعادة التوازن إلى جفاف الحياة والصعوبات التي يلاقيها المراسلون والمصورون وفرق التليفزيون في عملهم اليومي: وهذا الجو الأسطوري نجده في الفندق العظيم الرزين "أميركان كولوني" في القدس الشرقية؛ ببهاء ساحته واتساع صالات الندوات؛ التي تعتبر واحة حقيقية من الهدوء بعد ساعات العناء المليئة بالعنف والأحداث التي كرستها أعمال الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة. أما فندق "هوليداي إن" سرابيفو، فإنه يستبعد أي ميل إلى الرومانتيكية بسبب تشكيله وتركيبه المعماري: بهوه الضخم ليس إلا ساحة مركزية بارتفاع عشرة أو اثني عشر طابقا، بسقف تخترقه عدة كوات تسمح بمرور الضوء؛ وأول انطباع يختفي عند أول نظرة إلى أعمدته الإسمنتية الثلاثة، التي يرتكز عليها؛ أو إلى مشربه المركزي الصغير المزين بمظلات مصطفة على هيئة أكواخ بولينيزية؛ وكذلك مظلته الغريبة ذات الخطوط الخضراء والحمراء الضاربة إلى الاصفرار، فإنها مستوردة من ديزني لاند مباشرة. أما بابه الجانبي المغلق بزجاجه المحطم أو المغطى بخرق بلاستيك قوات الحماية الدولية، وسلمه الصغير الملتصق بالجدار بشكل أبدي، كلها إشارات مزعجة لوضع شاذ. أما لافتات "رستوران انترناشيونال" و"رستوران بوسنيا" و"رستوران الهرسك" و"هاي كلوب" و"كازينو" و"دوتي فري شوب" و"مصرف" و"كافيتريا"، فإنها تشير إلى زمن ازدهار قديم جدا. لأن مطعمه الحالي والوحيد لجأ إلى الطابق الأسفل؛ واحتل مكان صالون المؤتمرات القديم. ما أن تحل لحظة الغروب حتى يتحول "الهوليداي إن" إلى مكان متفسخ أزرق غامق؛ وتأخذ حجراته المطلة على البهو شكل زنازين سجن كبير؛ صورة مصغرة للمدينة؛ سجن فاخر مقام في المنتصف من معسكر اعتقال ضخم يعيش سجناؤه نظاما مفتوحا؛ ويصطف سكان مدينة سرابيفو في صبر بأوانيهم انتظارا لسيارة الماء التي تحتمي بالمكان الوحيد الذي لا تصل إليه رصاصات القناصة. في الليل عندما ينقطع التيار الكهربائي، فإن تراقص أضواء الشموع وأضواء بطاريات الجيب -كإشارات المهربين والبوليس الليلية- ترسم صورة مسلية لقبو معاصر مشيد تكريما لكائن سام عادل ومطلق.

•••

ومع دخول الليل؛ نجد مقاعده الضاربة إلى الاحمرار بشحوبها العنكبوتي؛ وقد تحملت ليس فقط الصحافيين ورجال هيئات المعونات الدولية -زبائنه الوحيدون- بل يضاف إليهم عدد آخر من مساعديهم ومترجميهم؛ فضلا عن مجموعة مختارة من الشباب البوسني القادرين على دفع ثمن كوب من الجعة، أو النبيذ بالدولار أو المارك الألماني. ورغم الحملات المتكررة لاصطياد المدنيين القادرين على حمل السلاح، كما حدث قبل فترة قصيرة في هذا المكان - يحدث أيضا في المقاهي والبارات القليلة التي لا تزال تفتح أبوابها في المدينة- التي يقوم بها رجال موسان توبالوفتش؛ الذي يعتبر أكثر قادة الجيش البوسني راديكالية وإثارة للشغب؛ فقد بدأ في ارتياد المكان بحذر بعض الهاربين من جبهة القتال ليستفيدوا من خدمات المشرب.

•••

تظهر الحرب - وكل الأوضاع غير العادية بشكل عام- الفطرة الأخلاقية والملامح السرية لمن يعيشونها؛ تماما كما يبرز التحميَض ملامح الصور: بجبنها أو شجاعتها؛ واستقامتها أو انعدام ضميرها؛ وإنكارها للذات أو أنانيتها. وسراييفو تعتبر عالما مصغرا يكتشف فيه كل واحد نفسه من خلال طريقة تعامله وأفعاله اليومية. فبؤس وتعاسة البعض - أكثرية السكان ينطبق عليهم هذا الوصف- يمكن استغلالها وإثراء آخرين. فبينما مئات الشباب البوسنيين يتحملون في خنادقهم تحت وطأة الجوع ونقص التموين في جبال إجمان أو مرتفعات زوك ؛ هجوم رجال كاراديتش المدمر؛ نجد آخرين يرتادون الحوانيت التي لا تتعامل إلا بالنقد الأجنبي، ويثرون من ممارسة التجارة في السوق السوداء.

•••

زيارة واحدة إلى وسط المدينة أثناء فترات هدوء قصف مدفعية الشكناز، يمكن أن تكون درسا فريدا. تزدحم السوق المغطاة وحوانيت وحلقات البيع والشراء في طريق المارشال تيتو بمئات الأشخاص اللاهثين أو المتفرغين لاصطياد كل أنواع المنتجات. وعلى طول الرصيف يعرض المهربون أو المتعاونون معهم على المارة قطع الصابون ومعجون الأسنان والمعلبات والشيكولاته ومختلف أنواع السجائر. وأبعد من ذلك قليلا يتجادل بعض المارة إلى جوار الجدران حول تبادل المنتجات أو الشواهد التي تحمل صور الموتى.

•••

أغامر برفقة مترجمتي "ألما" بالتوغل في داخل السوق، وأحاول معرفة أسعار المنتجات المعروضة للبيع: علبة البسكويت ثمنها ١٠ ماركات ؛ وعلبة المارلبورو ثمنها ١٢ ماركا؛ وثلاث بطاريات راديو ثمنها ١٥ ماركا؛ وكيلو السكر ثمنه ٤٠ ماركا؛ ولتر الزيت ثمنه ٤٠ ماركا أيضا؛ أما كيلو الدقيق فثمنه ١٠ ماركات. مع العلم أن راتب طبيب المستشفى ١٠ ماركات شهريا؛ أما متوسط الرواتب ما بين ٣ و٥ ماركات؛ ومتقاعدو الجيش يحصلون على ماركين فقط؛ لذلك فإن أول سؤال يخطر على الذهن: من أين يحصل الناس على المال؟. تتبع هذا السؤال إجابته: كل سكان سراييفو يعانون آثار الحصار؛ لكن أقلية منهم تعاني أقل من الآخرين.

•••

المشهد في السوق الحدودي يكاد يكون مطابقا للصورة السابقة: حزم الوقود؛ ومعلبات المخللات؛ وشفرات الحلاقة. البعض يبيع خضروات وقرنبيط وجزر نحيل من مزارعهم، أو مزروعات منزلية في الغرف التي هدمتها القذائف، أو في أحواض الحمامات التي لا فائدة منها. وآخرون يبيعون كمثرى وكرز وعليق مأخوذ من الحدائق. ومثل السوق المغطى تماما تجد الكثير من معلبات الروزبيف وغيرها من المعلبات التي تحمل علامة المجموعة الأوروبية ؛ التي تصل عن طريق المعونة الدولية.

•••

منذ أكثر من سنة؛ كتب زلاتكو ديزداريفتش أحد صحافيي أوسلو بودي في "يوميات الحرب": "وصل اليوم الفرنسيون والكنديون (من قوات الحماية الدولية التابعة للأمم المتحدة) إلى مطار سراييفو لتأمين التموين اليومي ىمهربي المعلبات المحفوظة. والباقي سوف يوزعونه على الشرفاء من الناس". إن تلك الحقيقة التي صدمت الكثيرين في تلك الفترة تعتبر اليوم شيئا عاديا ومعروفا، ومعروضا أمام العامة في وضح النهار، بعض أفراد قوات الأمم المتحدة يثرون من هذه التجارة المربحة وكل الاتهامات تشير إليهم بوضوح. فالذين تم استقبالهم كأبطال منقذين ؛ بعد سنة من وصولهم يتمتعون باحتقار وغضب خفيين. هذا الشعور الذي قد يصفه البعض بأنه نكران للجميل يوضحه ديزداريفتش بتهكم: " لماذا؟ لا نبدي عرفاننا بالجميل؟ هل لأننا لا نملك إمكانية خروجنا من المدينة برفقة ذوي الخوذات الزرقاء مقابل حزمة طيبة من المال؟. ألا .كننا أن نشتري منهم بعض لترات الكيروسين إذا كنا نملك الثمن المطلوب؟. لقد دفعت ضراوة الحصار والضغوط الناتجة عنه عددا كبيرا من

المحاصرين، خاصة الصرب والكروات إلى إنقاذ حياتهم بالهروب. فطبقا للارقام التي تمتلكها الرئاسة البوسنية، فإن ما يزيد على ١٣٠٠ شخصا لهم عائلات مقيمة في الخارج، قد حصلوا على إذن رسمي بالسفر؛ لكن قوات الأمم المتحدة ترفض تحمل مسئولية حماية قافلة الهاربين عبر المناطق التي يسيطر عليها كاراديتش، خوفا من تفتيشها ونهب ما يحملونه من أمتعة؛ وأيضا (كما تلخص الشهادة!) حتى لا تشارك تلك القوات بشكل غير مباشر في تكريس التطهير العرقي. بينما يتدهور مناخ التعايش السلمي بين مختلف الطوائف، الذي كان فخر سكان سراييفو، فإن عدد الأشخاص المتشوقين إلى الهروب في ازدياد يوما عن يوم. وطبقا لما هو شائع فإن اختفاء جراح شهير من أصل صربي كان يعمل في المستشفى العام - كان المزحة التي يتبادلها المراسلون أثناء إقامتي هناك- تم نقله بواسطة دبابات الأمم المتحدة.

•••

طبقا لمعلومات جمعها زملائي؛ فإن مجموعة من أفراد الميليشيات المتطرفة وعصابات غير منظمة مكونة من اللاجئين من مناطق أخرى أحرق الشكناز مساكنهم وعائلاتهم، يدفعون بعض السكان من أصول صربية ويلقون بهم إلى الخط الأول من القتال. لذلك فإن عبارة الشك التي أدلت بها الشاهدة على مذابح فيشغارد حول إمكانية التعايش المستقبلي مع الذين شاركوا في هذه المذابح أو ساعدوا على وقوعها محدودة الآن، إلا أنها آخذة في النمو. "إذا لم يكن هناك وسيلة للخروج من هذا الوضع فإن الناس تصبح خطرة؛ كل إنسان يحاول الحفاظ على حياته؛ ويفقد احترامه للآخرين وينقلب إلى حيوان"، قال تلك الجملة أمامي أحد زعماء الجيش البوسني، كان قد فقد أحد أطرافه في انفجار قنبلة؛ وذلك أثناء حوار أجراه معه زميلي ألفونسو أرمادا. إن موتى حصار المتطرفين ذوي النزعة القومية الصربية والتحقق اليومي من إهمال وخيانة الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية تقضي على روح التسامح والتعدد، التي تعتبر طابع سراييفو الخاص. والدفاع البطولي للرئاسة البوسنية والمسلمين والأوفياء الآخرين لفكر علي عزت بيبغوفتش، من اجل مواطنة واحدة في مواجهة السيطرة والعرقية الكرواتية الصربية تفقد كل يوم أرضا جديدة كلما أحكم الحصار وتمكن اليأس. لأن التوتر النفسي لـ٣٨٠ ألف شخص محاصرين في مصيدة الفئران يزداد يوما بعد يوم، ويتجسد في شعور بالكراهية والإحباط تجاه قوات الأمم المتحدة.

•••

لاشك أن قرار إرسال المساعدات الإنسانية للسكان الجائعين والمحاطين بالرعب أنقذ حياة أناس كثيرين. لأن وجود قوات الخوذات الزرقاء منعت مذابح جديدة أكثر كراهية. لكن هذا الدور المحدود لقوات سيئة التسليح ومعرضة لإرهاب متطرفي كاراديتش؛ حولها إلى متفرج أولا ثم بعد ذلك إلى مشارك أخرس للمعتدي. فقوات الأمم المتحدة - بسبب مهمتها المحددة جدا التي أنيطت بها- لم تمنع استشهاد سراييفو وغيرها من "المناطق المحمية" المرسومة على الورق بقرار هزلي صادر في واشنطون. إلا أن الأسوأ هو استخدام وجود قوات الخوذات الزرقاء مبررا للرافضين للتدخل العسكري وأعداء رفع حظر السلاح الذي يعاقب الضحايا بقسوة شديدة. فهم يتعللون بأن أي عمل عنيف يعرض حياة العاملين وأفراد القوات الدولية للخطر. ويستخدمون الإعانات الدولية كسلاح يحرم المحاصرين في سراييفو حقهم الشرعي في الدفاع عن النفس. بينما هناك من يخرق جميع القوانين الدولية؛ كلينتون يلقي بصواريخه على العراق متعللا بالمادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة ؛ وهو عمل يقابل بـ"التفهم" من جانب وزارات الخارجية الغربية؛ تلك الوزارات نفسها التي ترفض بإصرار أن يحتمي المسلمون البوسنيون بهذه المادة -حق الدفاع عن النفس- التي قد توفر لهم على الأقل كما يقولون "الموت بكرامة". التعلل بأن إرسال السلاح لإنقاذ بلد معتدى عليه يطيل من الحرب بلا مبرر، ويزيد من معاناة الشعوب يجب أن يجلل وجه مفاوض المجموعة الأوروبية لورد أوين بالعار: فلولا تدفق السلاح الضخم الذي أرسله الرئيس روزفلت إلى بريطانيا ؛ كان يمكن للحرب أن تنتهي عام ١٩٤٠ بسلام هتلري كما ستنتهي الآن بسلام مجرمي الحرب الصرب. ورفض تشرشل لقبول "الواقع الجديد" على الخريطة؛ هل أطال الحرب ومعاناة الشعوب الأوروبية فقط؟، أم أنقذها من عبودية الوحشية التي لا تطاق؟.

•••

إن السياسة الغربية بمعيارين ومقياسين التي تجلت في قضيتي الكويت وفلسطين؛ انكشفت من جديد بشكل بشع في المأسوف عليها يوغوسلافيا: فالقرارت الثلاثة والإعلانات الثلاثون لمجلس الأمن بمنظمة الأمم المتحدة، التي تتناول الاعتداء الصربي أخذت طريقها إلى سلة المهملات مباشرة. "مناطق محمية" تقصف يوميا دون إجابة تذكر؛ مساعدات إنسانية تتعرض للنهب والمنع ويتحكم فيها محاربو كاراديتش! قناصة مختبئون في المباني والقمم المحيطة بسراييفو يطلقون رصاصاتهم على الأطفال والنساء بكل وقاحة!. هل رفع أحد إصبعه لوقف عملهم المتأني في التطهير؟. إن المنطقة التي تجري فيها هذه الأحداث لا تدخل

في مناطق "المصالح الحيوية" للولايات المتحدة الأميركية ولا المجموعة الأوروبية. وقيمة الإنسان البوسني أقل من قيمة برميل البترول الخام. بهذه الطريقة يكفر المسلمون وغيرهم من الأوفياء لحكومة سراييفو عن جريمتهم الوحيدة: انتماؤهم لدولة لا تملك حقولا للنفط.

٧- القوس الأرثوذكسي؛ والحية الإسلامية.

عقد رئيس أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية الهيلينية في أثينا مونسنيور سيرافيم قداسا كبيرا للمواعظ الدينية والسياسية في يونيو الماضي، لتعضيد المتطرف الصربي رادوفان كاراديتش. وشاركت في هذا القداس جميع الأحزاب السياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار؛ وتصدرت المنظمات النقابية اليونانية بكاملها منصة الحفل.(راجع صحيفة "ليبراسيون" بتاريخ ١٩٩٣/٧/٢٧)، وألقى المتحدثون كلمات حماسية هاجموا فيها "التوسع الإسلامي في البلقان". وكيف يمكن مواجهته؟ وطمأن أحد الخطباء الحضور بقوله: "يجب إقامة قوس فولاذي أرثونكسي لمواجهة الحية الإسلامية". أي انه: يجب تشكيل قوات "شكناز" لتكون طليعة للمسيحية في مواجهة الإسلام.

منذ لحظة الهجوم الأولى على البوسنة أطلق المتطرفون الصرب صرخاتهم سواء في الداخل أو في الخارج محذرين من شبح "المتطرفين المسلمين"، الذين توجههم طهران من خلف الستار. وبذلك اتخذت حربهم طابعا دينيا هدفه أن يضفي على مشروعاتهم للسيطرة والهيمنة لون الصراع الأوروبي القديم ضد المسلمين، وضد محاولاتهم إقامة "خلافة إسلامية في البلقان"، بدعم من "الطابور الخامس التركي" الذي يقيم في ألمانيا - يشيرون بذلك إلى العمال الأتراك المهاجرين، الذين يصل عددهم إلى نحو المليونين- هذه الدعاية العنصرية التي تتكرر ليل نهار على امتداد سنوات في تليفزيون مليوزفتش؛ سممت أفكار الجانب الأكبر من الصرب - كما يحدث اليوم في التليفزيون اليوناني أيضا - حتى أقنعتهم بأن يهبوا دفاعا عن النفس ضد عمليات التطهير العرقي المزعومة، التي يخطط لها المجاهدون المسلمون في البوسنة. ويبث تليفزيون ميلوزيفنتش بإلحاح شديد الأغنية التالية:

"احتمل الصرب خمسة قرون

من العبودية؛

المجد لاسم

سان سافا.

سان سافا يحب الصرب؛

ويبتهل إلى الله من أجلهم.

أنشدوا أيها الصرب

وكرروا هذا النشيد ثلاث مرات كل يوم! ".

الدعاية التي يطلقها تليفزيون بلغراد وبالي والتي أمكن التقاطها عن طريق طبق فضائي؛ تتضمن مشاهد غنائية ساذجة لا تنسى: فتاة شقراء تتمتع بالصحة والعافية؛ ترتدي الزي الفلكلوري الصربي وتبدو شبيهة بشكل مدهش بفتيات الاستعراضات الهتلرية الضخمة؛ تنحني بإثارة لتقبل مدفعا يقذف حممه على "أتراك" (مسلمي) سراييفو. وفي لوحة إعلانية من ثلاثة مشاهد لتحذير"الأصدقاء" الأوروبيين؛ يبدو المشهد الأول على هيئة علم المجموعة الأوروبية الأزرق يرفرف عاليا؛ ثم يأتي المشهد الثاني على شكل نقاط خضراء تتساقط على العلم الأوروبي الأزرق وتجلله بالسواد؛ اللوحة الثالثة خضراء تماما وبها عبارة تقول: "هذا هو المستقبل". ومعروف أن اللون الأخضر يمثل الإسلام، أما رسالة ميلوزيفيتش وكاراديتش التي يكررها بسذاجة فرانو توجمان ؛ تبدو أكثر من واضحة؛ فجنوده يقاتلون للدفاع عن الأوروبيين ضد موجات الإسلام التي سوف تغرقهم. والميثولوجيا الصربية تبعث من جديد زمن الحروب الصليبية الغابرة: تماما كما ذكر لي قائد الشكناز رادوكو مالديتش في نفس يوم سفري؛ وذلك بمناسبة الحديث عن الهجوم الأخير الذي شنته قواته على آخر دفاعات جيش الرئاسة البوسنية في جبال بيلاشنكا وايجمان؛ قال:" منذ هذه اللحظة يسيطر جيشي على طريق الله". فالنصر النهائي لمغاوير النقاء العرقي سوف يكرس تمزيق البوسنة والهرسك؛ ويقيم على أشلائها فيدرالية جمهوريات بوسنية صغيرة على أساس عرقي؛ مما يسمح لي أن أقول بأن ذلك يبعث الغبطة في قلب اليميني الفرنسي المتطرف جان ماري لو بن -الذي يعقد لقاءات دورية مع كاراديتش في بالي؛ وذلك طبقا لشهادة مخرج ومراسل البرنامج التليفزيوني "ناشيونال جيوغرافيك" - لأن هذا يؤكد رؤيته لفرنسا بلا مهاجرين؛ فرنسا فرنسية طبقا لنموذج صربيا الكبرى النقية.

"المسلمون الأكثر انفتاحا على الآخرين؛ والمتحررون بل والعلمانيون منهم، يعتبرون بالنسبة للأوروبيين متطرفين" قال لي هذه الكلمات رئيس أئمة البوسنة مصطفى زيرتش؛ عندما إلتقيته في مكتبه بمدرسة غازه حزريف. كان يلتف بعباءته السوداء ولحيته ضاربة إلى اللون الرمادي؛ ويلبس على رأسه طاقية بيضاء ناصعة يلتف حولها شريط أحمر على مستوى

الجبهة؛ ويحيط به جو من المهابة والنبل البهيين؛ كأنــه شـخصية تاريخيـة خرجت لتوهـا مـن لوحة عثمانية ولبست ثوب الحياة فجأة. تحدث إلي لأكثر مـن نصـف سـاعة دون حاجـة إلـى مترجم؛ فلغته "الإنجليزية" المرصعة بألفاظ عربية كانت رائعة. ودون أن أطلب منه، رسم لـي صورة رشيقة لحياته الشخصية: فقد درس الفقه والعلوم الدينية فـي جامعـة الأزهـر بالقـاهرة، وعمل في العقد الأخير إماما لمسجد شيكاغو الرئيسي.

-:" أنا الوحيد من أعضـاء هيئـة علمـاء الديـن المسـلمين فـي البوسـنة الـذي درس فـي الشرق الأوسط والغرب معا. وكنت حتى العام الماضي أعتقد بقوة في القيم الإنسانية لأوروبا؛ وبأفكارها الديمقراطية؛ كنت أؤمن بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ وحرية العقيدة في دولهـا العلمانية؛ نعم؛ وكنت أصدق المعاني النبيلة التي تتضمنها دساتيرها. كـان الشـعب البوسـني - جميع المسلمين وكثير من الكروات والصرب - يؤمنون بكل هذا أيضا؛ صدقـت أننـي أعيش في دولة متعددة الأجناس والأديان. لكن منـذ مـايو ١٩٩٢، نضحـي بحياتنـا مـن أجـل مبـادئ ميثاق الأمم المتحدة. وماذا حدث؟ بدلا من مساعدتنا؛ وقفت الحكومات الأوروبية تتفرج علينـا وفي مقدمتها بريطانيا وفرنسا؛ يسمحون بإبادتنا، وينكرون حقنا في الدفاع عن أنفسنا؛ وطبقـوا علينـا حظـرا لا يمكننـا مـن الدفـاع عن أنفسـنا فـي مواجهـة الترسـانات الضخمـة للجيـش اليوغوسلافي، التي صادرها ميلوزيفيتش ووجهها لاستخدامه الشخصي".

-:" بعد هذه الجرعة المرة لا أستطيع أن أصدق الإنسانية الأوروبية. فالأفكار الكريمة التـي يحترمهـا الإعـلان العـالمي لحقـوق الإنسـان مـاتت فـي البوسـنة. وعشـرات الآلاف مـن الرجال والنساء الذين كانوا يدعمون هذه الأفكار يرقدون الآن في انتظار الدفن بعد أن ضاقت مدافن سراييفو؛ أو تضمهم مقابر جماعية بطول البوسنة وعرضها. قلها بصوت مرتفـع جـدا: لقد ماتوا دفاعا عن تلك المبادئ ولم يبال بهم أحد؛ أو استمعوا فقط إلى كلمات الإشفاق الزائفة من رجال الدولة والدبلوماسيين الأوروبيين".

-: لا يسـتطيع الغـرب فـي المسـتقبل أن يعلمنـا دروسـا أخلاقيـة، لقد سـمح لجـلادي التطهير العرقي؛ الذين توسموا خطى النازي؛ بأن يغتصبوا ويقتلوا النسـاء والأطفـال بانتظـام؛ وأن يقيموا معسكرات الاعتقال وأن يحولوا بكل برود ماضينا إلى رماد . أنتم الذين تفـاخرون بالانتصار على الفاشية؛ ألم تنتبهوا بعد إلى أنها عادت من جديـد وتشـعل الحرائـق فـي داخـل بيوتكم؟. هل أصابكم العمى والطرش، فلا ترون ولا تسمعون الوحشية التي تدمر سراييفو؟".

-" تتحدثون عن معاقبة المسئولين عن الجرائم التي ارتكبت ضد الإنسانية؛ وفي الوقت نفسه تتحاورون معهم بلياقة وتدعمون غزوهم. نحن المعاقبون بالإهمال والقصف والجوع ومنع المساعدات الطبية؛ نحن الضحايا. قد تقع المسئولية أولا على ميلوزفيتش وكاراديتش ومتعصبي صربيا الكبرى؛ لكن مسئولية المجموعة الأوروبية ليست أقل. لأن حكوماتها لم تطبق المبادئ التي تؤمن بها؛ لقد مارست دورها باحتقار الضعيف".

- " والمساعدات الإنسانية ! ".

- " بماذا يفيد تغذيتنا بالقطارة إذا كانوا يتركونهم يذبحوننا؟".

- "وفكرة التهديد الإسلامي لا يشيعها الصرب فقط؛ بل هناك أكثر من سياسي غربي يعد استراتيجيته الخاصة لمواجهتها !".

-" إن جوهر المشكلة يكمن هناك؛ لأن كثيرين من الأوروبيين لا زالوا يرفعون راية المواجهة التاريخية بين المسيحية والإسلام. وأشباح كوابيس الماضي لا تزال تجثم على وعيهم. والشكناز ينتهزون الفرصة؛ فيوقظون الرعب الكامن؛ ويحيون روح الصليبية ويعلنون أنفسهم أبطال أوروبا في مواجهة "الأتراك". كل هذا كان يمكن أن يكون مضحكا لولا أن الأمر بالنسبة لنا الآن أصبح مسألة موت أو حياة".

-" إن الغرب يعتقد أنه يمتلك زمام الحقيقة؛ والأخلاق والاستقامة؛ لكن سياسته تكشف هذا الادعاء يوميا. فالواقع أن الغرب يريد أن يفرض سيطرته السياسية والاقتصادية على جميع الشعوب المسلمة؛ وأيضا على كل ما يسمى بالعالم الثالث بشكل عام؛ يحاول بكل ما يملك من وسائل أن يمنعنا من أن نتحد؛ يريد أن يقنعنا بعدم قدرتنا على حل مشاكلنا دون الاستماع إلى نصائحه ومساعدته. إنه يعرف تفوقه التكنولوجي والاقتصادي والعسكري جيدا؛ لكنه يخشى قوتنا الروحية التي يفتقر إليها؛ ويعرف أنه يفتقر إلى هذه القوة الروحية".

أساله عن خطة التقسيم حسب الأصول العرقية؛ على شكل فيدرالية أو كونفدرالية؛ التي ناقشها مفاوضو الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية.

أجاب: " اللورد "أوين" يفتقر إلى الشرف ولا يشعر بالخجل؛ لقد كان تعامله معا مشينا؛ وكل وعوده لنا عبارة عن أكاذيب ؛ تتبعها تهديدات وإرهاب ليجبرنا على الخضوع للقوة وقبول ما يسميه "الواقع الجديد". لم يعترف أبدا بأن البوسنة دولة ذات سيادة. إنه مثال للرجل الذي يفتقر إلى المبادئ؛ والعاجز عن تبين المجرم من الضحية؛ بل أنه مشارك ومحرض نشط للمجرم".

يتطرق بنا الحديث إلى موضوعات شخصية بحتة: الآثار النفسية للتخويف والحصــار. وهل يعتقد هو شخصيا أنه قادر على الاحتفاظ بالنزعة الإنسانية التي يدعو إليها وعلى مقاومة دوار الكراهية العرقية؟

يعترف مصطفى زيرتش: "أن الموقف صعب جدا؛ فالشكناز يغذون المواجهة الاجتماعية بشكل يومي؛ يريدون إزالة الرحمة من قلوبنا. فشعورنا هذا يثير حقدهم لأننا لا نتبع الوسائل التي يستخدمونها. لذلك يجب أن نكون أقوياء دون أن نتخلى عن شعورنا الإنساني؛ وأن نمنعهم من القضاء علينا أو تشريدنا كالفلسطينيين؛ إنهم يريدون محو الإسلام من منطقة البلقان . أما بالنسبة لنا فقد آن الأوان أن نتخلى عن مثاليات ميتة وأن نحافظ على وجودنا؛ وعلى ايماننا".

قبل حلول الليل؛ فيما كنت أنقل وقائع المقابلة من مفكرتي إلى صفحات الدفتر؛ بدأ القناصة في إطلاق رصاصهم بشدة؛ وكانت سوزان سونتاج قد وصلت قبل ساعات؛ فتناولت العشاء معها في مطعم الفندق؛ ورافقنا دافيد ريف والمصورة آني ليبوفيتز. ورغم انه كان يوم أثنين إلا أننا استمتعنا بأطعمة "البوفيه المفتوح "؛ وقام أحد عازفي البيانو بتسليتنا بألحان؛ تكاد تكون مجهولة. كان الهوليداي أن مظلما؛ فتجاذبنا أطراف الحديث على ضوء الشموع. وأصوات القذائف وطلقات المدافع الرشاشة تؤدي دور الخلفية الموسيقية للمشهد؛ ياله من جو سريالي. قدم لي شخص ما نشرة معهد الصحة العامة : في خلال الساعات الست والثلاثين الأخيرة مات ثمانية أشخاص وجرح خمسة وثلاثون نتيجة القصف ورصاصات القناصة.

استمرت السهرة أكثر من المعتاد؛ وعندما تركت الطاولة؛ تحسست بطارية الجيب؛ انتبهت إلى أن "مسلي الحفل" قد مضى صحيحا معافى.

فلم يطلق أحد النار على عازف البيانو !.

٨- عار أوروبا.

كتب الشاعر الأسباني "أنطونيو ماتشادو" عام ١٩٣٨؛ محللا موقف أوروبا من جمهوريتنا (الإسبانية) فقال: "إننا نلاحظ الصورة الرديئة التي تقدمها الديمقراطيات الأوروبية عن نفسها؛ وهي التي كانت فخر العالم في يوم ما". والآن ينبغي أن نرى ما يخرج من مطابخ وزارات الخارجية الأوروبية؛ العاجزة - حتى على مستوى الكرامة المظهرية - عن تطبيق أي مبدأ مثالي أو أي قاعدة للعدالة تحمل بعض الصرامة؛ وكأن هذه الدول قد هزمت مسبقا؛ أو باعت نفسها بشكل فج للعدو؛ أو كأنها تحس بأنها لم تعد تملك في يديها مفتاح مستقبلها. و"لنتوقف لحظة عند دورها البائس في هيئة الأمم؛ إذ حولت مؤسسة نبيلة كان يمكن أن تشرف البشرية كلها إلى كيان هش، إن لم يكن مؤسفا؛ ويمكن أن تتحول إلى هدف للسخرية المثيرة للضحك لولا أن ذلك جاء في أكثر اللحظات مأساوية في تاريخنا المعاصر".
هل يمكن أن نتخيل وصفا آخر أكثر معاصرة وصدقا لمسرح خيال الظل الصيني المتمثل في القرارات المتناقضة لكلينتون، أو المناقشات التي لا تنتهي لمجلس الأمن الدولي، وزعماء المجموعة الأوروبية التي تستهدف دفع الرئيس البوسني علي عزت بيغوفتش أن يستسلم رويدا رويدا بلا أية شروط؛ مثل الثور الذي طعنه مصارع ماهر فيما يدفعه مساعدوه ببراعة نحو السقوط، حتى يمكن للمصارع أن ينهي مشهد الحلبة بطعنة قاتلة؟. فكلنا يعرف اسم المصارع وأسماء مساعديه؛ نعرف أولئك الطاعنين وحاملي الحراب المتخفين في زي "المفاوضين"، لأنه من المفترض في البوسنة أن "الجميع مجرمون ولا أحد بريء من الخطيئة"، (بالطبع عدا رئيس المصارعين؛ نموذج الأدب والاستقامة؛ الذي لن تخمد عظمته على مر القرون !).

هل تاريخ أوروبا في التسعينات استعادة لتاريخها في الثلاثينات (في النمسا وإثيوبيا وإسبانيا وتشيكوسلوفاكيا)، مع قليل من التغيرات في إيقاع الأخطاء وقصر النظر؟. هل تاريخها رقصة منهكة لا تنتهي على إيقاع متكرر مثل "رقصة رافيل"؟.

أتفق مع مندوب إسبانيا لدى الأمم المتحدة الذي يعترف أنه إذا لم يكن ثمة شك في مسئولية الزعماء الصرب عن المأساة، فإن مسئولية المجتمع الدولي تتمثل في العجز التام عن منع وقوعها. إن رد فعل قوي وحازم من جانب المجتمع الدولي كان يمكن أن يجهض أحلام

ميلوزيفيتش العنصرية التوسعية في مهدها، ويمنع تكرار الماضي. إن تطلعاته للقضاء على يوغوسلافيا وإحلال دولة أخرى محلها تخضع لسيطرته الكاملة، يمكن أن تسفر عن حرب شاملة. فصمت أوروبا إزاء القمع الوحشي الذي مارسه في كوزوفو، وقضاؤه على نظام الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به، هو أول اختبار لأنانية الحكومات الأوروبية وعدم اكتراثها. وما أن مرت هذه التجربة بسلام حتى ازدادت شهيته التوسعية. ثم كان تحويل الجيش الفيدرالي اليوغوسلافي إلى جيش خاضع للصرب والجبل الأسود نقطة اللاعودة في عملية كانت المجموعة الأوروبية حتى ذلك الوقت لا تزال قادرة على إيقافها. كل هذا كان مخططا من قبل ومعدا بإحكام؛ ففي سبتمبر ١٩٩١، كشف رئيس وزراء الاتحاد اليوغوسلافي حينئذ "أنتي ماركوفيتش" عن وجود مؤامرة محكمة متفق عليها بين ميلوزيفيتش وقادة الجيش؛ تهدف إلى جمع كل الشعوب الصربية المنتشرة في يوغوسلافيا تحت علم دولة واحدة متجانسة. وفيما بعد كشف ماركوفيتش في تصريحات لصحيفة "فيرمي" عن تسجيلات لحوارات بين رئيس الوزراء الصربي وبين رادوفان كاراديتش؛ يكشف فيها قائد الشكناز عن أنه مجرد عميل لسيده الذي يحكم في بلجراد: هناك تقسيم للعب الأدوار المطلوبة؛ أحدهم يلعب دور المتطرف فيما يلعب الآخر دور المعتدل أمام الرأي العام العالمي – لعبة تتكرر بعد ذلك بين كاراديتش وبين ذراعه الأيمن الجنرال رادكو مالديتش – كل هذا كان جزءا من الخطة التي تم الاتفاق عليها حينئذ ؛ والسياسيون الذين اعتقدوا في صدق الخلافات بين الاثنين سقطوا في نفس سذاجة تشمبرلين واللورد ر.سمان عندما وثقا في وعود هتلر وقائد قواته، إن ازدواجية الأدوار بين الطيب والشرير؛ كانت النموذج الذي لا يبارى من الشاعر والطبيب النفساني الذي كان يؤكد ببراءة أنه وولي نعمته "بوبان" على استعداد أن يقدما للمسلمين مساحة طيبة من الأرض ليقيموا عليها دولتهم أو "جماهيريتهم". فيما تركا رئيس برلمان صرب البوسنة غير المعترف به ليؤكد: "سراييفو لن تكون إلا لنا ". لم يصدق أحد هذه اللعبة سوى لورد أوين ودوجلاس هيرد وبعض زملائه من وزراء الخارجية الأوروبيين، الذين أخذوا الأمر على محمل الجد. فهل هذه المساحة الطيبة من الأرض ذات المناطق الخضراء و"الغنية بمواردها الطبيعية" التي وعد بها المهزومين ستكون مفتاحا لقصيدة غنائية سويسرية على نسق غنائيات كاراديتش، أم أن "الفلسطنة " ستكون نهاية المسلمين المشردين والمحاصرين في مناطق متفرقة محاطة بالأعداء؛ أم أن هناك وسيلة أخرى للبقاء تنهي الإحسان الدولي؟. إن شبح المقارنة بليسوتو وسويزلاند أو بالمثال الأسوأ "غزة –أريحا"، بدأ

يأخذ شكله كتهديد للواقع الرديء. إن تراكم الرعب بعد الرعب والاستسلام بعد الاستسلام والصمت بعد الصمت، وقصر النظر تجاه المستقبل، إضافة إلى نسيان الماضي من طرف زعماء البيت الأوروبي الواحد، أدى إلى تقسيم البوسنة والهرسك بالدم والحديد والنار، وكذلك أدى إلى تمزيق وفناء دولة ذات سيادة؛ يتم ابتلاعها مثل الحبشة وبولندا ومنشوريا، أو تماما مثل ما حدث للدول البلقانية قبل ما يزيد عن نصف قرن فقط. إن استمرار بعض الرؤى السياسية والعسكرية التي تعود إلى الحرب العالمية الأولى، وعدم التبصر الأخلاقي والإستراتيجي لدى حكومتي باريس ولندن، وعجزهما عن استشراف خطر حرب عالمية في البلقان، كل هذه الأمور سوف يحكم عليها المؤرخون بكل الصرامة التي تستحقها.

" لن نقبل احتلال أراضي الغير بقوة السلاح؛ ولن نسمح باستمرار انتهاك العقوبات الدولية!" كم مرة سمعنا هذه الكلمات الفارغة من أفواه زعماء ومفاوضي الغرب؛ من أول الزعيم الذي لا يقهر جورج بوش إلى آخر فذ في هذه المهزلة؟. وعود ذهبت مع الريح دون استحياء أو خجل من جانب الذين تلفظوا بها!. يجب أن يشعر ميلوزفيتش بالفخر من أعماله: "استهتاره ولعبة البوكر التي مارسها بقسوة التي جعلت جميع منافسيه يتراجعون دائما عن مواقعهم". فقد صرح مؤخرا في جنيف قائلا:" نحن الآن في المرحلة الأخيرة؛ وما تبقى ليس إلا مسألة توزيع بشر"، في الحقيقة إن سياسة عدم التدخل العسكري في البوسنة - حظر بيع السلاح على "جميع الأطراف المتصارعة "- تعتبر النموذج الأكثر وحشية للتدخل؛ وذلك منذ الزمن الذي قررت فيه حكومتا باريس ولندن العمل معا بحزم، من أجل خنق الجمهورية الإسبانية الثانية وهزيمتها. ففي كلتا الحالتين صار ذلك الامتناع المزيف في غير صالح من دافعوا أو يدافعون الآن عن المؤسسات الديمقراطية والشرعية، ولصالح المعتدين المتحالفين مع هتلر وموسوليني، أو هؤلاء الذين يرفعون الآن راية التطهير العرقي. ومن يشاهد تطويقا خانقا كالذي يحدث مع سراييفو دون أن يحاول إيقافه؛ ألا ينطبق عليه التوصيف القانوني بالمشاركة في الجريمة؟.

لقد قال نائب الرئيس البوسني: "إن قبول التقسيم كسماحك لشخص ما بأن يدخل بيتك؛ ويحتل نصف غرفه ويسرق أثاثك ويغتصب ويقتل بناتك، ثم يطلب منك أن تضع توقيعك بالموافقة على خطوط التقسيم". واليوم فإن تمزيق بلاده طبقا للأصول العرقية واقع لا شك فيه. فالشعوب الثلاثة التي كانت تتكون منها البوسنة تم فصلها بالقوة . ومفاوضو جنيف يطرحون "الكونفيدرالية بين ثلاث دول في إطار حرية التنقل للأشخاص والممتلكات". لكن،

من الذي يفكر في العودة إلى أرض يحكمها من أحرقوا بيته وعذبوا وقتلوا أسـرته؟. إن خلـق دولة مسلمة صغيرة منزوعة السلاح طبقا لمشروع اللورد أوين يجعلها تحت رحمـة أعدائهـا. ألا يذكروا أنه بعد أقل من نصف سنة من توقيع اتفاقيات ميونيخ – التي أحتفل بهـا تشمبرلين كانتصار للسلام – دخل هتلر براغ . لذلك وعيا بالواقع الجديد والدمار الـذي قد تتعرض لـه البوسنة، فقد طلبت الرئاسة البوسنية وضع بلادها تحت حماية دولية. لأنه من الذي يضمن أن هذا الاتفاق يمكن أن يتحول بعد مرور فترة من الزمن، إلى مجرد حبر على ورق مثل غيره من القرارات؟.

ثم ماذا يمكن أن يكون الموقف في سراييفو؟. لأن التطهير العرقي فيها يبدو مسـتحيلا، إلا إذا تم التطهير من مبنى إلى مبنى ومـن شـقة إلـى شـقة؛ لأن التجـانس النـاتج عـن تعـايش الثقافات الأربع واقع لا يمكن إنكاره. واقع يتجسد في الخليـة الأولـى للأسـرة؛ هنـاك عشـرات الآلاف من العائلات المختلطـة مـن المسلمين والكروات والصـرب. هـل يجـب التفريـق بيـن المـرأة وزوجهـا؛ ووضـع خـط فـاصل بيــن الأولاد وأخوالهـم وأعمــامهم؛ وأولاد عمومتهـم وأقربائهم بالنسب؟. وطبقا لأي قواعد يمكن تحديـد مصـير الأبنـاء؟. أي دم وأي جيـن يطغـى على الآخر؛ الأمي أم الأبوي؟.

قبل يومين من رحيلي ذهبت للعشـاء برفقـة ألفونسـو أرمـادا فـي بيـت صديقـة لزميلنـا خيرفاسيو سانشيث؛ والتي عاشت في مدريد لبعض الوقت؛ لها أسرة مقيمة حاليا في إسـبانيا. انتقلنا إلى مكان تجمع فيه عدد من الرجال المحتمين من نيران الأعداء في مبنى حدودي على النهر الصغير، فقبل أسابيع مرت قذيفـة فـوق هـذا المبنـى وسـقطت علـى بيـت آخـر ودمرتـه وقتلت أسرة بكاملها كانت تسكنه!. جيران السكن يعرفون خيرفاسـيو؛ وأكثرهم مـن العـائلات المختلطة؛ وقد أصبحوا الآن أكثر ترابطا بفضل رهبة الأحـداث. بعـد أن دخلنـا دعتنـا إحـدى تلك الأسر لزيارتها في بيتها؛ كـانت الشـمس قد غـابت خلـف الجبـال وضـوء خـافت يضـيء المكان الذي جلسنا فيه عبر كوة تطل على النهر مباشرة وبـلا أسـياخ ولا زجـاج؛ فيمـا يحـف النهر بالجبال التي يحتلها المحاصرون. جلسنا إلى جـوار نصـف دسـتة مـن النسـاء والرجـال الذين رحبوا بنـا بكـل حفـاوة؛ لكنـه لـم يكـن باسـتطاعتهم تقديـم أي شـيء لنـا؛ طبقـا لعـاداتهم الكريمة؛ ولا حتى كوب ماء . لقد أمضوا شهورا وشهورا دون ماء ولا كهرباء ولا عمـل ولا أمل؛ يحاولون تجميع قواهم حتى يستطيعوا القيام بالرحلـة اليوميـة للبحـث عـن المـاء وبعض الطعام؛ لكنهم يبتسمون ويطرحون الأسئلة؛ كما لو كانت الحياة تسير في مجراها الطبيعي.

ركزت اهتمامي فورا على سيدة عجوز منسقة الهندام؛ تبدو حيوية برغم سنواتها الاثنتين والثمانين. فزياراتنا تعجبهــا كثيرا، وتسر كثيرا بـالحديث مـع الأجـانب؛ كـانت مثـل "سندريلا" التي عثرت على أميرها. حدثتنا عن أصولها المجرية والسلافية والنمساوية؛ وعن مولدها في محطة قطارات قديمة في وسط البوسنة. تقول: " لهـذا حلمت كثيرا بالسفر؛ لكن قلبي لم يغادر سراييفو أبدا". لها حفيدة تعيـش فـي بولنـدا؛ ولأنهـا لا تستطيع أن تراسـلها لأن البريد لا يعمل، فهي تكتب لها أشعارا. تساءلنا: أشــعار؟!، فيجيب أفراد أسرتها وأصدقاؤهـا بفخـر ورقـة معـا: نعم . "هل لـك أن تقرنـي لنـا بعضهـا"؟، لقد نسيت العجـوز أيـن تحتفـظ بالأشعار؛ لكنها تواصل على الفور بأنهـا تحفظهـا عـن ظهـر قلـب. " هـل لـك أن تلقـي علينـا بعضها؟". تتمنع قليلا بخبث لطيف كي نزيد في الإلحاح. أظلمت الغرفة فقام أحدهم بإشـعال شمعة. تشع عينــا العجـوز بحـلاوة بينمـا تنـثر أبيـات الشـعر الموجهـة لحفيدتهـا؛ فيمـا تحـاول المترجمة أن تنقلها إلينا قدر استطاعتها: يقولون عيشي؛ اعشقي وانتهزي ما تقدمه لك الحيــاة؛ لكن لا تنسي سـراييفو. وعندمـا انتهت مـن إلقـاء أشـعارها سـألناها: " منـذ متـى تكتبيـن هـذه الأشعار؟" ابتسمت بخبث وهي تقول: "أوه؛ منذ زمن بعيـد؛ إنهـا رؤى وصـور مـن المدينــة". فنسأل: "من سراييفو فقط؟". تقول: "كتبت أيضا قصائد عن سبليت. لوحات مائية عـن سـبليت" وقررت العجوز أن تقرأها لنـا هـذه المـرة دون أن نرجوهـا، رتلتهـا بصـوت رقيـق؛ مضمـخ بالذكريات: "يتحدثون عن الهواء؛ عن البحـر؛ عـن الشـمس؛ عـن الغـروب؛ عـن القمـر؛ عـن الجزر". لكنها تضيف: "أفضل قصائدي عن سراييفو" فنسألها: "هل كتبت شـيئا عـن الحـرب؟" فتجيب : "أبدا؛ فأنا لا أتحدث عن السياسة؛ بل عن الحب والمشاعر. أريـد أن تحتفـظ حفيدتـي بشيء مني يذكرها بي وبالمدينة التي نشأت فيها لأنها لا تستطيع أن تأتي لزيارتنا".

هبطنا الدرج على ضوء قداحة، وبعد أن ودعنا جمع الخيالات التي كانت لا تزال فـي الفناء؛ عدنا إلى الفندق متخذين طريق المارشال تيتو. كانت المدينــة قاحلـة؛ لا مشـاة فيهـا ولا سيارات. إلا من رجل يدفع أمامه عربة يد محملة بالأواني؛ وآخـر يعـبر الشـارع كـالمجنون؛ ربما كان يهرب من قذائف وهمية أو ربما كان هاربا من نفســه. إن أضـواء السـيارات خطـر في الليل، لأنها تصبح هدفا سهلا للقناصة؛ رغم أنه يجب القيادة دون أضــواء وبسـرعة تحـت عتمة آخر أشعة النهار.

سراييفو مقبرة ليلية؛ إلا أن دوي القذائف المتقطع يعكر صفو سلام تلك المقبرة.

٩- وداعا... سرايفو.

قبيل مغادرتي لسرايفو تناولت طعام الإفطار مع الكاتبة الأميركية سوزان سونتاج؛ ثم رافقتها إلى مسرح المدينة الصغير، حيث كانت تجري بروفات مسرحية "في انتظار جودو" على ضوء الشموع.

قبل أن أصل إلى سرايفو بقليل. سرايفو المحاصرة التي تحولت إلى معسكر اعتقال ذي أسلاك شائكة غير مرئية؛ كانت تلح علي كواقع لا يمكن تجاهله المقارنة مع حربنا الأهلية وحصار مدريد وضربها بالقنابل، نعم، هناك على أطراف الجبال والمباني المرتفعة والسفوح القريبة يختبئ هؤلاء "الجبناء والقتلة والعبيد الخانعون وفاقدو البصيرة، الذين يمثلون أدوات لأسوأ الأشباح ظلاما في التاريخ؛ وأجراء الحرب؛ وجلادو الجنس البشري". الذين تحدث عنهم الكاتب خوان دي مايرينا. كيف يمكن فهم المسافة الشاسعة بين الوعي العالمي المتيقظ عام ١٩٣٦، الذي انطلق للدفاع عن قضية عادلة برغم تجاوزاتها وأخطائها، وبين اللامبالاة الحالية للمثقفين والفنانين؛ الذين لم يبال كثيرون منهم؛ ولم يتخذوا موقفا لمواجهة الاعتداء والوحشية والمذابح، التي تفوق مرتكبوها على أسلافهم جوبلز وميلان استراي؟. أين هيمنجواي ودوس باسوس وكستلر وسيمون ويل وأودن وسبندر وأوكتافيو باث. الذين لم يتوانوا لحظة واحدة في الالتزام بالدفاع عن الجمهورية الإسبانية؛ بل قاتلوا في صفوف الشعب الأعزل المعتدى عليه، مثل ما فعل أندريه مالرو وأورويل؟. إن محاولات سوزان سونتاج ومحاولاتي لجذب كتاب من ذوي الأسماء الرنانة إلى سرايفو باءت بالفشل. إن التشويش الأيديولوجي الناتج عن سقوط الاشتراكية الواقعية؛ وعناد الرؤى الاستراتيجية والحركات العكسية الناشئة عن الحرب الباردة، توضح جزءا من هذه الظاهرة. إننا لا نستطيع أن نفسر الأمر بالجهل: لأن الصحافيين والمصورين المرسلين إلى سرايفو وجبهات القتال "قاموا بتغطية" الأحداث بشجاعة وشرف مثاليين. رغم ذلك فإن الرأي العام يرقد في نوع من الدهشة المستسلمة. ونحن نتساءل: هل هذا نتيجة التعب من تكرار الأنباء عن الصراعات العرقية والحروب التي لا تنتهي في آسيا وأفريقيا والأمم المنفصلة عن الاتحاد السوفييتي المأسوف عليه؟. أم أن قيام البوسنة بطلب النجدة من الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية دون نجاح يذكر، دفع المثقفين الذين اعتادوا على التفريق الواضح بين الطيبين والأشرار؛ إلى

الإعجاب بتحدي ميلوزفيتش للقوى المتعجرفة التي تسيطر اليوم على العالم؟. أم أن "جعجعات" مجلس الأمن الدولي وقرارات ؟ اعدات الإنسانية أقنعتهم بأن حكوماتنا تفعل ما تستطيع في "عش الزنابير البلقاني"؟. أم أن المسألة لا تعدو أن تكون مقتا للإسلام؟. ماذا نقول عن المثقفين الذين نسوا دروس أوشويتز، وقلدوا ما فعله إيلي ويزيل؛ الذي ذهب إلى الغيتو المرتعب والجائع ليلقي المواعظ الإنجيلية التي تطالب "الطرفين بالاعتدال"؟.

إن اليساريين الذين أخنى عليهم الزمن، وأصحاب الآراء الكونية غير المأسوف عليها، والذين كانوا قادرين على الفهم، أصبحوا قلة قليلة. وكما يقول مايكل فهر رئيس تحرير المجلة النيويوركية" زون Zone ": أن "الدفاع عن سراييفو وعن الدولة المتعددة الثقافات ليس فقط إلتزاما أخلاقيا أو للتعبير عن اتجاه سياسي مبدئي"، بل أيضا لأسباب أنانية في "سبيل مواصلة الحياة الثقافية".

وكما حدث في حربنا الأهلية، فإن المنتصر وجد أيضا المتحدثين باسمه: كالمتأسبنين البريطانيين الحالمين؛ الذين خلطوا بين بلاغات فرانكو المنتصرة وبين مفاخر "السيد" القمبيطور، فأعادوا إلى الحياة مثالا أكثر شؤما. أما المنشق السوفييتي السابق "إدوارد ليمونوف" المؤيد للشيوعية – الوطنية، والمؤمن بأفكار المتطرف الفرنسي لو بن؛ فبعد غيابه عن الوعي تحت "تأثير الشعور غير العادي بالقوة، الذي يشعر به من يحمل بين يديه رشاشا ثقيلا"، فقد سطا في تحقيق صحافي رديء نشره في فرنسا على جملة قالها أحد الذين يحاصرون سراييفو: "إننا نعيش الحرب العالمية الثالثة؛ حرب الصراع بين المسيحية والإسلام".

إن المثقفين البوسنيين الذي ظلوا في سراييفو رغم هول الأحداث؛ يسألون زملاءهم بإلحاح: لماذا كل هذا الجبن وكل هذا الصمت؟. ويتجمعون حول نائبة وزير الإعلام "سنادا كريزو" لاستعادة وجه المدينة السعيد، الذي كانت تعكسه أفلام كوستوريكا؛ مدينة المسرح والموسيقى والسينما الطليعية؛ واستعادة فنون وآداب كانت المنارة لحياة يوغوسلافيا الثقافية كلها. إن عالمهم انهار فجأة في إبريل ١٩٩٢؛ بعد شهرين فقط من انتصار كلمة "نعم" في استفتاء استقلال البوسنة الذي قاطعه المتطر ـ الصرب.

" من سمع الطلقات الأولى التي سقطت على مدريد من مدافع القوات الفاشية المعسكرة في "لا كاسا دي كامبو"، يحتفظ في ذاكرته وإلى الأبد بأسوأ الانفعالات وأكثرها إثارة للغثيان؛ لقد كانت الحرب هناك؛ تبث العناد والحيوانية؛ حرب بلا أي ظل روحاني؛ عمادها الشر

والضغينة؛ تلقي بحمم ماكيناتها المدمرة العمياء على مدينة شبه عزلاء؛ مفرغة بدناءة من كل عناصر القتال". لقد قرأت هذه الكلمات قبل أيام في كتاب للشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو رافقني في رحلتي؛ فعشت تلك اللحظات بعمق إحساس الشاعر؛ تلك الأحاسيس المحببة لدى سياسيين في الحكم. وكما يحدث في جميع أنحاء العالم؛ يتشدقون بكلماته دون أن يستمعوا إليه!.

عندما تقترب ساعة الرحيل فإن إحساسا تدريجيا بالقلق ينتاب الزائر. ترى ما مصير أولئك الرجال والنساء الذين عايشتهم في تلك الفترة القصيرة؛ ولكن بتركيز لا يمكن وصفه؟. أي مستقبل ينتظرهم؛ وهم محاصرون كما في مصيدة الفئران؟. أثناء تناول العشاء في الفندق مع أحد المسئولين عن المساعدات الإنسانية والمقربين من مراكز صنع القرار في واشنطون وبروكسل؛ طرحت عليه سؤالين: هل يمكن لسراييفو أن تتحمل شتاء آخر؟. كانت الإجابة قاطعة: " لا ". ثم كان سؤالي الثاني: ماذا يكون رد فعل الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية لو أن الشكناز احتلوا آخر القمم الجبلية وقطعوا إمداد السلاح الضعيف عن المحاصرين؛ وأطبقوا على المدينة بقصف أخير شرس؟. قال: "لا أكثر من القصف الجوي، فإنها لن تفعل شيئا على الإطلاق؛ أما الوضع على الأرض فلن يتغير؛ واللورد آوين سيفاوض على التقسيم بين اثنين، ويقدم نصيب الأسد للصرب".

كيف يمكن أن تقول لشخص عزيز عليك تم فحصه طبيا، أنه مصاب بالسرطان؛ والأطباء لا يضمنون له أي أمل في الحياة؟. هروبا من العجز القاهر؛ أكرس ساعات المساء للطواف مع مترجمتي ألما في أجمل مناطق المدينة. إن النهار مشمس وحار؛ والأطفال يلعبون في الشارع ويستحمون في النهر؛ والقناصة لا يطلقون النار وسراييفو تبدو كما لو كانت تستعيد سلاما خادعا. أحاول أن أدخر على عجل أجمل ذكريات إقامتي القصيرة الطويلة: وقفاتي اليومية في "موريكا هان"، ذلك النزل القديم في الحي التجاري "البشارشية"؛ الذي أنقذته المعجزة من آثار القصف. أتذكر أكواب الشاي في مقهى "شهير"، أمام العامود الذي يحمل تحذير "بازي سنيبر"؛ حيث سألت سيدة المترجمة إن كنت من باريس وكتبت لي في دفتري بيد مرتعشة رقم تليفون إبنتها؛ وقالت: " قل لها فقط أني بخير"؛ وأحاول الاحتفاظ بلحظة الإطلالة على مقبرة " علي فاكوفاك " العثمانية، بنقوشها البيضاء؛ وشاهدها المزخرف بعمامة ومقبرة يعلوها سقف مسدس الشكل بقبة مستديرة وهلال ذهبي؛ وذلك المشهد السحري لظهور سيدة مزينة ترتدي ثوبا بورود زاهية الألوان، تحمل بين يديها أواني الماء وهي تقف

على باب المسرح؛ حيث كانت سوزان سونتاج على وشك البدء في إجراء بروفات المسرحية؛ وقد حدثتني بفرنسية مباشرة وامتدحت لطافة وأدب الباريسيين؛ رغم أنها لا تعرفهم إلا سماعا فقط.

في حصر سريع أراجع أيضا عناصر تعلمي اليومي. فيجتاحني القلق وتأنيب الضمير على مستقبل هؤلاء الرجال والنساء المنهكين؛ الممنوعين من مقاومة الشتاء دون تدخل إنساني حازم من جانب المجتمع الدولي. والكراهية التي أشعر بها تجاه قميصي الواقي من الرصاص - إجباري للصعود على طائرة قوات الحماية الدولية - الذي يعتبر امتيازا وتميزا لي عن الباقين من المحاصرين. ووعيي بضعف عرضي للشاعر عبد الله سدران - كيف أنسى وجهه الغاضب؛ ولحيته المشذبة وسرواله "الجينز" الممزق والمرقع؟ - بإعداد مختارات أدبية بوسنية؛ دفعني إلى هذا الوعد قوله: "أن الشيء الوحيد الذي يمكن كتابته اليوم في سراييفو هو يوميات سجل الوفيات".

ما أن حلت ساعة الرحيل حتى جاء ألفونسو وخرفاسيو للبحث عني في الفندق؛ ثم أخذاني بسرعة كبيرة في سيارة عبر " طريق القناصة "؛ ومررنا عبر متاهة مراكز تفتيش قوات الحماية الدولية؛ ووقعت على الوثيقة التي تعفي قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة من أي مسئولية عن أي حادث قد يقع لي أثناء نقلي؛ ثم أودع زميلي وأنا أصعد العربة المدرعة. بعد ذلك أبدأ طريق العودة إلى المطار برفقة العسكريين الفرنسيين؛ عبر متاهة الطرقات المؤدية إلى ممر الإقلاع، انتظارا لطائرة هيركوليز من طائرات الجسر الجوي؛ كان حارس "الهوليداي إن" قد سلمني حزمة من الخطابات، لأضع عليها الطوابع وألقي بها في أقرب صندوق بريد في باريس. وطبقا لخبرتي أثناء الحصار فقد احترست وخبأت الخطابات بين طيات كيس من البلاستيك. إلا أن زميلي الصحافي الأميركي الذي كان ينتظر صعود الطائرة معي كان أقل مني حرصا، فكان عليه أن ينازع أحد ضباط الصف حول مجموعة خطابات شبيهة بتلك التي أحملها. كان ضابط الصف يرفض أن يزيد عدد الخطابات عن خمسة فقط. ويا لهول الحقيقة التي يكشفها لنا: هل تشارك القوات الدولية في حصار سراييفو؟.

بعد عدة دقائق كنت خارج مصيدة الفئران؛ فقد انطلقت الطائرة باتجاه سبليت.

كيف لي أن ألخص المشاعر والعواطف التي طبعتها المدينة في نفسي؟.

فالحياة فيها تأخذ إيقاعا وتركيزا يشبهان الدوار: الساعات تساوي أياما؛ والأيام تساوي أسابيعا؛ والأسابيع تساوي أشهرا. إن الصداقات الحديثة العهد تتحول إلى صداقات قديمة

وعميقة. لأن الجدية والشوق الحقيقيين يفرضان أنفسهما علينا. إن المعنويات ترتفع وتتحسن. إن المعاني المفككة والمطروحة جانبا خارج عجلة التاريخ تولد من جديد بقوة ونضارة؛ بسرعة الالتزام وشدة الحاجة إليه؛ واستعجال التضامن. إن أشياء كانت بين أيدينا من قبل ذات أهمية، تبدأ في فقدان تلك الأهمية، فيما تظهر أخرى وتأخذ عظمة فجائية وتفرض نفسها علينا كحقائق ثابتة. إن الاحتكاك المباشر ووحشية وجبن مغاوير التطهير العرقي، وجسارة النساء والرجال الذين يتحدون رصاصات القناصة وقذائف الشكناز؛ بخروجهم للبحث عن الماء مسلحين فقط بإيمانهم والتشبث بالحياة؛ كل هذه الأشياء تخلق معايشات وصورا لا يمكن محوها من الذاكرة.

إن معايشة تلك الساعات الحاسمة امتياز رهيب. ويمكن للصحافيين وموظفي المنظمات الإنسانية أن يقدموا صورة كاملة عنها: إن مأساة البوسنة طريق وحيد نحو معرفة إمكانيات نقاء وعار العنصر البشري. لقد أعادوا جميعا اكتشاف قيم متعفنة وخافية في مجتمعاتنا؛ استطاعت أن تكتسب مصداقية في غفلة من الزمن.

لا يستطيع أحد أن يخرج من جحيم سراييفو سالما. أن مأساة المدينة تحول قلب وربما جسد من يشاهدها كله إلى قنبلة على استعداد للانفجار في مناطق الأمن المعنوي لأولئك المذنبين، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. إن الانفجار في هذه المنطقة هو الذي يسبب أقصى الخسائر.

الجزائر في مهب الريح

١- اليقظة المريرة.

سافرت إلى الجزائر في خريف عام ١٩٩٠ برفقة فريق البرنامج التليفزيوني "القبلة"، وذلك لتصوير حلقة من البرنامج عن "بني باد" من سكان الصحراء الجزائرية، وأثناء وجودنا في غرداية أقمنا في فندق كان أفتتحه الرئيس الجزائري شاذلي بن جديد قبل ستة أشهر: عبارة عن مبنى رمادي اللون، ثقيل الدم وموحش وبانت عليه آثار الشيخوخة. الغرف صغيرة وغير مريحة، وانقطاع المياه عنها من الأمور العادية. في أحد الأيام ترك مهندس الصوت صنبور المياه مفتوحا فتسبب في طوفان كاد يغرق نصف الطابق الذي تقع فيه غرفته، وعندما أبلغنا الأمر إلى إحدى عاملات النظافة، هزت المرأة كتفيها بازدراء وقالت:"Je men foes" "هذا ليس من شأني !". وعلى هذا المنوال فإن فتح وإغلاق الباب ليس من شأن البواب الذي يرتدي زيا يشبه أميرالا بحريا بأزرار مذهبة، والذي كان يتأمل بلا اهتمام الجهود التي كانت تبذلها سائحة فرنسية عجوز تحاول دفع الباب بكتفها فيما تجرجر حقيبتها بجهد، وبعد ذلك بأيام، عندما انحشر مزلاج الباب ولم يستطع النزلاء الدخول أو الخروج، كرر البواب تصريحات المسئولة عن النظافة: لا علاقة له بهذه المشكلة، وإذا أردنا أن نشكو فعلينا أن نتقدم بشكوانا إلى المدير. وعندما دفعتني براعتي إلى تقديم بلوفر من الصوف إلى المغسلة انتهت الحادثة بما يشبه النكتة: بعد المطالبة به عدة مرات دون جدوى والاستماع إلى الحوار بالعربية بين موظفي الاستقبال (لا، لا تعطه إياه، قل له أنه مفقود) تلقيت البلوفر على هيئة مصغرة، أنكمش بشكل عجيب، كما لو كان تم تفصيله لأحد الأقزام السبعة في قصة "أليس في بلاد العجائب". العمال الذين يتجولون في باحة الفندق بملابس رياضية دون عمل ظاهر اكتشفوا فجأة عملهم الحقيقي في تلك الليلة التي حضر فيها مخرج مسرحي جزائري إلى الفندق لزيارة مجموعة مكونة من ثلاثة ممثلين كنديين، ظل أحدهم يتبعه في حرص تام إلى اللحظة التي شاهده فيها يدخل غرفة إحدى الممثلات: فتم استدعاؤه على الفور إلى مكتب الاستقبال، وجرى تهديده بقضاء الليلة في المخفر. إلا أن قمة التدهور الذي تشير إليه هذه الأحداث كان التليفون الشهير، فمن نصف دستة من التليفونات المتراصة في مدخل الفندق يبدو أن واحدا منها فقط الذي يعمل: وينتظر أمامه طابور طويل كل واحد في دوره، بينما التليفونات الأخرى تواجه الفراغ. وبعد قليل من الوقت، ومللا من طول فترة

الانتظار، قررت دون أمل كبير في النجاح أن أجرب حظي في تليفون آخر: رفعت السماعة، انتظرت إشارة الحرارة، ثم حركت القرص فحصلت على خط للتحدث مع باريس مباشرة. وهكذا كانت الصدفة وحدها كافية لاكتشاف سر التليفونات المعطلة عمدا، كان يكفي إدخال قطعة معدنية من فئة الدينار للاتصال دون وقت محدد بالجزائر العاصمة أو باريس أو مدريد أو الرياض أو القاهرة، بل ويمكن استرداد الدينار من الجهاز بشيء من الدهاء. وطوال الأيام الثمانية التي استغرقها التصوير شاهدت ما لا يحصى من "الشطار" الذين يتبارون في عرض خدماتهم على أي أمير سعودي أو كويتي بإعداد رحلات صيد بالصقور في الصحراء، أو لعرض ألاعيبهم السحرية على السائحين ونزلاء الفندق من مختلف الجنسيات، أو عرض خدماتهم على حراس وعمال الفندق، أو على أي رجل جيش أو بوليس. كل هذا يتم في باحة استقبال الفندق، وتحت أنف مدير الفندق!، في بلد ملغوم بالشقاقات الداخلية، لا يتفق الناس جميعا إلا على شيء واحد: غش وخداع الدولة.

كيف وصل الوضع إلى هذه الحالة من التهتك؟. للإجابة على هذا السؤال استدعيت من ذاكرتي صورا مشوشة من رحلتي الأولى إلى الجزائر في يوليو ١٩٦٣. كان الفرح الشعبي عارما بالاستقلال الثمين المنتزع باقتدار، والإحساس الأخوي الذي لا يستثني الأوروبيين المتعاطفين مع الثورة، والشعور العام بالثقة في مستقبل أكثر عدالة، وحرية وديمقراطية، كنت مع جان دانييل وجيزيل حليمي وأصدقاء آخرين ومؤيدين للقضية الجزائرية، تجولنا في الأحياء الشعبية مثل "باب الواد" و"القصبة"، وحضرت لقاء شعبيا للرئيس "بن بيللا" جرى على ملعب لكرة القدم، ثم سافرت إلى "البليدة" و"تيبازا" ، تجولت في أراض زراعية مستصلحة هجرها "أصحاب الأرجل السود pies-Norse" (الفرنسيون المولودون في الجزائر من آباء أو أمهات فرنسيين - المترجم) وقام الإصلاح الزراعي بتأميمها، صافحت الرئيس المحبوب من الجماهير بينما كان "بومدين" في الصف الثاني يتابع المشهد، اتذكره، كان غامضا وصموتا، كطائر مفترس يرقب الفريسة، إذا أردنا قول الحقيقة فإن الوضع السياسي كان ينم عن إشارات مقلقة تشي بالعودة إلى زمن ما قبل الاحتلال، العودة إلى النظام الإقطاعي للبايات العثمانيين: الصراع القبلي، والصراعات العرقية والإقليمية، التمرد المعلن أو المقنع لبعض الولايات، الموالاة وسد الفراغ السياسي بالعسكريين. "آيت أحمد" الذي زرناه في مقره بمنطقة القبائل كان على خلاف مع السلطة. والرئيس المؤقت السابق للجمهورية الجزائرية "بن خدة" كان قد ترك منصبه بعد وصول بن

بيلا على أكتاف الجيش. وكان بوضياف ينتقد بمفرده الاتجاه الذي بدأت تتخذه الأحداث مما تسبب في دخوله السجن الوطني بعد أن كان قضى خمس سنوات في السجون الفرنسية.

في رحلاتي التالية إلى الجزائر بعد انقلاب بومدين العسكري، أمكنني رؤية انهيار المشروع السياسي بوضوح، تبينت ذلك من خلال الإهمال وما آلت إليه الزراعة، والتكدس البيروقراطي، والجبروت البوليسي، والاستراتيجية التصنيعية المتسرعة المحكوم عليها بالفشل، وتسلط الفكرة البسماركية التي تهدف إلى تحويل البلاد إلى قوة مسيطرة في منطقة المغرب العربي بفضل وضعها العالمي، ووجودها في قيادة الدول غير المنحازة.

اختلاطي بالعمال المهاجرين من شمال إفريقيا إلى فرنسا سمح لي بتلقي أول وأهم إشارة إلى الخطر. فمنذ منتصف الستينات، كان العمال المغاربة والتونسيون يرسلون مدخراتهم إلى المغرب وتونس، ليبنوا بيوتا لهم او يقيمون مشروعات تجارية، أما الجزائريون كانوا يحتفظون بمدخراتهم في فرنسا، ويفضلون إحضار أسرهم إلى هناك. إن فقدانهم الثقة في المستقبل المنتظر أثبت صحة توقعاتهم: "يقولون في الجزائر أن المبادرة الفردية لا تفيد في شيء، البيروقراطيون عاجزون، وجبهة التحرير تعمل على خلق جيل فاقد لهمة العمل وله عقلية اتكالية". الهوة التي تفصل بين القيمة الرسمية والواقعية للدينار تتسع سنة بعد أخرى: رغم أن القيمة الرسمية كانت تعتبر أعلى بقليل عن قيمة الفرنك، فإن معارفي كانوا يقولون أنهم كانوا يتلقون الضعف أو ثلاثة أضعاف هذه القيمة للمبلغ الذي يحولونه من فرنسا. وسنة رحيل بومدين، وأثناء زيارتي لبني درار، في بلدة "بني اسناسن" القريبة من الحدود، كان أصدقائي المغاربة يعرضون لي حزما من الأوراق فئة المائة دينار كعينة على ما يقدمه لهم المهربون الجزائريون لحساب تجار وموظفي "مغنية"، وتلمسان لتحويلها في "وجدة" بثلث قيمتها: ٣٣ درهما. ودون حاجة إلى محللين سياسيين ولا اقتصاديين فإن التجربة تبين الواقع المرير الذي كان مختفيا خلف الأسطورة "الثورية" والديماجوجية.

كم مرة سألت نفسي عن سر سقوط محللينا وسياسيين اليساريين في الفخ واعتبارهم نظام بومدين ومن بعده شاذلي بن جديد كمرآة للتقدمية والديمقراطية. هل كانوا يحكمون على الدمار المرئي على أنه حوادث عارضة لها قيمتها "الأساسية" المزدهرة ؟. في عام ١٩٧٦، بعد عودة حرية الكلمة بقليل، تجرأت على إبداء الرأي بالقول بأنني أفضل النظام المغربي، بكل أخطائه، عن الجزائري، لأن أخطاء النظام المغربي يمكن تصحيحها بينما جبهة التحرير الوطنية في الجزائر كانت تدمر بلدها دون أن تقدم بديلا، فكان سيل الردود على مقالاتي

وآرائي صاخبا وجماعيا. كان ذلك زمن رحلات زعمائنا -الذين كانوا في ذلك الوقت في المعارضة- وأثناء عودتهم في البالونات من الجزائر مثل عودة "أليس من بلاد العجائب"، ليؤكدوا على توافقاتهم الأيدلوجية مع جبهة التحرير، فكانوا يعلقون على قرون القمر "الإنجازات الثورية" لمجتمع يقف على حافة الهاوية. كيف لم ينتبهوا إلى الطوفان المقبل؟. هل فقدوا بصيرتهم فعميت عيونهم وشاهدوا طواحين الهواء على أنها قلاع؟.

إلا أن أحداث أكتوبر عام ١٩٨٨، والقمع الدموي الذي ووجهت به فتحت أخيرا عيون الأصدقاء والمتعاطفين مع النظام، حيث اكتشفوا على مضض حجم الكارثة، في الوقت نفسه الذي اكتشفته فيه الصحافة الجزائرية المحررة أخيرا من قيودها.

عند انتزاع الاستقلال كانت الجزائر من أكبر البلاد المصدرة للمواد الغذائية الزراعية، وكانت تمتلك أفضل بنية أساسية في القارة بعد جنوب أفريقيا، ودخلها من النفط لم يكن يمثل سوى ١٢ في المئة من مجموع صادرتها. فحولتها سياسة التصنيع السريع من الزراعة إلى دولة تصدر منتجا واحدا، ففي عام ١٩٨٨ كان دخلها من البترول يصل إلى ٩٥ في المائة من مجموع صادراتها، ووصل اعتمادها على استهلاكها الغذائي المستورد بنسبة ٨٠ في المئة. كان بومدين ومستشاروه يعتقدون أن مبيعات البترول والغاز الطبيعي تسمح لهم بإنجاز مشروعاتهم العملاقة والاعتماد عليها في تموين الشعب. وكان ذلك ممكنا بعد الحرب المصرية-الإسرائيلية "أكتوبر" ١٩٧٣، وارتفاع أسعار خام النفط، لكن الانخفاض المستمر لهذا الخام في العقد التالي ضغط حجم الدخل بشكل كبير، وأغلق سيل الأموال الأجنبية التي كانت حتى ذلك الوقت مفتوحة على الجزائر، حدث كل هذا في ضربة واحدة. وارتفع عدد السكان من ١١ إلى ٢٥ مليون نسمة، والشركات الحكومية الكبرى تعمل بنسبة ٣٠ في المئة من طاقتها، برغم العدد الهائل من العمال الذين كانوا في وضع بطالة فنية، وأرتفع عدد العاطلين إلى ٢٠ في المئة، واليوم يصل إلى ٢٥ في المئة من مجموع القادرين على العمل وأكثرهم من الشباب. ومع نهاية الثمانينات كان واضحا أن كل شيء يدفع البلاد إلى الشلل بعد عشرين عاما من الاستدانة والتبذير (١٠٠ مليار دولار تم دفنها في مقابر أسمنتية اصطناعية): حيث بلغت فوائد الديون حوالي ٢٦ مليار دولار تستهلك ٨٠ في المائة من مجموع مبيعات البترول، وتحول عنها المستثمرون الأجانب لأنهم يخشون بلدا غير مستقر وتسيطر عليه البيروقراطية الفاسدة، وقلة المعروض من المواد الاستهلاكية والارتفاع المستمر لأسعار المواد الأساسية والتضخم في المدن -سبعة أشخاص متوسط عدد سكان

الشقة الواحدة المكونة من ثلاث غرف- الناتج عن الهجرة السكانية من الريف أصبحت تغذي القلق والعداء لجماهير محرومة من المواد الأساسية، إضافة إلى انقطاع المياه والكهرباء وانهيار وسائل النقل العام. أدي كل هذا إلى انخفاض الدخل من ٢٧٠٠ دولارا للفرد إلى ١٤٠٠ دولار سنويا.

إذا كانت الزراعة المغربية توفر ٧٠ في المئة من الاستهلاك الوطني، فإن الزراعة الجزائرية تغطي أقل من ٢ في المئة من استهلاك البلاد. كتبت الباحثة الاقتصادية زكية داوود في "لوموند دبلوماتيك" تقول: "مزرعة القمح الرومانية في زمن "تيتو ليفيوس"، تم القضاء عليها. هناك حيث كانت تسيطر حضارة الزيتون يتم طبخ الطعام بزيوت عباد الشمس والسلجم المستوردة". تجمعات الشباب العاطلين -المتسكعون على نواصي الشوارع- غير المتعلمين وبلا مستقبل كانوا عام ١٩٨٨ الوقود الذي أنفجر. إن آثار ربع قرن من الفساد والتبذير والحزب الأوحد بادية للعيان: عقم ثقافي وأخلاقي، التهميش، وفقدان الهوية، والطاقة المهدرة، وكراهية الطبقة الجديدة. فبعد أشهر من قمع الثورة في شوارع وهران والجزائر، كان آلاف الشباب يصرخون في ملاعب كرة القدم: احنا ضايعين دزونا فلسطين!". لن يمر وقت طويل حتى يبدأوا الحرب أو الجهاد في وطنهم. فعزلهم عن المجتمع والكراهية التي يكنونها للنظام تحولت للأسف إلى القاعدة الصلبة والمنتقمة لجبة الإنقاذ.

٢- الإسلام والسياسة.

الدراسات العرقية الأولى عن الإسلام في الجزائر التي أجراها الفرنسيون أثناء فترة حكم "نابليون الثالث" - كانت من عمل عسكريين وإداريين أمثال: لويس رين وبيبون وكوبلاني- رغم أنها كانت عبارة عن أرشيف يهدف إلى التمييز بين مختلف التيارات والحساسيات طبقا لمعارضتها أو قبولها للسيطرة الاستعمارية، إلا أنها كانت في الحقيقة أداة ثمينة للتعرف على المجتمع العربي-البربري بعد سقوط نظام البايات العثماني. وتقدم وصفا دقيقا للروابط الصوفية، والاحتفالات الشعبية التي قامت حول مقابر أولياء الله الصالحين، ولسلطة تلك المقابر، وتقسم البلاد إلى قبائل تطلق عليها اسم "دار المخزن"، وأخرى يطلق عليها اسم "قبائل حرة"، وتشير إلى امتيازات ونفوذ النبلاء الدينيين (الشرفا) الخ... كل هذا يكشف عن تشابه كبير مع تقسيمات الإمبراطورية الشريفة: وجود واقعي لإسلام شعبي، مليء بالخرافات وعملي مثل ذلك الذي انهارت في مواجهته محاولات السلفية التطهيرية في المغرب. وحاول الفرنسيون القضاء بكل الوسائل على هذه العفوية. و"التطرف"-كلمة خفية تجمع في معانيها بين الشعور الوطني المقموع وأيضا الشعور بوجود بعض الروابط والزوايا "الفوضوية" المعارضة لأي محاولات تهدف إلى التحديث- لصالح إسلام رسمي، مسيطر عليه وخاضع للتوجيه الاستعماري.

وبينما تمت مواجهة حركات بعض الشيوخ بعنف وبلا رحمة في الفترة من ١٨٧١ و١٨٨١، فإن الإدارة الاستعمارية قامت بشراء ولاء العديد من القبائل التي تتمتع بسيطرة دينية وكذلك الشرفا ، وحولت بعض أفرادها إلى قادة وأئمة وعملاء لتسهيل مهامها. وتضمن للمشروع التحديثي الحفاظ على "إسلام" مسيطر عليه في إطار دولة يعقوبية وعلمانية، إضافة إلى القضاء التدريجي على الأصول العربية للثقافة ومحو الجذور المتأصلة للرموز والأساطير الشعبية التي تمثل جزءا لا يتجزأ من هوية البلاد. إلا أن هذا التحول نحو التغريب كانت له محدوديته: تلك التي يحددها الاستعمار ذاته، لأن التحديث لم يكن في وسعه ولا يهدف إلى المساواة بين المستعمرين والمستعمرين. لذلك فإن الحركة الجزائرية للتشبه بفرنسا التي قادها أحد أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري بعد الحرب العالمية الأولى، واجهت

معارضة عنيفة وحادة من جانب فرنسا. لأن الشعار الجمهوري -الحرية والمساواة والأخوة- في عرفها ينطبق فقط على الوطن الأم ولا يمتد إلى توابعه في شمال إفريقيا. إن تناقضات ومظالم الوجود الاستعماري الفرنسي كانت لها نتائجها السلبية: فصلت الطبقات الشعبية الجزائرية عن جذورها التقليدية، دون أن تصهرها في المقابل في دولة تضمن لها مواطنة متساوية في الحقوق والواجبات. البرجوازية التي تقطن المدن والطبقات الخاصة "المتفرنسة" ناضلت لأكثر من عقدين من أجل الحصول على المساواة القانونية، ثم ناضلت بعد ذلك في سبيل تقرير المصير، وأخيرا كان نضالها من أجل الاستقلال في إطار الجمهورية الفرنسية: إن هذه المسيرة كانت تقريبا التطور الذي مرت به بعض الشخصيات السياسية مثل فرحات عباس. إلا أن الرفض المتكرر من جانب باريس التي أملاها العمى الانتحاري لذوي "الأقدام السود"، فتح طريق الاستقلال أمام مزالي حاج ومن بعده جبهة التحرير.

استمرت حملة تحطيم الشخصية الثقافية والدينية الجزائرية لأكثر من قرن، ففي الثلاثينات من هذا القرن وصف الفيلسوف "أميل دورمنهايم" بشكل حيوي فريد التوصل بالأولياء واحتفالات الروابط الصوفية في مختلف المناطق بالبلاد، وأعاد وصفه الدقيق إلى ذاكرتي تجارب مشابهة يعيشها المغرب اليوم. مثل المقام الجميل لسيدي بومدين، ذلك الصوفي الأندلسي الكبير المدفون في تلمسان، والذي يعتبر بداية سلسلة تتكون من حلقات في أكثرها روابط صوفية مغربية، فمن تلك المدينة مازال يجتذب جموع المؤمنين إلى مقامه، الذي يعتبر واحدا من أهم فنون العمارة الموحدية، وفي المدينة القريبة منه كانت تجمعات الناس تعلن الاحتفال بنهاية شهر رمضان المعظم، واحتفالا بالعيد الكبير وبالمولد النبوي الشريف تقام استعراضات مبهرة للطرق الصوفية التي تستعرض فيها أدواتها الموسيقية ورقصاتها التي تأخذ اللب. إن خلق طبقة خاصة "متفرنسة" كأداة توصيل للسلطة الاستعمارية كان موازيا للترويج لإسلام موظف، في خدمة الدولة. فيما كان التدين الشعبي المحتقر من جانب التحديث والقيم العلمانية الجديدة ينتشر بقوة وتركيز كتعبير عن هوية مقموعة. لأن الذين تبوءوا مقعد السلطة في الجزائر منذ تنحي "بن خدة" في سبتمبر عام ١٩٦٢، ساروا على نفس الطريق التدميري باسم التقدمية والاشتراكية: فقد أصبحت مواكب سيدي عبدالرحمن الثعالبي في الجزائر العاصمة وسيدي محمد في بلكور وسيدي مجبر في بوزرقة هدفا للبيروقراطيين الذين أوقفوا إقامتها. فالجمهورية الجزائرية الديمقراطية والشعبية كانت تريد أيضا مثل فرنسا إسلاما رسميا ومحددا، خاليا من التعبيرات الدينية "المظلمة" التي تنتشر

بالمناطق الريفية والمتخلفة التي سرعان ما صارت هدفا للثورة الزراعية المدمرة التي أجبرتها على الهجرة واللجوء إلى التجمعات الحضرية على هوامش المدن الكبرى. ففي أثناء تصوير إحدى حلقات برنامج تليفزيوني إسباني في وهران عام ١٩٩١، كشف لي أصدقائي من كلية الآداب أن البلدية لم تصرح بالتجمعات وإقامة الصلوات حول مقام ولي المدينة إلا في عام ١٩٨٩، بعد تمرد أكتوبر، ومنذ ذلك الحين فإن قيام بعض أعضاء جبهة الإنقاذ بإحراق مقامات أولياء مثل سيدي كادا في مسكرة وسيدي محمد بن عودة في رزلان، إلخ... إضافة إلى ما تم هدمه من مقامات الأولياء في الجزائر العاصمة وبعض المدن الأخرى، يبين أن التدمير الثقافي لا يزال يواصل عمله مرتديا حللا مختلفة، وفي أحيان كثيرة، فإن قراءة ما يحدث في جزائر تسير على طريق الهدم الذاتي ومحاطة بمشاكل كبرى تختص بهويتها بعد الأحداث المتلاحقة التي من المفترض أن يعيها من يحكمونها، يعيد إلى ذاكرتي كلمات أميل دورمنهايم المضيئة والمنذرة: "إن تجديد وتقدم الإسلام لا يمكن الحصول عليهما بمساعدة عوامل خارجية، وليس بمجرد استعادة قيم شكلية، بل بإحياء أكثر قيمه عمقا. ولا شك في أن المعارضين للالتفاف حول مقامات الأولياء يقومون بجهود مشكورة للتحرر منها وتطهيرها من الشوائب، إلا أن الابتعاد عن ينابيع الحياة العميقة يحمل بين طياته خطر الضياع والسقوط في التيه: إن التسرع الجمعي المضغوط، يمكن أن يسفر عن غضب أعمى". هذه الكلمات مر على كتابتها أكثر من نصف قرن: وأحداث اليوم تكشف عن مدى انطباقها على الواقع الراهن.

علينا أن نتذكر: أنه لا يوجد تفسير إسلامي واحد. فالحكومات الإسلامية يمكن أن تكون شمولية أو ليبرالية، ويمكنها أن تعتنق أفكارا تقدمية اجتماعيا أو تتخفى خلف تقاليد بالية وجامدة. فبينما بالقرآن يمكن الحكم بشرعية ملكيات تقليدية، منها المنفتحة (المغرب والأردن)، ومنها السلفي (المملكة السعودية)، يمكن بالقرآن الحكم أيضا بشرعية أعداء لكل من هذين النوعين من تلك الملكيات (مثل الجزائر ومصر). فبعض تلك الحكومات تبرز جوانب توجهها الجمعي والتكافلي، وبعضها الآخر يتمسك بالسنة والقيم المجردة. وبشكل عام فإن "المحافظين" يدافعون عن تقبل التقدم التقني، والمادي والعلمي دون أن يعني ذلك هجر العودة إلى المصادر الدينية والثقافية الأساسية "الصافية" من أي شائبة غربية. واليابان هي المثال المنتشر على ألسنة الجميع كرمز لهذه النظرية.

إن جمعية "العلماء" الجزائريين التي أنشأها "بن باديس" عام ١٩٣١، بدأت بحركة إصلاحية امتد نفوذها حتى بدايات الثورة: تلك الحركة التي تشبه إلى حد ما السلفية المغربية، ثم انفتحت فيما بعد على التيارات الشعبية المستوحاة من نظرية "حسن البنا" مؤسس الإخوان المسلمين في مصر. فمنذ البداية أدى النضال في سبيل الاستقلال إلى اعتناق قادتها للقيم الإسلامية كراية يمكن الالتفاف من حولها: فالحرب ضد فرنسا تحولت هكذا إلى هدف قومي، وفي نفس الوقت كانت هدفا وطنيا وإسلاميا ضد القمع "النصراني" (والنصرانية كانت التعبير الديني الذي يحدد هوية الأوروبي). ورغم أن الفيدرالية الفرنسية التي دعت إليها جبهة التحرير، وفكرة إقامة دولة علمانية التي أعلن بوضياف عن دعمه لها، تم استبعادها لنفس الأسباب التي تعللت بها حكومة باريس حتى لا تطبق على المسلمين قانون عام ١٩٠٤، الذي كان يهدف إلى فصل الدين عن الدولة، والذي طالب به العلماء بهدف إقامة كيان ديني مستقل. وعندما تم عام ١٩٦٢ إعلان أن الإسلام "دين الدولة"، فإن زعماء جبهة التحرير كانوا يهدفون إلى السيطرة على إدارة الشؤون الدينية: طبقا لهذا الإعلان، كان على الأئمة أن يكونوا موظفين، والمساجد والجمعيات الأهلية يجب أن تتعاون في العمل على محو أمية النظام؛ وأن تتعهد بمحو الفجوة بين التقدمية بطبعتها المطبقة في العالم الثالث وبين الكتاب المنزل (القرآن).

إن الذين اعتقدوا في اشتراكية بومدين لم يفهموا أن هذه الإشتراكية كانت استجابة رأسمالية لغياب الرأسمالية في الجزائر: إقامة رأسمالية الدولة التي تتولى تنفيذ التصنيع وتحديث المجتمع الجزائري. وأن الطبقة السياسية-الرأسمالية الحاكمة التي نبتت في ظل الحزب الأوحد كانت منذ البداية تعكس الجانب الأكثر مادية في حياتها، وأنها كانت بعيدة عن كل التقاليد الثقافية والدينية التي محاها الاستعمار الفرنسي، وأن العقود الثلاثة التي قضتها البلاد في ظل ديكتاتورية وفساد جبهة التحرير التي لم تكرس لها جزءا من ثروتها، كما كان يفعل "الشرفا" والأثرياء القدامى الذين أقاموا الروابط والمدارس والمكتبات العامة: حيث كرست جبهة التحرير هذه الأموال لشراء الفيلات الفاخرة والسيارات والرحلات إلى فرنسا، إضافة إلى استعراض الثراء والمصروفات الباهظة في النوادي والملاهي الليلية بشكل مثير. إن المفارقة بين مسيرة حياة هؤلاء وحياة الجماهير المهمشة التي تتزاحم في الأحياء الفقيرة بالمدن، وفي الأكواخ المحيطة بها كانت غير محتملة. وبدأت الأصوات تعلو معلنة أن "الاشتراكية" حيلة من حيل الطبقة الجديدة التي احتلت مكان المستعمر في كراسي القيادة.

و"الحزب الفرنسي"-حيث كانت اللغة الفرنسية المفضلة لدى المتميزين- وجدوا أنفسهم يتشبهون بذوى الأقدام السود و"الحركي" التابعين لهم ("حركي" تعني في العامية الجزائرية "عميل" وكانت تطلق على الجزائريين الذين كانوا يقاتلون في صفوف الجيش الفرنسي ضد الثوار الجزائريين). وهذا الأمر فتح أمام الشباب المولودين بعد الاستقلال جبهة أخرى للصراع، وتحول هذا كله إلى المتنفس الوحيد بين الجزائريين.

منذ نهايات السبعينات كان التأكيد على الإسلام في السياسة إخفاء لكل قيمه الثقافية والروحية والتاريخية، وتحول الحديث عن الشريعة والسنة -أو الأئمة في الشيعة الإيرانية- ليكون العنصر الرئيسي الذي يضمن شرعية مشروعات الحكومة. بمعنى آخر، فإن الإسلام بما يحمله من معاني الإيمان والمعايشة والقيم الأخلاقية الشخصية، تم إحلاله بنظرية تبسيطية لا تلتفت إلى تفسير النص القرآني وتكتفي بإضفاء صفة "الكفرة" على كل الأنظمة التي تحتل السلطة. فإذا كانت الوطنية في وقت من الأوقات تخلط الحنين إلى الماضي بالأمل الثوري للوصول إلى عالم أكثر عدالة، فإن سقوط الثورية بعد فشل الزعماء العسكريين "الاشتراكيين" (ناصر وبومدين) دفع بالطبقات التي تم تهميشها بالتحديث المنقول عن الغرب إلى التعلق بأول فكرة لاحت لها للخروج من الأزمة الثقافية والاجتماعية التي ألمت بها، إن الأمواج البشرية من المؤمنين الساجدين حول مساجد القاهرة والجزائر والتي تزعج الغرب ليست إلا تعبيرا حماسيا أكثر منه تعبيرا احتجاجيا. فإن الرفض أو الجهل بالثقافة العربية الكبرى في شكليها الصوفي والمنطقي -الذي عبرت عنه الوهابية السعودية والإسلاميون الجزائريون- أمكن مواجهته بقصر المساحة الدينية على العبادات الشكلية والتطبيق الصارم للأوامر القرآنية (تحريم شرب الخمر، ووضع قواعد خاصة بالملبس، الخ..) وكنت كلما ذكرت هذا لأحد المتعاطفين مع جبهة الإنقاذ أو لأحد أفراد هذه الجبهة على أنه تجريد رسالة القرآن الاجتماعية والسياسية الثرية والمركبة مما فيها من شاعرية ومنطقية وتأملية، فإن إجابته كانت دائما : "شعبنا يطلب الخبز والعدالة، لا قراءة ابن خلدون أو ابن عربي".

بموت بومدين انتهى استخدام النظام الرسمي للإسلام، وجاءت طبقة جديدة من الأئمة المتأثرين بالإسلاميين الراديكاليين، واستقرت تلك الطبقة الجديدة في الأحياء الفقيرة التي نشأت حول المدن الكبرى، وأقامت مئات المساجد والمصليات سواء بموافقة السلطات أو دون موافقتها، وبدأت في مواجهة الفساد، و"انهيار القيم والتقاليد" وجعلت من مهمة تعريب البلاد

معركتها الجديدة، رغم أن النظام لعب لعبة التوازنات السياسية بمهارة بين الماركسيين الذين شكلوا فيما بعد "حزب الطليعة الاشتراكية"، وبين الإسلاميين، فإنه كان يفسح المجال أمام الإسلاميين كلما دعت الحاجة إلى ذلك،(وقانون العائلة المحافظ دليل على ذلك). إلا أن لعبة التوازنات هذه انهارت بدخول جبهة الإنقاذ الساحة السياسية وانتهى الأمر بالقطيعة عام ١٩٨٢ مع جبهة التحرير، ودخل زعماء جبهة الإنقاذ سلطاني وسحنون وعباسي مدني السجن لأول مرة، وزادت شهرة عباسي مدني الذي كان مجهولا حتى ذلك الوقت.

٣- دوافع جبهة الإنقاذ الإسلامية.

بوفاة بومدين تحولت المساجد إلى المكان الوحيد المفتوح أمام المعارضة للنظام القائم، وكانت الأحياء السكنية الفقيرة هي مقر هذه المساجد مثل أحياء القصبة وباب الواد وبلكور والحراش، حيث تقطن بعض العائلات المكونة من خمسة أو ستة أفراد حجرة واحدة في كثير من الأحيان، ويتسكع في شوارعها الصبيان والشباب الذين لم يجدوا لهم مكانا في المدارس أو الذين يحملون شهادات تعليمية لا تضر ولا تنفع، وقد أغلقت أمامهم أبواب العمل أو الهجرة إلى أوروبا، وفقدوا في الوقت نفسه كل البدائل من أدوات اللهو، حيث غياب أي نوع من أنواع المنشآت الرياضية المناسبة. والمائة ألف مسكن سنويا لتغطية احتياجات الطبقة المطحونة التي وصل تعدادها إلى ثلاثة ملايين والتي كانت تمثل أحد أبرز وعود الرئيس الجديد، انخفضت إلى عشرين ألف مسكن فقط، إضافة إلى افتقاد أحياء الأكواخ لكل ما تحتاجه من مدارس أو مكاتب خدمة اجتماعية يمكن أن تساعد المتعطلين عن العمل، فالدولة لم تعد موجودة بالنسبة لتلك الأحياء: وأصبح على الشباب أن يواجه مصيره بمفرده.

بدأ الإسلاميون يحتلون هذا الفراغ بمهارة فائقة، وذلك بفضل التمويل السعودي الذي انقطع بعد ذلك بسبب الدعم الذي قدموه لصدام حسين (أثناء غزو الكويت)، والذي فرضته قواعد الجبهة على زعمائها، وبدأ مدني وبلحاج وغيرهم من زعماء الحركة الإسلامية في الإمساك بخيوط اللعبة شيئا فشيئا، وإقامة بدائل لغياب نظام المساعدات الاجتماعية الحكومي، وشرعوا في تجنيد وتثوير المهمشين تحت شعار التغيير الجذري، ومن هنا بدأت خطوات إحياء الحركة الإسلامية في المجتمع، بتنظيف الأحياء الفقيرة من تجارة الخمور والمخدرات، وفرضوا نظامهم التعليمي بين الجهلة والفقراء، وبدأت المساجد الشرعية وغير الشرعية تنتشر بسرعة كبيرة: إلى جوار الجوامع الحكومية -التي يسيطر النظام على خطبائها من خلال إدارة الشؤون الدينية التابعة لجبهة التحرير- كانت تقام أماكن الصلاة "الشعبية" و"الحرة"، التي أشار إليها الكاتب "أحمد رودجيه" في كتابه "الأخوة والمسجد"، حيث كتب يقول: "هناك الآلاف من المساجد الخفية، تنتشر حول السوق التجاري ولا يمكن السيطرة عليها لأنها تعمل تحت الأرض، في أسفل المباني وجراجات السيارات وفي الأحياء الفقيرة المقامة حول المدن الكبرى".

إضافة إلى هذا، فإن نقص المدارس الحكومية وانهيار نظامها التعليمي أدى إلى هروب الأطفال والمراهقين إلى المدارس القرآنية التي لا تخضع لأي نوع من أنواع الرقابة الحكومية، فيما كان الإسلاميون في الجامعات يجبرون الطلاب "الماركسيين" و"الكفرة" أو "أعضاء الحزب الفرنسي" على ترك أماكن تجمعاتهم أو أنشطتهم الطلابية. أما التجمعات والاحتفالات المختلطة بين الطلاب والطالبات فهي ممنوعة، واشتداد الضغوط على الفتيات لتغطية شعورهن، وبدأت اللحى التقليدية والقميص تكتسب كل يوم مؤيدين جددا لها. ووصل الأمر إلى حد أنه في خريف عام ١٩٩٠، حدث في مدينة وهران التي تعتبر من المدن "المتحررة" أن أصدرت بلدية المدينة تحت ضغط جبهة الإنقاذ أمرا تحرم فيه إقامة حفلات عامة لموسيقى "الراي"، وأصبح على النساء الذهاب إلى دور السينما في الأيام المخصصة "للعائلات" فقط، ومحرم عليهن الظهور في الشوارع بعد غياب الشمس. إن مقارنة الوضع مع ما هو قائم في تونس والمغرب يمكن أن يشير إلى أي مدى وصل التطرف في الجزائر.

إن الجهاد أو الحرب المقدسة ضد "القيادات الفاسدة" و"المثقفين المتفرنسين"، هي أكثر الأدوات فعالية التي يحرك بها الإسلاميون الجماهير، إن ملايين العاطلين والمهمشين من قبل النظام القائم والمتقززين من الرفاهية التي تستعرضها الطبقة الحاكمة، لا يجدون معينا لهم في مواجهة كل هذا إلا في أمل مخلص. فتتحول الحركة الإسلامية إلى إشارات الهوية التي تضم كل المهمشين، وبذلك أمكن لجبهة الإنقاذ ألا تسير على هدى المثال الإيراني فقط، بل وأن تستفيد من المؤلفات السنية التي انتشرت في العصر الذهبي للإسلام، مثل مؤلفات زيد بن علي أو الجاحظ اللذان هاجما فساد وبذخ الخلفاء الأمويين والعباسيين. وتماما كشيوعيي العقود السابقة حصدت جبهة الإنقاذ ثمار الإحباطات الاجتماعية وتراكمات الشعور بالظلم الناتجة عن فشل المشروعات الاشتراكية وما تبعها من "انفتاح متوحش"، إلا أن العنف الجاري حاليا- سلاح الإرهاب الذي يعتبر جديدا على الإسلام وخارجا على رسالته، والذي لا يرحم حتى النساء البريئات- ليس نتيجة للخطاب الديني المتطرف، بل هو نتيجة تشبه ذلك الذي يحدث بين الكاثوليك الأيرلنديين، أي نتيجة للقمع الثقافي والسياسي. في الحقيقة فإن جبهة الإنقاذ تدعو إلى برنامج اجتماعي محافظ في ثوب من اللغة الدينية- الدفاع عن الملكية الخاصة في مواجهة الثورة الزراعية لفترة الستينات، مما جعلها تتمتع بدعم طبقة التجار والملاك الزراعيين- ويمكن للجماهير العريضة من الفقراء أن تستوعبه. وفي الأوضاع الحالية الناتجة

عن الانهيار الاجتماعي، فـإن أغلبيـة الشـعب الجزائـري تـرى أن الفسـاد والرشـوة أسـوا مـن العنف الأعمى للإرهابيين.

وتستخدم جبهة الإنقاذ "الشريعة" كسلاح من أجـل الوصـول إلـى السلطة، إلا أن دولـة إسلامية شبيهة بتلك التي قامت على أيام النبي (عليه الصلاة والسلام)، هل تعتبر مثـالا علـى المثالية المستحيلة كما يقول أعداؤها، أم أنها حل واقعي للمشاكل الساحقة للمجتمع؟. والسـؤال هو كيف يمكن إقامة جسر مأمون بين النص القرآني والأحاديث والسنة النبويـة للتوصـل إلـى قرار سياسي خالص؟. القرآن لا يؤيد بوضوح أي طريقة معينة للحكم، إذن لماذا ينعتوهم فـي أوروبا وفي دوائر المثقفين الجزائريين على أنهم "أصوليون" أو"متطرفون" أو 'شـموليون' أو 'مؤيدون لحكم رجال الدين"، إضافة إلى نعوت أخرى؟

إن الانتصار الذي حققته جبهة الإنقاذ في الانتخابات المحلية التي جرت في ١٢ يونيـو ١٩٩٠، التي كانت أول انتخابات تجري في الجزائر في إطار التعددية الحزبية التـي تضمنهـا دستور ١٩٨٩، هزت سلطة شاذلي بن جديد ورئيس حكومته مولـود حمـروش مـن أساسـهما، فقد استغلت الجبهـة انقسـام ومقاطعـــة المعارضـــة الديمقراطيـــة للانتخابـات (جبهـة القـوى الاشتراكية لآيت أحمد)، إضافة إلى انهيار الثقة العام في جبهة التحرير، حيث حصلت جبهـة الإنقاذ على مـا يزيـد عـن نصـف البلديـات -وسيطرت بذلـك علـى أغلبيـة المجـالس الشـعبية البلدية- وانتصرت في أكثر المـدن ذات الأهميـة المتوسطة ودعمت مراكزهـا فـي العواصـم الإقليمية مثل الجزائر ووهران وقسنطينة، وكمـا أعلـن أكثر المراقبين، فـإن هـذا التصويـت الجماعي لجبهة الإنقاذ (٥٩ في المئة) كان عبارة عن عقاب لجبهة التحرير أكثر منـه موافقـة على النظام الاجتماعي الذي تطرحه جبهة الإنقاذ. لأنه إذا كانت انتقـادات الإسـلاميين العنيفـة للفساد واستغلال الممتلكات العامة والمحاباة والقمع وتبذير الحـزب الأوحد والموالين لـه مـن العسكريين أصـاب كبـد الحقيقـة، فـإن طروحاتهـا لتحسين الأوضـاع وتغييرهـا كـانت مجـرد طروحات غامضة وغير واقعية، وتفتقر إلى الخـبرة فـي إدارة الشـؤون العامـة، أمـا وعودهـا بتوفير المساكن والعمل للجميع وبناء المدارس وتحديث الاقتصاد لم تأخذ في الاعتبـار الواقـع المعاش: فالدولة الجزائرية توجد في حالة إفلاس واعتماد على التمويل الخارجي. والفترة مـن ١٢ يونيو ١٩٩٠ إلى ٢٣ مايو ١٩٩١ -التاريخ الذي أعلن فيه عباسي مدني الإضراب العـام للمطالبة بإجراء انتخابات رئاسية- لم تقم سوى بتغييرات محـدودة فـي البلديـات التـي تسيطر عليها، هذه التغييرات تمثلت في إغلاق الحانات وإلغاء الحفلات الموسيقية، واستخدام العنـف

لفرض "العفة الأنثوية"، أو ضد إقامة أطباق استقبال الإرسال التليفزيوني التـي "تسمح بالتقـاط الأفلام العارية الغربية". منذ إعلان قيام جبهة الإنقـاذ وحتـى وقـوع أحداث يونيـو ١٩٩١، لا مدني ولا مجالس شورته قامت بإعداد برنامج سياسي-اجتماعي حقيقي، ولم تعقد حتى مجـرد مؤتمر لمناقشة هذا البرنامج. وعندما سـألوا مدنـي حـول هـذا الأمـر فـي حـوارات صحافيـة، اكتفـى بالإشـارة إلـى أن مجلـس الشـورى سـوف يعقـد اجتماعاتـه بعـد أن يتمكـن مـن تشـكيل الحكومة... (!)

إن معارضة جبهة الإنقاذ لانتخابات "مفتعلـة" قد يتحـول إلـى أعمـال شـغب يعيـد إلـى الأذهان أحداث أكتوبر عام ١٩٨٨: من زجاجات المولوتـوف الحارقـة وقنـابل الغـاز المسـيل للدموع، والحواجز. يمكن على بلحاج إمام مسجد باب الواد الذي يتمتع بشعبية كبيرة أن يدفـع إلى الشارع بعشرات الآلاف من المتظاهرين بجملة واحدة يقولها: "لا قانون ولا دستور! سوى كلمات الله! وكلمات الرسول!". وبينما تبدو السلطة عاجزة ومشلولة، فإن جبهـة الإنقـاذ تحتـل وسط العاصمة منتشية بنصرها. والشباب يشمله الضياع بعد غرق المشروع الاجتماعي لجبهة التحرير، ومن كان منهم يعتقد في أن له رسالة أو في رجولتـه المختلطـة بـروح الشـارع مـن التسكع وارتكاب الجرائم الصغيرة بالاشـتراك مـع أقرانـه مـن أبنـاء الحـي، أو القيـام بأعمـال حقيرة وأعمال التهريب، تحول بفضل دعوات الإسـلاميين إلـى مقـاتل فـي الجهـاد الجديـد. إن احتقار الضحايا وغرور الأقوياء ليس لهما سوى تفسير واحد: هو ضـعف وقلق الذيـن يعـانون بسبب الابتعاد عن الروح القرآنية الحقـة، نسـيان قواعـد توزيـع الـثروة العـادل بيـن الجميـع، وفقدان التقاليد الاجتماعية. والدستور ما هو إلا حيلة أخرى من تلك الحيل التي تحاول القـوى القامعة التخفي من ورائها، والإسلام ينصهر في الشورى وتطبيق الشريعة حرفيا. فـي الثـالث من يونيو، أطلقت قوات البوليس نيرانها ضد المتظاهرين في عنف، وألقت القبض على مدنـي وبلحاج وغيرهما من قيادة جبهة الإنقاذ، وبدأت في عمليات التفتيـش والقبـض الجمـاعي علـى الإسلاميين من خلال تمشيط الأحياء الشعبية التي تعتبر قواعدها الحقيقية.

وتطبيقا لسياسة "العصا والجزرة" قامت حكومـة "سيد أحمـد غزالـي"، بـالتعهد بـإجراء الانتخابات المحلية والعامة في مواعيدها المحددة سلفا، التـي كـان مـن المقرر إجراؤهـا فـي أكتوبر وسبتمبر، إلا أن العسكريين وحلفاءهم مـن العلمـانيين الديمقراطييـن المعـارضين لأي اتفاق مع الإسلاميين هاجموه واعتبروا وعده تنازلا، مما كان يعتبر خطأ في سلسـلة الأخطـاء التي أغرقت الجزائر في دوامة من العنف. ألم يكن من الأسهل إيقـاف الإجـراءات الانتخابيـة

في يونيو، تعللا بالشعب الذي قادته جبهة الإنقاذ بدلا من تركها تبدو كما لو كانت "شهيدة" الديمقراطية والمنتصرة فيما بعد في صناديق الانتخابات؟. لأن وجود الزعماء الإسلاميين في السجن ومحاكمتهم والحكم عليهم بعقوبات صارمة، ترك حكومة شاذلي بن جديد دون محاورين يتبادل معهم الأمور: وهنا لا يمكن تطبيق المثل الشعبي القائل "إذا مات الكلب انتهى السعار"، لأن قطع الرأس لا يعني موت الجسد، بل يحصل الجسد على حياة جديدة. لأن أفكار الإسلاميين منتشرة في كل أركان المجتمع، وتساعد على تنظيم الميليشيات السرية، وجعلت جبهة الإنقاذ تعمل كدولة داخل الدولة. وبدأت في خريف ١٩٩١ أول أعمال العنف للمجموعات المسلحة التي يبدو أن تدريبها تم على يد قدامى المحاربين في أفغانستان، وبدعم من جماعات التكفير والهجرة (المصرية)، حيث بدأت هجومها ضد معسكرات الجيش. وكان القادة العسكريون يتابعون تدهور الموقف وتردد شاذلي بن جديد بقلق، وتحولت الانقسامات في الوطن إلى انقسامات بين أفراد العائلة الواحدة: وكم من عائلة لها ابن أو اثنين في جبهة الإنقاذ، وآخر أو آخرين في الميليشيات، أو في الجيش. وشبح الحرب الأهلية الذي كان يحوم على المجتمع سرعان ما أخذ يظهر بوضوح حتى وقع المجتمع فريسة بين مخالبه.

وأكدت الدورة الأولى للانتخابات العامة في ديسمبر، ما كان يطمح إليه البعض وخوف البعض الآخر: فجبهة الإنقاذ حصلت على الأغلبية، والنتائج المتوقعة للإعادة كانت توحي بأنها سوف تحصل على أغلبية الثلثين في المجلس الوطني الشعبي، مما يمكنها من إجراء تغييرات على دستور ١٩٨٩، وتمكنها من الحصول على شرعية تطبيق الشريعة الإسلامية. إلا أن نصر جبهة الإنقاذ أثار مخاوف القوات المسلحة، والطبقة الحاكمة الجديدة التي خشيت على امتيازاتها من الضياع، وكان الجزء الأكبر من الأحزاب السياسية الأخرى والنقابات والمثقفين العلمانيين والجمعيات النسائية، تثيره هذه المخاوف أيضا، فما حدث في إيران كان لا يزال ماثلا في أذهان الجميع، وبعد أيام من الانتظار المتوتر، ظهر الرئيس شاذلي بن جديد أمام كاميرات التليفزيون يوم ١٢ يناير ١٩٩٢، ليعلن استقالته، في اليوم التالي تعلن الحكومة إلغاء نتائج الانتخابات العامة، وفشل التجربة الديمقراطية.

وتنسى الحكومات ووسائل الإعلام الغربية دروسها الأخلاقية والقانونية، واتهاماتها "العرب بعدم قدرتهم على تنظيم انتخابات حرة"، فتؤيد الانقلاب العسكري بإجماع كامل، متعللة بالتهديد الإسلامي الذي حاول الإعلام تغذيته خلال سنوات سابقة، ودفعت النظام الجزائري إلى القضاء على الديمقراطية تحت شعار الخطر المقبل، وصفق لتلك الخطوة كل

العلمانية والماركسيين وحتى الراديكاليين البربريين، الذين يمثلون "التجمع من اجل الثقافة والديمقراطية"، الذي يقوده سعيد سعدي: تحت شعار أنه لا يجب أن يتمتع الأعداء بالحرية!، إلا أن ردود الأفعال هذه كانت نابعة عن التحليلات العاطفية والخوف، وليس عن فهم متعقل وعميق للحركة الإسلامية وللأسباب التي أدت إلى ظهورها.

لاشك أن وصول جبهة الإنقاذ إلى الحكم كان يمثل تهديدا خطيرا للحريات التي تم الحصول عليها في أكتوبر ١٩٨٨ بعد نضال طويل، إلا أن الأوضاع التي كانت تحيط بلحظة وصولها إلى السلطة كان يمكن أن تحد من إمكانية تنفيذ برنامجها، لأنه كان عليها أن تواجه مشاكل لا يمكن تخطيها بسهولة، مثل مشكلة الديون الجزائرية واعتماد البلاد على مصادر التمويل الأوروبية واليابانية والمشاكل الاقتصادية الطاحنة. إضافة إلى مواجهة تحفظات الجيش، وأيضا نقص الخبرة الإدارية للحكومة والقرارات التي كان يجب أن تتخذها لصالح قواعدها الشعبية، كل هذا كان يمكنه أن يدفع بها إلى أزمة خطيرة، مما كان يمكن أن ينتج عنه زيادة حدة الكارثة، وكان فشل حكومة جبهة الإنقاذ في مواجهة تنفيذ وعودها الانتخابية باديا للعيان. إن أقل من سنة واحدة لحكومة محاصرة بالعداء كانت كافية لأن تفقد جبهة الإنقاذ لجزء كبير من مصداقيتها.

اللجوء إلى السيف كان علاجا أسوأ من المرض، لأن ثلاثين عاما من "اشتراكية" جبهة التحرير كانت كافية لأن تفقد الأفكار اليسارية مصداقيتها في عيون جماهير الشعب، وإلغاء الانتخابات التي أيدها "الديمقراطيون" بحماس أوضحت تقزم الصفوة التي دافعت عنها، وتماما كما في جميع الأحداث التاريخية، فإن هؤلاء كشفوا عن طبيعتهم في النفور من قرار شعب يعيش غائبا عن أفكارهم، وطريقتهم في الحياة، مما يشكك في إمكانية الاستماع إلى آرائهم وقدرتهم على رؤية الأشياء بوضوح، وفي الوقت نفسه فإن مواقف البعض مثل هؤلاء المغرورون في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا)، الذين أعلنوا موافقتهم من قبل على التعديلات التي أدخلها جوزيف بونابرت على نظام دستوري، أقامه دون دعم شعبي -مما يكشف عن جهلهم بالثقافة الشعبية- ذلك الشعب الذي أعلن عن رفضه للأفكار الأجنبية، إن الأمر لا يحتمل المرور عليه مرور الكرام دون فهمه.

وقام العسكريون الموالون لجبهة التحرير بمساعدة من الأحزاب العلمانية الصغيرة، بملء الفراغ السياسي متمسحين بالشرعية التاريخية بعد أن فقدوا الطريق الوحيد إلى الشرعية

-طريق صناديق الانتخاب-، وجاء مجلس الدولة الأعلى ليعرض الرئاسة على رمز كـان تـم دفنه من قبل: إنه "محمد بوضياف" زعيم حرب الاستقلال العجوز.

٤- من استشهاد بوضياف إلى معركة الجزائر الثانية.

عند تحليل المسيرة الانتخابية، نجد أن السلطة قطعت اتصالاتها مع محاوريها الحقيقيين، وأججت نيران العنف التي أخذت في الانتشار يوما بعد يوم، وحاولت أن تحاور مؤيديها وأن توحد صفوفها دون أن تأخذ في اعتبارها رأي الجماهير المؤيد للإسلاميين في ذلك الوقت، وانغلقت على نفسها في ما يشبه الرؤية السياسية الأحادية التي تقسم البلاد إلى واحد من اثنين: واقعية وجود حزب أغلبية لا يتمتع بوجود شرعي من ناحية ، ومن ناحية أخرى، الهيكل الشرعي المصطنع الفاقد لأي قاعدة حقيقية، ولم يكن استدعاء بوضياف سوى الطريق الوحيد للحفاظ على شرعية الإرث التاريخي للثورة، ومحاولة أخيرة لنشر غطاء من الشرف على عقود ثلاثة من الفساد والرشوة.

لذلك فإن عودته الضبابية أحيت الآمال بين الجماهير التي فقدت كل ثقتها في جبهة التحرير، وأفزعها نصر جبهة الإنقاذ، إلا أن المجلس الأعلى للدولة برئاسة بوضياف ولد ملطخا بأخطائه الأولى، التي حملها معه من أصوله المنتمية إلى جبهة التحرير، وكما وصفه فيما بعد الكاتب والمحامي أمام المحكمة العليا الجزائرية والمدافع المعروف عن حقوق الإنسان "بنور على يحيى"، عندما تساءل فيما نشره في صحيفة "لو موند": "بأي حق يمكن أن تتولى الحكم أقلية مولودة في أحضان نظام فاشل، وتدعمها أقلية تصف نفسها بأنها "ديمقراطية"، رغم فشلها في الانتخابات العامة؟ كيف يمكن لهذه الأقلية أن تفرض نفسها على الأغلبية الجزائرية الرافضة لها؟... فالديمقراطية ليست تعبيرا خاصا بالأقلية -هنا يحاول أن يذكر الجزائريين من ذوي الميول الأوروبية- التي تحاول احتلال الفراغ السياسي برغم الرفض القاطع لها من جانب الجماهير في صناديق الانتخابات"

هل كان يعرف بوضياف المصير الذي كان ينتظره عندما دعوه لتولي رئاسة المجلس الأعلى للدولة، بعد خمسة وعشرين عاما من المنفى في المغرب؟. إن تاريخه السياسي - سنوات من النضال السري والسجون الفرنسية، ثم دخوله القصير الأمد في حكومة بن خدة، ثم استقالته في أغسطس ١٩٦٢، وسجنه بعد عشرة أشهر، إلخ...- كل هذا يقدم صورة

واضحة من النضال المتكامل لرجل مبادئ يمكن مقارنته بشخصية "ميندز فرانس" السياسي الفرنسي (الذي وقع استقلال الهند الصينية عن فرنسا وكان مؤيدا لاستقلال تونس والجزائر رغم معارضة المتطرفين الفرنسيين). إن نظرة عامة على تصريحاته وتحذيراته للطبقة السياسية منذ إعلان الاستقلال إلى أن ألقى بن بيلا القبض عليه، يمكن أن تدل على وعيه الفريد ورؤيته الثاقبة: "إن الذين يتحدثون بخفة عن الإصلاح الزراعي والتصنيع والحزب الأوحد والمشروعات المدهشة ليسوا سوى ديماجوجيين وجهلة... إن الحديث عن الاشتراكية يتطلب مواجهة كل أخطار الطغيان، وكل أنواع العسكرة وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى تشويش العقول، إن تحييد الجماهير هو إعداد لإقامة نظام ديكتاتوري". خلال سنوات المنفى كان يتابع عن قرب تطور الحزب الأوحد ويشجب كل خطواته، وأبدى بعد نظر عندما انتقد مع الرؤساء السابقين فرحات عباس وبن خدة سيطرة بومدين السياسية، ورؤيته الخاصة باستقلال الصحراء الغربية. وخلال سنوات السبعينات شاء الحظ أن ألتقي به وأتعرف عليه عن قرب في الرباط، حيث استمعت إلى تحليلاته واهتماماته الثقافية الواضحة: كان تعلم اللغة الإسبانية أثناء وجوده في السجن، وتبادل أطراف الحديث معي حول عدد من الروايات الإسبانية الكلاسيكية والمعاصرة.

عندما تولى بوضياف الرئاسة كان يهدف إلى إنقاذ الجزائر من الهوة التي سقطت فيها، إلا أن الذين حملوه إلى مقعد الرئاسة على أكتافهم كانوا يهدفون إلى إنقاذ النظام المسئول عن الكارثة، فالحرب الأهلية كانت قد بدأت، كان الجانبان تواجها -ولا يزالا- في صراع مفتوح، لم يكن ينتمي هو إلى أي من الطرفين، كان مجهولا بالنسبة للأجيال الجديدة التي ولدت وتربت بعد الاستقلال، وكان يبدو في عيون الجميع كما لو كان شبحا عاد من الماضي، قليلون كانوا يشكون في صدق جهوده واستقامته: وحياته المثالية تدل على ذلك، لكن هل كان يعرف حقيقة أنه دخل إلى فم الذئب بإرادته؟. ربما استطاع تاريخ رئاسته أن يكتب بشكل موضوعي في يوم من الأيام، كانت خطواته الأولى تكشف عن شخصية تحاول التعرف على معالم الأرض التي تتحرك عليها، والتعرف على معالم الرمال المتحركة التي من المحتمل أن يقع في خطورة المراهنة عليها، واللجوء إلى مجموعة من المستشارين ينتمون إلى الجيل الثاني من الجزائريين المولودين في فرنسا، يؤكد عدم ثقته في الطبقة السياسية الجزائرية، إضافة إلى اهتمامه الواضح بتنظيف الإدارة وتوطيد دعائم ديمقراطية الدولة، إلا أن سياسته الهادفة إلى النضال ضد التطرف الإسلامي والمافيا السياسية-الرأسمالية في وقت واحد، كان

محكوما عليها بالفشل، ورغم أن بوضياف كان يمثل السلطة الشرعية -علينا أن نتذكر أنها شرعية مشكوك فيها- لأن السلطة الحقيقة لا تزال تتمثل في الجيش، فقد كان هامش مناوراته ضيقا إلى حد كبير، وعندما وجه جهوده نحو تنظيف الحياة العامة، لا شك في أن الكثيرين من تابعيه الذين خشوا على امتيازاتهم قرروا التخلص منه، ترى من الذي كان وراء عملية الاغتيال، هل كان بين حراسه الشخصيين متعاطفون مع الإسلاميين؟. وهو الرأي الرسمي حول الحادث الذي لم تصدقه الجماهير، فعملية الاغتيال كانت تحمل بصمات بعض أركان السلطة، ومخابراتها الموازية الرهيبة.

في نص رهيب نشرته "مديترانيار" في صيف ١٩٩٣، بعنوان "يوم موت الرئيس بوضياف"، يشير وزيره السابق "أكرم بلقائد"، إلى محركي عملية الاغتيال متسائلا: "من الذي يمتلك الشجاعة في يوم من الأيام لاتهام المسئولين الحقيقيين، وأولئك الذين اختطفوا حريتنا منذ الاستقلال وفرضوا علينا بالقوة نظاما تعليميا زائفا، والذين فرضوا علينا أن نحيا بعقلية شعب "يعتمد" على الآخرين؟. إن استشهاد بوضياف يعتبر صفحة من أكثر الصفحات إثارة للألم في تاريخ الجزائر المعاصر، وما قامت به العداءة "حسيبة بلمرقة" التي فازت بميدالية ذهبية في الألعاب الأولمبية في برشلونة، عندما أهدته انتصارها، يعتبر اعترافا بشخصيته من جيل لم يعرفه جيدا، لكنه يعي مدى التضحية التي قدمها الرئيس المغتال.

إن اغتيال رئيس المجلس الأعلى للدولة، وإحلال "علي كافي" محله لم يغير العناصر الأساسية في المسيرة السياسية، وإذا أردنا قول الحقيقة علينا أن نقول أنه زادها خطورة، لأن تعيين "بلعيد عبد السلام"، الذي يمثل الرأس الظاهر للطبقة السياسية-الرأسمالية لجبهة التحرير على رأس الحكومة، وتعيين الجنرال "خالد نزار"، الذي يؤيد الحرب المفتوحة ضد الإسلاميين وزيرا للدفاع، أديا إلى زيادة حدة الأزمة الاجتماعية والسياسية، حيث تحول هدف تنظيف الحياة العامة وإصلاح الاقتصاد المنهار الذي كان يرمي إليه الرئيس محمد بوضياف إلى الظل، ليحل محلهما مواجهة الإرهاب، ثم جاءت الأحكام التي قضت بحبس عباسي مدني وعلي بلحاج ١٢ سنة لكل منهما، لتحرم السلطة من إمكانية مناقشة الوضع معهما، وأدت هذه الأحكام أيضا إلى زيادة راديكالية جبهة الإنقاذ، وإلى تقسيم قواعدها إلى فصائل مثيرة للقلق، ثم جاءت عمليات القبض الجماعي على أعضاء الحركة الإسلامية أو المتعاطفين معها، واعتقالهم في سجون أقيمت في الصحراء، لتدفع إلى زيادة الإرهاب في المدن، وانتشار أعمال حرب العصابات الريفية، وتزايدت الأعمال المسلحة التي بدأت في خريف ١٩٩١

بشكل رهيب. وتضاعفت التهديدات وعمليات الاغتيال والحرائق و"قتل" العسكريين ورجال البوليس، ثم عادت الحركة الإسلامية المسلحة التي كونها الأخوة "بوعلي" في عهد شاذلي بن جديد على شاكلة التنظيم الأفغاني إلى الظهور تحت قيادة خلفائهم "شبوطي" و"ملياني"، ورغم الخلافات التي كانت بين الزعماء السلفيين في السجن أو في المنفى وبين الزعامة الجديدة في الجزائر التي نظمت الدعاية لانتخابات ديسمبر ١٩٩١، فإن جميعهم اتفقوا على دعم "الجناح العسكري" لجبهة الإنقاذ، وبالتالي فإن تفرق الحركة الذي تسببت فيه الانقسامات الداخلية ومناخ الكفاح السري، وحولتها إلى مجموعات متفرقة ومنتشرة، سلاحها يزداد ويتحسن مع مرور الأيام، وهذا السلاح لا يأتيها لا من السودان ولا من إيران، كما تحاول أن تصوره وسائل الإعلام الرسمية، بل يحصل المقاتلون الإسلاميون على سلاحهم من عمليات السطو على مخافر الشرطة والمعسكرات ومخازن التسليح، وكذلك من خلال الاستيلاء على أسلحة "المجاهدين" والفلاحين وسكان الجبال، إضافة إلى زيادة الهروب الفردي أو الجماعي للجنود -كما حدث في المدرسة العسكرية في شرشال- الذين أدوا إلى زيادة عدد أسلحة ورجال تلك الجماعات، وبينما ينتشر الجنود على كامل التراب الجزائري عدا الصحراء، فإن عمليات السطو المتكررة على البنوك ومكاتب البريد تغذي تمويل الحركة، وتسمح لها بتحسين بنيتها التحتية، ومن خلال الأنباء التي تنشرها الصحافة و"التليفون العربي"، يكتشف الجزائريون مبغوتين أنهم يعيشون في بلد في حالة حرب.

إن "لبننة" الوضع في الجزائر يكرر بخطوات سريعة سيمفونية سنوات النضال ضد السلطة الاستعمارية، وإزاء ما يقال عن "اعتدال" الحركة الإسلامية المسلحة التي تعلن أنها تقتل فقط ممثلي "السلطة الكافرة" والمتعاملين معها، فإن أعضاء حركة جديدة تدعى المجموعات الإسلامية المسلحة يطبقون الجهاد المتطرف ويفضلون اغتيال الصحافيين والكتاب والشعراء والمثقفين وزعيمات الحركة النسائية، ويتزعم هذه الحركة "موح ليفلي" (الذي استطاعت قوات الأمن القضاء عليه، واسم "موح" هو تصغير لاسم "محمد" على الطريقة الجزائرية). ثم من بعده "عبد القادر العيادة" (الذي ألقي القبض عليه في المغرب وتم تسليمه إلى السلطات الجزائرية). ثم جعفر "سيف الله" الأفغاني (الذي قتل في مواجهة مع البوليس حدثت قبل فترة قصيرة في أحد أحياء العاصمة). وتقول آخر المعلومات أن من يتزعمها الآن هو "سايح عطية"، وكانت المجموعات الإسلامية المسلحة اشتهرت بعد الإنذار الأخير الذي وجهته إلى الأجانب في نوفمبر ١٩٩٣، الذي تطالبهم فيه بمغادرة الجزائر، ثم

بقيامها باغتيال ٢٦ من الاجانب، إضافة إلى اغتيال بعض الائمة المعتدلين والنساء غير المحجبات. إن القضاء على "الحرام" في الحياة الاجتماعية والخاصة بكل الوسائل المتاحة، اتخذته الجماعة ذريعة لخرق كل القواعد الأساسية للتعايش بين المسلمين، واحترام المرأة والتعايش مع "الذميين" من المواطنين الذين ينتمون إلى ديانات أخرى، التي تعتبر من مبادئ الإسلام الحقيقية.

إن الواقع الإجرامي المدني والأخلاقي الذي يلف الجزائر، دخل مرحلة أكثر دموية، فالصراع بين الحركة الإسلامية المسلحة وبين المجموعات الإسلامية المسلحة، تسبب هو الآخر في العديد من القتلى، فيما تعلن المجموعات الإسلامية عن قتلها لسبعين من أعضاء الحركة الإسلامية، فإن المسئولية عن مقتل سبعة من الإرهابيين الذين تم العثور على جثثهم أثناء زيارتي للجزائر، تعلن بعض المصادر عن مسئولية الحركة الإسلامية عنها، في حين تلقي مصادر أخرى مسئولية قتلهم على عاتق جماعات مسلحة تابعة للبوليس.

في ظل هذا المناخ العدائي، وأعمال الجماعات المسلحة التي تشن هجومها في جميع الاتجاهات، فإن علي كافي والجنرال خالد نزار قررا توجيه جهودهما إلى القضاء على الحوار، وبدلا من السياسة القديمة التي كانت تعتمد استراتيجية "فرق تسد"، التي كانت تعمق الخلاف بين الجناحين العسكري والسياسي لجبهة الإنقاذ، قررا مواجهة الجميع بسياسة الهجوم الشامل، تحت شعار الاعتقاد الرسمي الذي يؤيده بعض الديمقراطيين، الذي يقول أن الإسلاميين عزلوا أنفسهم عن الجماهير، ويكفي تحجيمهم حتى يمكن إعادة النظام، دون أن يأخذا في الاعتبار أنه في أزمة مثل التي تعيشها الجزائر، فإن سلطة الأقوى ما هي إلا شيء ظاهري فقط، لأن القوة المادية لا تستطيع أن تفعل شيئا في مواجهة الأشباح، تلك الأشباح المتمثلة في رسالة الإيمان والعدالة التي تؤمن بها قواعد جبهة الإنقاذ.

بعد عملية إطلاق الرهائن الفرنسيين الثلاثة الذين اختطفتهم المجموعات الإسلامية المسلحة، قامت السلطات بعمليات تمشيط واسعة النطاق لكل الأحياء الشعبية في العاصمة، وتمت محاصرة أحياء بلكور وباب الواد والقصبة والقبة والحراش ليلا بالدبابات والعربات المصفحة، وبدأ الجنود الذين يرتدون ملابس القتال المرقطة ويحملون بين أيديهم أسلحة القتال الهجومية، يقودون المشتبه فيهم وأيديهم على رؤوسهم في المناطق المحيطة بمسجد كابول، وكانوا يهاجمون بيوت قدامي المحاربين في الخرب الأفغانية، وأجروا العديد من الانتقالات، واستمرت هذه العمليات طوال الخريف، حيث كان يقوم رجال "السلاحف المدرعة نينجا"،

تحت حماية ضخمة من طائرات الهليوكبتر والمصفحات، بتطويق هذه الأحياء واحدا بعد الآخر، من تجرينو إلى حي الكليتوس وبراقي وحي "مناخ فرنسا"، حيث كانوا يدخلون إلى مخابئ الإرهابيين ويستولون على الوثائق والكتيبات الدعائية السرية، ويحملونها في عرباتهم إلى المخافر البوليسية، أو معسكرات الجيش، فيما يتخبط التليفزيون وبعض وسائل الإعلام الأخرى في الإعلان عن "عمليات تنظيف"، أو 'إجراءات أمنية" أو 'تصحيح الأوضاع الأمنية"، أو القيام بعمليات ضد "المجرمين" و"المحركين لأعمال معادية للمجتمع". وكما يشير بعض الشهود على هذه العمليات، فيقولون إنها تشبه تلك التي كانت تجري أثناء حرب الاستقلال والتي كانت تعكسها البيانات الرسمية، إنها أشياء مرعبة. إن البلاد تشهد استعادة لمشاهد جرت قبل ثلاثين عاما ونيف، عندما كان رجال الجنرالات الفرنسيين ماسو وبيغارد يمشطون حي القصبة بحثا عن الإرهابيين والخارجين على النظام، ويا لها من سخرية تاريخية قاسية، أن يستخدم الإسلاميون ذات التكتيك الذي استخدمته جبهة التحرير في أزمنتها البطولية، وهناك شريط تليفزيوني فيما يبدو من صنع أحد رجال جبهة الإنقاذ، يصور مشاهد من عمليات التمشيط، إلا أن عنوانه يعتبر مدهشا، حيث يطلقون عليه ببساطة "معركة الجزائر الثانية".

٥- الرعب.

إن أول نظرة على الواقع تثير قلق المراقب. ففي الطائرة التي أقلتني إلى الجزائر، كانت المضيفات توزعن الصحافة اليومية المشحونة بأطباق دسمة من الأنباء، ومن أنباء "الإرهاب الذي يمتد عبر البلاد"، أقرأ في صحيفة "الوطن": حريق إجرامي أشعله حوالي ثلاثين شخصا من المسلحين والملثمين في جراج سيارات خاص بالمحال التجارية الجزائرية بمنطقة حسين داي. "ذبح" خمسة من رجال البوليس في قسنطينة. اغتيال اثنين من قدامى مجاهدي حرب الاستقلال يبلغان من العمر ٧٣ عاما، إضافة إلى اغتيال مواطن آخر في البليدة، اثنان من آباء رجال البوليس العسكري وأحد الفلاحين سقطوا ضحايا الإرهاب في الشلف وتلمسان. قتل مدير سجن الأغواط رميا بالرصاص في السوق. إصابة أحد مراسلي صحيفة "الجير روبيبليكان" (الجمهورية الجزائرية) بجراح خطيرة في "تيارت". واختطاف آخر في "بومرداس". عمل تخريبي وحريق في "بلعباس" و"غيليزن". إطلاق النيران الرشاشة على ضابط بالجيش على بعد أمتار من مطار الجزائر العاصمة. إن هذا الحدث الأخير الذي قام به أعضاء مركز مراقبة وتفتيش أقامه بعض الرجال المتخفين في ملابس عسكرية، أغرقني وأغرق القراء معي في بحر من الشكوك: كيف استطاع الإسلاميون القيام بتلك العملية في أكثر الطرق خضوعا للرقابة في البلاد؟. إن هناك فرضية يهمس بها أحدهم، إذ يؤكد أن الأكثر إثارة للقلق، أن هذه العملية قام بها رجال بوليس حقيقيون، وكل الصحافة تشير بأصابع الاتهام إلى غياب الدولة غير المفهوم، وافتقارها لأي استراتيجية واضحة، وسلبية الطبقة السياسية في مواجهة الجماعات المنتشرة في كل مكان، وتتوق إلى الاستيلاء على السلطة. إن "الاغتيالات وعمليات التخريب وجميع أعمال الاعتداء تتضاعف يوما بعد يوم، فتخلق بين الجماهير مناخا من القلق النفسي، كما يقول أحد كتاب الافتتاحيات في صحيفة "ليبرتي"، ("الحرية" التي تصدر باللغة الفرنسية): لم يعد الجزائريون بقادرين على مواصلة الحياة على إيقاع الإشاعات المثيرة، والإحساس بأنهم رهائن سحابة قاتمة لا يمكن مشاهدتها إلا بالموت أو التهديد.

ما أن وصلت إلى المطار، حتى أخبرني أحد العارفين بواقع البلاد بآخر الأحداث الجديدة: تم اغتيال مدير مدرسة الفنون الجميلة "أحمد الصلاح" وابنه "رابح"، وأثناء الطريق

الطريق من المطار إلى الفندق الذي قطعته في سيارة تابعة للسفارة الإسبانية، كنت أحاول أن أستعيد ذكريات زياراتي السابقة، فالحياة الجزائرية يبدو أنها تتابع مسيرتها ظاهريا، فالمرور لم يتحسن، والمساكن الشعبية لا تزال تبدو نائمة وقاتمة، والرجال المسلحون على شكل "السلاحف نينجا"، يشهرون أسلحتهم في مواجهة السيارات عند نقاط التفتيش والمراقبة، وعلى ممرات الإقلاع الجوية.

ربما مر خمسة عشر أو عشرون عاما على إقامتي في فندق "أليتي"، أو في فندق "الواحة" القريبان من المطار والكورنيش البحري، إلا أن الأوضاع السائدة اقتضت أن أقيم هذه المرة في فندق سان جورج القديم، الذي أعيدت تسميته باسم "فندق الجزاير"، والذي يقع على مشارف المرتفعات بين الحيدرة والمرداية، وأتأمل من الشرفة شواطئ الجزائر الجميلة، وأسقف المباني القرميدية الحديثة والفيلات الاستعمارية ذات الأسقف الضاربة إلى الاحمرار، والحدائق والسرو والحدائق العامة والمآذن وظلال أطباق الالتقاط التليفزيوني الرمادية، والسفن التي حطت مرساتها بانتظار تفريغ حمولتها، والحمامات المصطفة على حافة أحد البيوت القريبة، والتي يختلط هديلها بصدى هدير السيارات الذي لا ينقطع.

"آه.. الجزائر عاصمتي". إنها الأغنية الشابية التي أبدعها "عبد المجيد مسكود"، واستطاع "الشاب خالد" أن يطوعها لموسيقى "الراي"، إن هذه الأغنية تعكس مشاعر حنين المؤلف أمام التغييرات التي تعاني منها مدينته، إنها تشبه قصائد "فرانسوا فيلون"، إنها تخليد لما كان ولما لم يعد كما كان، ولما كان يمكن أن يكون ولما لم يكن ممكنا، ففي ساعات راحتي في الفندق، عندما كانت تخلو الشوارع من الناس لحظة غروب شمس رمضان، كنت أستمع إلى هذا الشريط بمشاعر مشتركة: "يا الجزائر يا العاصمة"

سوبة قيمتك عظيمة

حبك في قلبي ديما

إلى يوم الدين

فسدوك إلي ما لهم قيمة

وكيلهم المتين

فسدوا بلاد سيدي الثعالبي

عبد الرحمان يا حبابي

مدينة الشهيد الأبي

والأولياء الصالحين

حمر اللحية يا قرابي

وسيدي محمد بوقرين

قولولي يا سامعين ريحة البهجة وين؟

قولولي يا سامعين ريحة البهجة وين؟

يبحث عبد المجيد مسكود عن الذين سكونها بلا أمل في لقائهم، إنه لا يتعرف على أحد في الحراش، وأبناء حي حسين داي، والقبة ليسوا كما كانوا، و"الحما" يلتف بدماره، ولا أثر يدل على أبويه في حي بلكور المحبوب، وباب الواد والقصبة فقدا طعمهما، فالأحياء تتضاءل من الإهمال، وهجوم الغرباء، فالأعياد والتقاليد والمواكب والأغاني والموسيقى، والقصائد تئن مؤثرة في هذه الأزمنة الوحشية، التي فقدت تسامحها، كيف يمكنني أن أتذكر تلك الأيام فيما بعد، ومقام سيدي عبد الرحمن في أعلى حي القبة، وسيدي محمد حامي بلكور انتهكت حرمتهما، إن الغيرة العمياء لبعض المضللين أشعلت النار في مقاميهما، ولم يعد يتذكرهما إلا بعض المريدين القدامى، الذين لا زالوا يحافظون على التفافهم حول نور الروح الخلاقة.

مناخ الرهبة الذي تتحدث عنه الصحافة، ربما لم يكن مبالغا فيه وإن جزءا منه نتيجة إلحاحها عليه؟. كان الصحافيون ضحيته، فالحادث الذي تعرض له المحرر التليفزيوني "حسن بن عودة" في حي القصبة، بعد ساعات من حادث اغتيال مدير مدرسة الفنون الجميلة، أحيا الإشاعات والأحاديث المنذرة بالخطر، وحملت صحيفة "ليبرتي" عناوين مثل: "إلى متى سيظل حمام الدم والدموع؟". إن استراتيجية الرعب تستهدف في كل مرة أهدافا كبرى، وهي إجبار الجماهير في الولايات على التعاون تحت التهديد بالموت في تنظيم المناطق التي أطلق الإسلاميون عليها اسم "المناطق المحررة"، وربما كان يكشف عن سر عمليات التشويه التي تتعرض لها جثث الضحايا... فالإرهابيون يفرضون القانون ويقتلون من يريدون، وحيث يريدون، وعندما يريدون، وفي الوقت الحالي فإن الإحباط يمكن أن يتحول إلى شلل تام واستقالات، عندها تتحول الجزائر العاصمة إلى كابول والجزائر كلها إلى أفغانستان.

ذهبت في اليوم التالي برفقة مراسل صحيفة "البايس"، ومندوب لوكالة الأنباء الإسبانية "افي efe" لحضور جنازة أحمد الصلاح وابنه، حيث تجمع عدة مئات من الأشخاص في حديقة مدرسة الفنون الجميلة، وكان التجمع يضم أساتذة وصحافيين وفنانين وكتابا، اصطفوا ليتمكنوا من المرور أمام المشهد، كان السواد يخيم على المكان، وبعض النساء ينتحبن، أي

منطق من الضلال الذي كان الدافع وراء ارتكاب هذه الجريمة؟. وأي فائدة ترجى من قتل أشخاص أبرياء؟. كانت لجنة الطلاب المستقلة لمدرسة الفنون الجميلة تقوم بتوزيع مطبوعات تشجب "المذبحة"، و"البيان المرعب الذي بدأ باغتيال بوضياف". و"رصاصات المتطرفين القاتلة، وكذلك رصاصات المافيا السياسية-الرأسمالية". و"آه يا من أنتم في السماء تحركوا إننا على طريق الاندثار". وعند نقل الجسدين انطلقت الصرخات والعويل والتصفيق، وكانت الجموع تشهد إجراءات الدفن في مقابر "جريدي" وسط صمت كئيب، ورفضت أرملة القتيل أي خطب جنائزية، ولم يكن هناك سوى أحد الوزراء وقليل من ممثلي الأوساط السياسية يشهدون عملية الدفن، كما لو كانوا يؤكدون على عزلة المثقفين المحصورين بين نارين، وكما لاحظ الصحافيون فإن زيارة المكان صارت كثيرة، والمقابر أخذت تصطف حسب التواريخ كما يحدث في مدينة سراييفو. ترى لمن يكون القبر المقبل؟. ويبدو للعيان أن مساحة المقابر بدأت تضيق. ويتنبأ أحد أصدقاء الفقيد قائلا: "هل يأتي اليوم الذي لا نجد فيه مكانا لدفننا".

بدأت موجة الجرائم تضع نصب أعينها أهدافا محددة، وكما يعتقد البعض فإن الأمر متعلق باستراتيجية "بول بوتية" (نسبة إلى نظام بول بوت الكمبودي الذي حصد ملايين البشر في إطار عملية التنظيف التي استهدفها). وذلك للقضاء على المثقفين الذين حملوا إلى البلاد الفيروس الغربي، أم أن الأمر يتعلق ببرنامج للإبادة الانتقائية؟. فقائمة الذين تم اغتيالهم في الأشهر الأخيرة تدفع إلى التفكير في هذا، فكما سوف نرى فيما بعد فإن الضحايا يشملون جميع طبقات الشعب، والطلقات لا تنبع من جانب مجموعة واحدة.

قبيل ٢٦ مايو ١٩٩٣ -تاريخ اغتيال صديقي الكاتب الروائي "طاهر جعود" الذي لم يتم الكشف عن مرتكبيه حتى الآن، والذي شارك بدعوة مني في مؤتمر بمدريد حول الوضع في المغرب العربي- كانت هيئات التحرير في وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية تستقبل يوميا مكالمات هاتفية وخطابات تهديد، والتنفيذ كان يتم أحيانا "ذبحا"، واغتيال عدد من الكتاب والمحررين سرعان ما خلق نوعا من الرهبة النفسية، وخوفا على الحياة فإن أكثر الكتاب الذين واجهوا الإسلاميين -خاصة في الصحافة المكتوبة بالفرنسية- بدأوا في التوقيع بأسماء مستعارة، وبدأوا يغيرون مواعيد عملهم، ويحتاطون من الدخول والخروج إلى بيوتهم في ساعات محددة، ويغيرون من مساكنهم بقدر ما تحتمله أعصابهم فيقررون بعدها مغادرة المعركة وسلوك الطريق إلى المنفى. يقول لي أحد الذين بلغهم التهديد: "إن حياتنا تجري بين مشاهد الدفن ومشاهد توديع الزملاء في المطار".

في الخريف، ازدادت حدة الصراع المفتوح بين السلطة والإسلاميين، وازداد انتشار موجة الخوف واتسع نطاقها إلى طبقات جديدة، وبدأ الإنذار الذي وجهته المجموعات الإسلامية المسلحة إلى الأجانب غير المسلمين يتسبب في هروب جماعي، بعض السفارات والممثليات الدبلوماسية أغلقت أبوابها، وأخرى قللت من حجم موظفيها وأرسلت النساء والأطفال إلى بلادهم الأصلية، أو نقلت جزءا من مكاتبها إلى أماكن أكثر أمنا، وحولت مبانيها إلى مخابئ حقيقية، ورجال الأعمال الذين لم يغلقوا حوانيتهم هجروا فيلاتهم وشققهم ونقلوا سكنهم ومكاتبهم إلى الفنادق، وقرر الدبلوماسيون التقليل من ظهورهم خارج أماكنهم، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، ويقومون بجولاتهم تحت حراسة مشددة وفي عربات مدرعة، يتأسف أحد المراسلين الصحافيين القلائل الذين بقوا في البلاد بقوله: "إننا نعيش حالة تشبه السجن". أما الذين عاشوا في الجزائر لفترة طويلة وأحبوا أرضها ويعتقدون أنهم آمنون من الوباء يدفعون حياتهم ثمنا للخطأ في الحسابات، وذهب أحد أصحاب المكتبات المعروفين من أصل إسباني وزميل له يمتلك صالة عرض للفنون التشكيلية ضحية طلقات أطلقت عليهم من مسافة قريبة في أماكن عملهم بوسط المدينة، وفي الوقت الذي كان يتم فيه مؤتمر الحوار الوطني الفاشل وقبيل إبعاد علي كافي من رئاسة مجلس الدولة الأعلى، وتعيين "الأمين زروال" في رئاسة الجمهورية، كان يخيم إحساس بعدم الأمان والشعور بالإحباط على رؤوس الجماهير الخاضعة لعمليات التفتيش والرقابة المستمرة، والمرهوبة من ضربات الإسلاميين التي ازدادت حدتها ردا على جبروت قوات النظام، حيث كتب أحد الشهود: "لا أحد يستطيع التخلف بعد ساعات العمل، فالشوارع خالية دون حاجة إلى تطبيق حظر التجول، لأن الخوف كفيل بإخلائها، ويخيم الإحساس بالعزلة على جميع سكان هذه المدينة المزدحمة، ولا طائل من طلب النجدة إذا دعت الحاجة إلى ذلك، لأنه لن يستجيب أحد، فكم من طلب للمساعدة تحول إلى سبب للقيام بعمليات اغتيال... هل وصل عدد القتلى إلى ثلاثة آلاف؟. هناك من يشير إلى أنه لا بد من ضرب هذا الرقم في خمسة أضعافه، فكيف يمكن معرفة الرقم الحقيقي في ظل الرقابة على وسائل الإعلام؟.

طبقا لمعلومات حديثة. فإن أكثر من ألف من المثقفين الجزائريين طلبوا اللجوء السياسي إلى فرنسا، وأكثرهم من أساتذة الجامعات والأطباء والمحامين والصحافيين والكتاب الذي يكتبون باللغة الفرنسية، وتؤكد مراسلة "نيويورك تايمز" كريس هيدجز بأن إقامة دولة إسلامية في الجزائر سوف يدفع بنصف مليون مواطن إلى الهجرة، لكن ليس كل اللاجئين

ينتمون إلى الاتجاهات المطلوب القضاء عليها، أو من الهاربين من إرهاب المجموعات الإسلامية المسلحة، وجبهة الإنقاذ الإسلامية، فهناك العديد من عمليات القتل التي تقوم بها "فرق الموت" على شاكلة فرق الموت الكولومبية، وبلاد أميركا اللاتينية الأخرى التي تستخدم رصاص قوات الأمن، وتحول دون الوصول إلى أي طريقة للحل السياسي للأزمة، وهناك العديد من المحامين وأعضاء جماعة حقوق الإنسان الجزائرية تلقوا تهديدات بالقتل بعد قيامهم بالكشف عن عمليات التعذيب والقتل، التي تتم بعيدا عن عيون القضاء، والتي كشفت عنها جماعة حقوق الإنسان الدولية "امنستي انترناشيونال". وأعرف قضية بعضهم عن طريق مصدر موثوق فيه، حيث تم تنبيه أحدهم عن طريق أحد أقربائه بأن اسمه موضوع على قائمة الأشخاص المطلوب التخلص منهم، مما دفعه إلى اللحاق بأول طائرة متجهة إلى باريس.

إن المناخ السام الذي يتم استنشاقه في الجزائر، وعمليات المجموعات المسلحة المجهولة الهوية، التي تزرع الرعب بين المتعاطفين مع الإسلاميين، يعتبر شيئا مؤكدا وعاديا، فهناك منظمة خفية من الشبيبة الجزائرية الحرة تقسم على تطبيق قانون القصاص ضد الإرهابيين، وتؤيد قتل أهل وأقرباء أعضاء جبهة الإنقاذ الإسلامية. وطبقا لبلاغات معروفة فإن عددا من الأشخاص الملثمين ويرتدون ملابس التمويه العسكرية، هاجموا أثناء تطبيق حظر التجول عددا من بيوت المشتبه فيهم، وظهرت بعد ذلك جثثهم ملقاة في العراء في شوارع الحي، أو كما يشاع في الأوساط الصحافية يتم إخراجهم في أكياس من البلاستيك من المخابئ التي كان الفرنسيون أنشئوها قبل نصف قرن تحت مراكز التوقيف ليدفنوها سرا، وأثناء فترة وجودي في الجزائر، أشار أحد كتاب الافتتاحية الذي يتمتع بشجاعة نادرة، إلى هذه الممارسات وإلى الأيدي الخفية للمافيا السياسية-الرأسمالية "المهتمة بوجود حالة من القلاقل الدائمة في البلاد".

من يقتل من؟. إن الجنون الذي يلف الجزائريين يجعل من المستحيل الإجابة بوضوح على هذا السؤال. فإذا كانت اليد المجرمة معروفة في أكثر الأحيان، ففي أحيان أخرى لم ينقشع الشك بعد، واللجنة التي تحاول كشف الحقيقة وراء مقتل "طاهر جعود" لم تتمكن من التقدم خطوة واحدة، وأحد أعضائها الذي كان صديقا للقتيل، سقط مؤخرا برصاصات قاتلة فيما يتعرض باقي الأعضاء لتهديدات مستمرة، أما المذيع التليفزيوني الأكثر شعبية "عبد القادر حيرشي" الذي تم اغتياله في الأيام الأولى من شهر رمضان، وفي البداية تم اتهام

"المتطرفين" بقتله، تبين فيما بعد انه عضو في جبهـة الإنقاذ الإسـلامية، طبقـا لبيـان اصدرتـه الجبهة فيما بعد، ومنذ ذلك الوقت لم تحاول أي مجموعة أن تعلن مسئوليتها عن الجريمة.

إنه إرهاب المجموعة الإسلامية المسلحة والمجموعـات المسـلحة الأخـرى، هنـاك مـن يؤكد وجود أكثر من ٦٥٠ مجموعة مسلحة يبلغ أعضاء بعضهـا أكـثر مـن عشـرة أشـخاص، يمارسون في الفترة الأخيرة إرهابهم ليس فقط ضد النساء اللاتي لا جريرة لهن سوى أنهن أمهات أو زوجات لعسكريين أو لرجال البوليس، بل امتد هذا الإرهاب إلى أشـخاص متدينيـن يدافعـون عـن السـماحة والاعتـدال، فبينمـا تـم قتـل فتـاة ذات سـبعة عشـر ربيعـا بـبرود شـديد لرفضـها الحجـاب، فـإن الشـيخ "بـو سـلمان" كمـا يقـول "محفـوظ نحنـاح" زعيـم حـزب حمـاس الشرعي، دفع حياته ثمنا لرفضه الإفتاء بتحليل هذا النوع من الجرائم، وفـي الأشـهر الأربعـة عشرة الأخيرة قامت المجموعات الإسـلامية المسـلحة باغتيـال ثمانيـة مـن الأئمـة والمعلميـن بالمدارس القرآنية، وبعضهم جرى اغتياله داخل المسجد الذي يعمل فيه، وبعضهـم الآخـر تـم اغتياله أثناء خروجه بعد أداء الصلوات في شهر رمضان المعظم، كيف يمكن فهم هذا الجنون وتلك الأنشطة الإجرامية؟. فلا رجال الدين ولا أي دولة تحترم نفسـها يمكنهـا أن تسـكت عـن الوحشية التي تدفع الجزائر إلى الهاوية.

قبل أن أخلد إلى النوم في غرفتي بالفندق، أقلب صفحات الصحف اليومية، فأعثر على كلمات "سليمة غزالي" التي تؤكد المشاعر الجلية لكثير من الناس الذين أشاهدهم في الطريـق، وأعايشهم في الحياة: "إن هذه المقـبرة الكبـيرة المسـماة بـالجزائر، حيـث تـأخذنـا خطواتنـا مـن مقبرة مغلقة إلى أخرى مفتوحة، دفنا أولا الأفكـار والأحـلام والكلمـات، قبـل أن ندفـن أجسـاد الرجال والنساء والأطفال الذي عاشوا من أجل لا شيء، وماتوا في سبيل لا شيء".

٦- الأحاديث وأطباق التقاط القنوات الفضائية.

كيف يمكن تكوين فكرة متعقلة عن ما يحدث في الجزائر دون الاعتماد على معلومات الصحافة المحلية التي تسيطر عليها الرقابة، أو وكالات الأنباء والصحافة الأجنبية؟. لأن ما تنشره هذه أو تلك، يعتمد على معلومات صعب الحصول عليها، ولا تكشف حقيقة أحداث خطيرة بكل المقاييس؟. ومثال على ذلك: هنات مناطق كاملة من البلاد تقع خارج سيطرة الجيش؟. وهناك مئات القرى والمدن الصغيرة في أيدي الإسلاميين؟. وهناك عمليات "تطهير" ضخمة يتم القيام بها في الأوراس وقسنطينة يرافقها قصف مدفعي وجوي؟. وأكدت صحيفة "نيويورك تايمز" في عددها الصادر بتاريخ ٢٥ يناير الماضي، أن أعضاء القيادة العليا للجيش يعيشون في مخابئ، وينتقلون إلى اجتماعاتهم ومكاتبهم في طائرات الهليوكبتر؟. وطبقا لتأكيدات الصحيفة ذاتها هرب من الخدمة العسكرية حوالي ثمانية آلاف من المجندين بأسلحتهم؟. وأن أحياء كاملة في العاصمة مثل البليدة وما حولها، يهجرها أهلها عند غروب الشمس منذ أن بدأ الإسلاميون تطبيق قوانينهم؟. لو أدى اختفاء المواد الغذائية الأولية وزيادة الأسعار إلى تمرد الجماهير، هل تطلق قوات الأمن النار على المتظاهرين؟. وما مدى تسرب أعضاء جبهة الإنقاذ بين الضباط، وضباط الصف والجنود المتطوعين؟. إن السخرية السوداء لبعض المثقفين أطلقت نكتة تقول: "لدينا في الجزائر تبادل سياسي محكم، السلطة تحكم نهارا وجبهة الإنقاذ تبدأ حكمها في الليل".

إن الحاجة إلى الهروب من جنون الحصار، الذي يعيش فيه الأوروبيون والمثقفون المهددون تواجهه العديد من العقبات، ولتخطي هذه العقبات ألجأ إلى سائق ثقة مأمون وإلى كرم الأصدقاء الجزائريين من الكتاب الشباب، الذين يكتبون باللغة العربية، والذين عرضوا حمايتي في الأحياء الشعبية التي تعتبر من حصون الإسلاميين، والسؤال الذي كان يطرحه البعض قبل ثلاثة أشهر على "فران ساليس" عند خروجه من مكتبه الملاصق لمبنى البريد، وعودته إلى الفندق (أنظر صحيفة "البابيس" الصادرة في يوم ١٩٩٣/١٢/٢٥) "ألا تشعر بالخوف؟". لم يعد يطرحه أحد الآن، فالأمر أضبح لا يحتمل الحديث عن شيء يبدو واضحا

كشمس النهار، أما أنا فهل كانت ملابسي البسيطة ولحيتي النابتة، وفوق كل هذا الرفقة، توفر لي إمكانية التخفي، أم أن هذا كان مجرد تخيلاتي الخاصة؟. على أي حال، يبدو أنه لم ينتبه أحد إلى حضوري عديم الأهمية أثناء تجولاتي في أحياء القصبة، وباب الواد أو في حي بلكور ، وفي الواقع فإنني كنت أجهل أن أكون الأوروبي الوحيد الذي يتجول أو يسير بين العامة، دون أن يكتشف أحد هويته مثلي.

إن نزهة تحت أقواس الطريق البحري، الذي يطلقون عليه اسم "زيروت يوسف"، ثم إلى ميدان "بورسعيد"، ومن بعدهما "ارنستو تشي غيفارا"، أعادتني إلى المناخ الحضري، الذي لا زلت أحتفظ به في الذاكرة، كنت أشاهد بعض الموظفين بالملابس الكاملة وربطة العنق، وشباب بالجينز أو بملابس رياضية، وفتيات بشعرهن الطليق أو "المحتمي" بالحجاب المعقود أسفل الذقن، الذي يبدو أن الإسلاميين استوردوه خصيصا إلى الجزائر، أما مشاهدة الملتحين بالطاقية والقميص أو بالملابس البيضاء، فإنه أمر نادر، فمنذ سحب الشرعية من جبهة الإنقاذ وحملات الاعتقال البوليسية دفعت الكثيرين منهم، والمتعاطفين معهم إلى حلق لحاهم، وتحولوا لارتداء الملابس العادية، والأكثر مناسبة لهذه الأحياء، أما ميدان بورسعيد بمقاعده التي يجلس عليها كما هو معتاد بعض الذين يبحثون عن لقمة العيش والعاطلين والباحثين عن الراحة، فإنه يعتبر أيضا نقطة لقاء للنيجيريين والسنغاليين حديثي الوصول إلى المحطة القريبة، إن كثرة الفقراء والمتكورين والنائمين في الميدان يعتبرون من المستجدات على المكان، لأن جزائر الستينات الثورية كانت تتفاخر بأنها قضت على كل هذا، أما الآن فقد أصبح من المعتاد أن ترى من يخترق الشارع بين السيارات ليطلب نقودا من السائقين، تماما كما يحدث في مدريد أو لندن. أما ميدان الشهداء المتسع -الذي تم تجديد حدائقه وأكشاكه- لا يزال يحافظ على حيويته القديمة، يجلس في أحد أركانه عجوز يرتدي الطاقية وقميصا أبيض قصيرا يصل إلى منتصف الساق، ويقرأ بكل هدوء صحيفة "ليبرتي"، التي تعتبر الصحيفة المكتوبة بالفرنسية الأكثر معارضة للإسلاميين.

نقطع بالسيارة طريقا مشجرا يخترق الجزء الأسفل من حي باب الواد، ولا يزال حي "ذوي الأقدام السود" يجذب الغرباء ببيوته ونوافذه ذات الستائر النسيجية، والألوان المختلفة التي تعتبر طابع شرفاته، وضوضاء وصرخات أسواقه، أما ما يحتويه من أنشطة تجارية خفية، تلعب دور النشاط الرسمي المتدهور، يؤكد الحيوية والذكاء الدفاعي لقطاع من الجماهير التي أهملتها الدولة، كيف يمكنني بعد ذلك أن أزور حوانيت أحياء القصبة وبلكور،

التي تمتلئ بالبضائع المهربة رغم أن أسعارها تعتبر محرمة على الكثيرين، إن الطوابير الوحيدة تصطف للحصول على الزيت والحليب والبن، التي تعتبر أكثر المواد طلبا في شهر رمضان، ومنذ وصول "الأمين زروال" إلى السلطة، اختفى رجال البوليس والجيش، فطوال جولاتي في المناطق الموصوفة بأنها متأزمة لم أعثر في طريقي على أية دورية أو رجل بوليس مسلح، ترى هل هذا دليل على الثقة أم أنه نوع من الانسحاب، هل هذا إعلان عن القوة أم عن الضعف؟. أيا كان الهدف من ذلك، فإن غياب البوليس والجيش يترك انطباعا بالهدوء المشوب بالحذر، ويقلل من التوتر في الشوارع المزدحمة التي لا تزال تحمل آثار طلقات رصاص المواجهات الحديثة والقديمة.

كيف يمكن التوفيق بين رؤية نشاط السوق الرمضاني وحديث النمل البشري، وبين أحداث أكتوبر عام ١٩٨٨، وصور الشباب الثائر الذي يواجه قوات الأمن في مايو ١٩٩١، تنفيذا لأوامر زعمائه الدينيين؟. وإلقاء نظرة على المسجد غير المكتمل الذي يبدو في حالة اكتمال، حيث كان يلقي علي بلحاج -الإمام المفضل لدى شباب شوارع حي باب الواد- مواعظه، ثم نواصل الطريق هبوطا من خلال شارع الكولونيل لطفي، الذي يقع في قلب الحي.

في أول خروج لي برفقة المراسل الجزائري لوكالة الأنباء الإسبانية (efe) زرت مقام سيدي عبد الرحمن المهدم، وكما تعودت دائما سعيت إلى وضع شمعة في مقامه، ثم قطعت حي القبة عبر شارع عبد الرحمن عرباجي حتى وصلت إلى المعبد اليهودي القديم الذي تم تحويله إلى مسجد، بعدها أقطع -متابعا دليلي دائما- شارعا متدرجا يوصلني إلى "المرزقي بوزرينا" الذي يعتبر أكثر الشوارع اتساعا، أكتشف بفرح مسجد "كتشاوا" الذي ينتمي إلى عهد البايات، الذي حوله الفرنسيون إلى كنيسة كاثوليكية ثم حولوه إلى كاتدرائية، ثم أعيد إلى أصله ليكون مسجدا جامعا بعد الاستقلال، إلى أن تحول عند المصلين فجأة، إن معماره الهجين يعكس تقلبات التاريخ، ويدفع إلى التأمل المتأني، لكنني أعود إلى قسوة الزمن الحاضر، عندما يشير مرافقي إلى المكان الذي سقط فيه مصابا بجراح خطرة قبل أربع وعشرين ساعة، المذيع التليفزيوني "حسن بن عودة". فالجولة في أحياء باب الواد والقصبة ليست من الجولات السياحية، وبينما أكتب هذه السطور كان الراديو يعلن اغتيال أحد محرري صحيفة "المجاهد" الرسمية، في واحد من شوارع حي باب الواد.

عدت برفقة ثلاثة من الكتاب الشبان لاتجول في المناطق التي كنت تجولت فيها بهدوء قبل أكثر من عشرين عاما، والموبوءة الآن بأعضاء جبهة الإنقاذ، إن حي القبة الذي يعتبر "قطعة نادرة من المعمار المدني"، من أعمال "كوربوزير" لا يزال يحتفظ بجماله وجاذبيته، التي كان عليها قبل سنوات رغم خلوه من قنوات الصرف الصحي المناسبة، ومبانيه الآيلة للسقوط، والتكدس البشري الخانق. إن الإحساس بأن الإنسان يضيع بين شوارع مدينة تركية قديمة، أو صعود المرتفعات غير المنتظمة والشرفات الجميلة التي تنشر النساء عليها غسيلها، أو تقليد الصاعدين والهابطين على السلالم شديدة الانحدار، سوف يكون أجمل ذكريات زيارتي إلى الجزائر، وما أن انقشعت الرؤية الأولى التي أشعرتني كما لو كنت في مدن فاس أو طنجة، حتى بدأت الأزمة العامة للبلاد تطفو كبقع زيتية على سطح الماء، فالأشغال الحرفية وأكثر الصناعات الوطنية اختفت، وأصبحت الجماهير تكفي حاجاتها من بقايا الصناعات الأوروبية، وترتدي ملابسها من تلك المصنوعة في كوريا والصين أو تايوان، والقاذورات والبقايا تتراكم تحت أقدام الأشجار وبين أنابيب الصرف المحطمة، والصبيان يلعبون في مساحات غير صحية، هربا من المساكن الخانقة، أن الصورة لا تختلف كثيرا عن مدن أخرى عربية أو غير عربية، لكن الوضع هنا يجمع بين إهمال الدولة وفوضوية السكان بشكل يفسر نجاح الإسلاميين، فكل شيء يتم تنظيمه في دوائر مستقلة ومن خلف ظهر السلطات العامة، فمنذ الزلزال الذي هز أساسات العديد من المباني في حي القصبة، والجبهة الإسلامية تنظم في العلن أو في السر المساعدات الاجتماعية، ودون أن أحذر فإنني أتساءل: هل يوجد أيضا بوليس مواز ليغطي غياب البوليس الرسمي منذ حملات الاعتقال الليلية في العام الماضي؟. لا أحد يريد أو يعرف أو يستطيع أن يجيب على هذا السؤال، فكما في حي القبة أو في حي الحراش حيث تمثال الأمير عبد القادر –رمز بطولة المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي– الذي تمت إزالته من الحديقة العامة، دون أن تحرك سلطات البلدية المحلية ساكنا، إن مبادرات السلطة الخفية تزداد، والشعارات الأخلاقية لجبهة الإنقاذ تزين الحوائط الشعبية وضواحي العاصمة، ولم يتحرك حتى الآن أي مسئول لإزالتها.

إلا أن برنامج المجموعات المتطرفة الرامية إلى إعادة المجتمع إلى حظيرة الإسلام، والخاصة بأطباق الاستقبال التليفزيوني الفضائية باءت بالفشل، حتى في المناطق الفقيرة من حي القصبة، حيث تكثر المباني التي تمتلك تلك الأطباق، والتي يمتلكها الناس سواء عن طريق المشاركة فيما بينهم، أو عن طريق توصيلات ذكية، أو توصيلات غير قانونية من

أقرب طبق فضائي، لأنها الطريق الوحيد للتسلية ونسيان حياتهم البائسة التي تجري بلا أمل في المستقبل، فالسكان يسرقون صورا خادعة ومخدرة عن العري الاستهلاكي الأوروبي الموهوم، من تلك السوق الكبيرة من السلاسل المليئة بالجنس والعنف، وحي القصبة ليس الوحيد، حيث يتكرر الوضع في أحياء باب الواد وبلكور والحراش وسلامبير ومناخ فرنسا (كليمات دي فرانس) -حي المساكن المدعومة من قبل فرديناند بولون، والذي يطلق عليه سكانه اليوم اسما مستعارا من فرنسية اسم مناخ فرنسا، فيقولون "كليمات دي سوفرانس" أي المعاناة من فرنسا أو "سوبفرانس" أي الخاضع لفرنسا- رغم حملات جبهة الإنقاذ ضد الأفلام الخليعة وقمامة القنوات التليفزيونية "تي. في. ٥" و"قناة +" الفرنسية فإن الأطباق الفضائية انتشرت بنفس السرعة التي انتشرت بها المساجد، وتخريب هذه الأطباق لا يرتجى منه أي جدوى، فما أن ينتهي تدخل أعضاء الحملات، حتى يقوم السكان بتوصيلات جديدة، فالأحاديث لا تستطيع أن تواجه الأطباق الفضائية، وفي أحيان كثيرة فإن الشباب الذين يطالبون بإقامة الدولة الإسلامية بحماس، ويطالبون بتطبيق الشريعة بحذافيرها، يطفئون نيران قلقهم ويخففون من إحباطاتهم باللجوء إلى العالم المشوش البعيد المنال، الذي يرقد في الشاطئ الآخر للبحر المتوسط، إن الخلل العصبي الذي تعاني منه الجزائر يأتي نتيجة مجموعة من التناقضات غير الصحية: فأولئك الذين يعبرون عن احتقارهم للغرب الفاسد والمعتدي، يستغلون أول فرصة تلوح لهم للهجرة إلى فرنسا، إلا أن انفصامهم يجعلهم يرددون دون وعي، ما كان يردده زعماؤهم في جبهة التحرير، الذين كانوا يهاجمون الاستعمار الفرنسي في خطبهم، ثم يذهبون إلى باريس لقضاء نهاية الأسبوع، للتمتع بفنادقها والشراء من حوانيت الإليزيه الفاخرة.

هناك نوعان من الجزائر يفصلهما حاجز اللغة، جزائر متخلفة وتقليدية وعربية اللسان، والأخرى فرنسية اللسان ومنفتحة وحديثة (؟!). إن هذه الطريقة في عرض الأشياء من جانب بعض "الديمقراطيين"، أو من جانب المتحدثين باسم ما يسمى "الحزب الفرنسي"، تلقي عليها شيئا من الغموض بدلا من توضيحها، صحيح أنه أثناء حكم بن بيللا وبومدين كان عربيو اللسان يشعرون برفض الإدارة لهم، وكذلك الشركات التي تنتمي إليها المافيا السياسية-المالية التي كانت توسع من ثرائها الكبير، فقد كان التحديث الاشتراكي يحتقر الأئمة ومدرسي اللغة العربية، أو يعاملهم بفوقية شبيهة بتلك التي كان يعاملهم بها الاستعمار، وكانت اللغة الفرنسية -ولا زالت وإن كان بدرجة اقل- لغة الحكومة والصناعة والتجارة والخاصة

السياسية، التي كانت ولا تزال تدير شؤون البلاد، أما حملات التعريب المفروضة في سنوات السبعينات وفي عهد شاذلي بن جديد لم تأت نتائجها المرجوة، وعلى العكس تماما فقد قادت إلى الفشل المدرسي، وأدت إلى الحط من قدر المدرسة الحكومية، وتسببت في هروب سيل من الراسبين في الامتحانات وأشباه الأميين إلى المدارس القرآنية والمساجد، أما الهامش بين لغة الشعب المنطوقة -أترك لغة البربر ومشكلتهم إلى فرصة أخرى- والعربية الرسمية الحديثة، المنتشرة عبر الصحافة والتليفزيون يؤكد هذا الفشل، لأن هذه اللغة الإعلامية المحيدة أو الممسوخة لاستخدامها في النشرات الإخبارية المنطوقة أو المكتوبة والمكررة يوما بعد يوم إلى حد الغثيان، كانت تشجع على رفض المستمع وتصيب القراء بالضجر، نتيجة مللهم من الجمل المصطنعة والتي ليس لها أية علاقة باللغة الأم ،التي يعبرون من خلالها، ونتيجة لحملة التعريب المفروضة وسيئة التطبيق، فإن خريجي الثانوية القادرين على التعبير الصحيح بالعربية أو الفرنسية تناقص بشكل كبير، وانخفض مستوى التعليم، أما النتائج المتواضعة للتعريب فلم تكن كافية لتعويض فقدان ما قبله، وكان اتهام الناطقون بالفرنسية الأئمة ومدرسي العربية القادمين من الشرق الأوسط بالتقصير معروفا، ثم كان أن استغلوا الانفتاح السياسي الذي حدث بعد أحداث أكتوبر عام ١٩٨٨ للتخلص منهم، وطبقا لما ذكره "طاهر جعوط" فإن المواجهة بين اللغتين في سوق العمل أسفر عن انتصار الفرنسية، فطبعات الصحف الناطقة بها تضاعفت عن طبعات الصحف الناطقة باللغة الوطنية، في الواقع كان نصر اللغة الفرنسية وقتيا ويقتصر على طبقة محددة، وهي المجموعات الاجتماعية المستفيدة من ثلاثة عقود من سيطرة الحزب الأوحد والأقليات السياسية والمثقفين العلمانيين، مثل فرحات عباس قبل أربعين عاما من قيام التعددية الحزبية والديمقراطية، وجاءت جهود كاتب عبقري مثل "كاتب ياسين" لتحريك اللغة الأم ونشر استخداماتها من خلال تقديم استعراضات مسرحية باللغة العربية المنطوقة، ولغة التعايش اليومي للشعب والمشاعر الموصوفة بلغة الاستخدام اليومي، لتفتح الطريق أمام أعمال انتقادية للكاتب سليمان بن عيسى، والإعداد الجيد للشفاهية في "الحلقة" التي قدمها المخرج الوهراني الذي اغتيل حديثا عبد القادر علولة، إلا أن تقوية العربية الدارجة بين ملايين الجزائريين غير البربر كان يواجه في وقت واحد، بإمكانية إثرائه اللغوي في مواجهة الطليعة المتفرنسة ورغبة الإسلاميين في تهدئة الأوضاع.

إن رأي بعض محدثي من الناطقين بالعربية حول الأوضاع الحالية وتطوراتها المحتملة، تتعارض مع تلك التي يمكن سماعها في فرنسا من أفواه الروائيين والمؤلفين

المستهدفين من قبل جبهة الإنقاذ، رغم أنهم جميعا يدينون أعمال العنف والتخويف التي يتعرض لها زملاؤهم، إلا أنهم يعتقدون كما قال لي أحدهم، أن أولئك يقتصر دورهم على "تعريف الفرنسيين عبر اللغة الفرنسية بما يحدث في الجزائر"، وحسب ما قاله لي أحد المتعاطفين مع جبهة الإنقاذ في باريس ، فإن اهتمامات هؤلاء بعيدة عن اهتمامات مواطنيهم: "الانقسام الذي يفرقنا جعلهم يشعرون فجأة أنهم غرباء في بلادهم، وهذا الاكتشاف بالإضافة إلى الخوف دفعهم إلى المنفى"، "ألم يحدث مثل هذا في روسيا عام ١٩١٩ وفي ألمانيا عام ١٩٣٣؟". "الجزائر ليست روسيا ولا ألمانيا، فما زلنا نناضل هنا ضد مخلفات الاستعمار". "وضد ألا تشكل النظريات الإرهابية والممارسات الرجعية جزءا من هذا النضال؟". محدثي لا يريد أن يلزم نفسه ويفضل أن يجد مبررا للأوضاع الحياتية للشعب الجزائري، وللعدوان الثقافي الذي يتعرض له مواطنوه، لم نتفق إلا على شيء واحد: "أن موت أحد شباب حي باب الواد أو بلكور العاطلين غيلة ليس أقل فظاعة ولا أقل رفضا من موت كاتب".

وعندما أقرأ في منشور سري أن "على أعضاء الحزب الفرنسي أن يتبعوا الطريق الذي سار عليه ذوي الأقدام السود، وأن يبحروا إلى وطنهم الحقيقي"، وهذا الحماس للتنظيف العرقي يعيد إلى ذاكرتي أزمنة مضت من تاريخ إسبانيا، فليست الجزائر وحدها الفريدة، بل كل البلاد المتوسطية تقريبا فريدة نتيجة للتزاوج والتقارب الثقافي؟. إنه الصراع بين رؤية قاصرة وراغبة في السيطرة ومحكوم عليها بالعزلة، وبين رؤية أخرى جمعية ومفتوحة على الحوار مثل التجربة الإسبانية والعربية، التي تبين أن انتصار الرؤية الأولى تعني الموت الثقافي وسيطرة العقم العقائدي، وكما يقول المؤرخ محمد حربي: "يجب أن نتعمق في تاريخنا بكل ما يحمل من تناقضات، بما فيها السنوات المئة والثلاثين من الوجود الفرنسي، لأن إعادة النظام إلى الأشياء في أساسها النقي ضرب من ضروب الأساطير".

ونحن من نعرف الحقيقة حول عمليات "التنظيف العرقي" في البوسنة، والدور الذي يلعبه الذين يحيون الأسطورة وأصحاب نظرية النقاء العرقي الصربيون لتدمير تراثهم الثقافي، وإحياء التاريخ لا نستطيع إلا أن نؤيد كلماته، فالجزائر ليست لها هوية من شكل واحد: كانت ثرية دائما ومتعددة، وسوف تظل وطنا لجميع أبنائها وإلا فإنها سوف تضيع بين رؤساء الطوائف والحرب الأهلية التي لا تنتهي.

٧- الأركان الأربعة.

رغم تحذير الجميع لي قررت أن أقضي بضع ساعات في البليدة قبيل مغادرتي للجزائر، فطبقا لصحف المعارضة الديمقراطية: "تقع المنطقة تحت السيطرة الكاملة للمتطرفين". وأن "جولة في البليدة تساوي الدخول إلى كابوس مزعج، لأن "مدينة الزهور"، لم تعد سوى ظلا لما كانت عليه، فالخوف والكآبة مرسومان على كل الوجوه" (صحيفة "الوطن" الصادرة بتاريخ ١٩٩٤/٣/٨)، وبرقيات أخرى لإحدى وكالات الأنباء تؤكد أن الطريق الذي يربط البليدة بمنطقة "الشريعة"، باتجاه الجبال يقع تحت سيطرة الإسلاميين، و"تفرض الجماعات المتطرفة سيطرتها على ضاحية "ولاد عايش" الصناعية، إلا أن الطريق الممتد على نحو خمسين كيلومترا من العاصمة يسير في هدوء تام، حيث لا يوجد عليه أي نوع من نقاط التفتيش البوليسية، يوجد فقط عند مدخل البليدة بالقرب من السوق، عربة مدرعة وعدد من الجنود المسلحين يراقبون مرور السيارات الهادئ، قطعت على أقدامي وبرفقة أصدقائي الطريق الرئيسي، الذي تمتد على جانبيه الفيلات الذابلة التي تعود إلى زمن الاحتلال، والتي تكاد تختنق الآن، وسرت في ميدان البلدية المحاط بالنخيل ويتوسطه كشك مركزي، وقطعت الشوارع المزدحمة بالضوضاء بمناسبة عيد الفطر، واقتراب نهاية صيام رمضان المعظم، والنساء اللاتي التقيتهن في طريقي كانت ثلاث منهن بلا حجاب، وكانت محلات التجميل والكوافير النسائية مغلقة، ولم تكن أكشاك بيع الصحف تعرض أية مطبوعة باللغة الفرنسية، ولم أشاهد أي حانوت لبيع أو تأجير أشرطة الفيديو، ولم أستطع التأكد من الدعاية التي تتحدث عن إغلاق حمامات النساء العامة(!). ولا مطالبة الحافلات العامة بالفصل بين الجنسين، وعرفت أن جماعات من المراهقين الذين جندتهم المجموعات الإسلامية المسلحة، تقوم منذ أسابيع "بمطالبة" السكان الاستغناء عن أجهزة التليفزيون والراديو، أو ينشرون الرعب في المدارس ليفرضوا الزي الإسلامي على المعلمات والطالبات، فالصحافة الجزائرية تتحدث عن ما لا يحصى من الاعتداءات واغتيالات نساء "متبرجات"، يرفضن ارتداء ملابس "المحسنات" المكونة من الملابس الكاسية والمنديل على الرأس، وفشلت جميع جهودي لمعرفة حقيقة هذه الأحداث، فلا أحد يثق في الغرباء في البليدة -أو في أي مكان آخر من الجزائر- خاصة الأجانب، لأن قانون الصمت يختم على جميع الشفاه.

يرجوني أحد المرافقين: "لا يمكن المكوث هنا لفترة طويلة، قد يصبح الأمر خطرا عليك".

آخذ بالنصيحة بإحساس الإحباط الناتج عن عدم الوصول إلى هدفي كاملا، وهو اكتشاف ذلك التوافق الغريب بين السلطة والإسلاميين في مناطق مختلفة من الجزائر، ورسم شكل اتفاق محتمل حول مفاوضات مقبلة، فقوات الجيش المنتشرة والمحصنة جيدا في البليدة ونقاط أخرى من "المتيجة"، تلتزم معسكراتها وتترك لجبهة الإنقاذ إدارة الشئون الاقتصادية والاجتماعية والدينية للمدينة، فبعد فشل حملات الاعتقال وسياسة القبضة الحديدية للجنرال خالد نزار -التي كان نتيجتها اكتشاف مدى السهولة التي كان يتمتع بها الإسلاميون في تجنيد أعضاء جدد من بين شباب العاطلين، بدلا من المقبوض عليهم- أما الرئيس الجديد "الأمين زروال" فإنه يفضل تهدئة الحال وإعداد الأرض لحوار وطني لا غنى عنه مع محاورين من جبهة الإنقاذ.

إن خطاب الرئيس الذي ألقاه يوم ٧ فبراير، كان في الحقيقة أول محاولة جادة للجلوس حول مائدة التفاوض لإنهاء الحرب الأهلية، التي تهدد بالقضاء على الجزائر، إن الاقتناع بأن "أزمة البلاد لها أشكال متعددة"، وأن الأزمة أزمة "مجتمع يتطلع إلى التغيير الجذري"، وأن هذا التغيير "يجب أن يعني انفصاما كاملا وشاملا تشارك فيه جميع طبقات المجتمع بقواها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية"، حتى يمكن الحصول على الشروط اللازمة للعودة إلى مسيرة الانتخابات التي يتمكن من خلالها الشعب من اختيار ممثليه بحرية، ودون تدخل أو ضغط من أي جانب، لكن هل يعني هذا عودة الأمور إلى النقطة التي انطلقت منها قبل انقلاب يناير ١٩٩٢، دون طلب تحديد لمسئولية الذين كانوا وراء هذا الانقلاب حسب مطالب جبهة الإنقاذ، أم فتح صفحة جديدة وحسابات جديدة، ونسيان الأخطاء التي ارتكبها الجانبان؟. على رغم أن الرئيس زروال لم يكن قاطعا في هذا الشأن، فإن برنامجه للحكم يشير إلى النقطة الثانية، على أي حال إن اقتناعه بأن سياسته ليست إلا الحفاظ على الأمن العام، لا يمكن أن تخرج البلاد من الورطة التي تتطلب البحث عن مخرج يعتمد على اتفاق جميع الأطراف "بلا استثناء لأحد"، كان زروال تحدث قبيل توليه الرئاسة بكلمات شبيهة بكلمات بوضياف، عن أهمية تنظيف الحياة العامة واستهجن "أيدلوجية العيش الإتكالية"، وأعمال الهدم التي تقوم بها "مجموعات الضغط في عدد من مناطق اتخاذ القرار في المجال الاقتصادي والإدارة والأماكن الحساسة الأخرى من الدولة". إن تطلعه إلى العمل الواضح ضد

العناصر المثيرة للمتاعب من المافيا السياسية والماليه، إضافة إلى اليد الممتدة إلى جبهة الإنقاذ كانت ترسم خطا فاصلا بينه وبين المجموعات المسلحة المتطرفة، تسمح برؤية بصيص أمل خافت، لنهاية محتملة للنفق المظلم.

لا شك في أن أمين زروال ينتمي إلى جانب من الجيش كان عمل طوال عقدين من الزمان من أجل تقدم وتحديث الجزائر، إلى أن اكتشف مع شاذلي بن جديد أن سيطرة جبهة التحرير على الحياة السياسية خلفت الفساد والمحاباة، واكتشف أن طبقة مسيطرة تمكنت من احتواء الدولة، أصابهما بالمرارة كما أصاب العديد من المنتمين إليها الذين أفنوا حياتهم في خدمة الثورة، ثم اتضحت أمامهم الكارثة، في الوقت الذي كان فيه بعض قادة الجيش قريبين من صناع القرار المالي واحتموا بامتيازاتها، ووافقوا دون أدنى تفكير على إصدار أوامر إطلاق النار على الجماهير في أكتوبر عام ١٩٨٨، هذا القرار أثار القادة والضباط الشرفاء - حتى لا نتحدث عن القوات التي اندفعت لقمع الأشقاء- مما دفعهم إلى إعادة النظر في دورهم في مواجهة الدولة ومجموع المجتمع، إن الانقسام بين المدافعين عن سحق جبهة الإنقاذ تماما -محتزين مثال زملاءهم في ايران بعد سقوط الشاه- والمؤيدين للحوار مع مدني وبلحاج أخذ يجد مكانا له في صفوف القادة العسكريين، الذين اتفقوا على وضع زروال في مقعد رئاسة الجمهورية، ورغم وجودهم في الصفوف الأولى بعد تحلل جبهة التحرير، فإن الصمت غير المفهوم لكل زعماء المعارضة الديمقراطية والجيش -وريث أولئك المقاتلين الذين حلموا بتصنيع الجزائر وتحسين أحوال الريف والقضاء على الأمية- فإنهم يعافون الاشتراك في انقلاب عسكري جديد، لأن تجارب بلاد أخرى كشفت عن أن إنزال الدبابات إلى الشوارع دون برنامج مقبول شعبيا وقابل للتطبيق، لا يحل المشاكل بل يزيدها تعقيدا.

إن التحليل الجيد للكاتب "نور الدين خلاصي "المنشور في الأسبوعية الجزائرية "لا ناسيون" بتاريخ ١٩٩٤/٣/٩، يلخص معركة الرئيس الجديد في خمس جبهات للمواجهة: إدارة الحوار الصعب مع جبهة الإنقاذ، ومواجهة تصعيد المجموعات المسلحة المتطرفة، والتوصل إلى اتفاق قابل للتطبيق مع صندوق النقد الدولي، وبناء قاعدة صلبة للحوار مع المعارضة الديمقراطية، ثم القضاء نهائيا على الممارسات الفاسدة لزمرة السيطرة الخفية، فاللعبة التي يواجهها زروال تذكرني بلعبة "الأركان الأربعة"، التي يخضع فيها الجميع لخطر البقاء خارج الحلبة ما لم يبد الجميع مهارة وسرعة فائقين، إلا أن الخطر الذي يحيط باللاعبين الجزائريين لا يأتي من سرعة ودهاء أعدائهم فقط، بل من الملعب ذاته، فكل طرف من

اللاعبين السياسيين يعاني من نتائج الضغوط والصراعات الداخلية، وهو انعكاس للاتجاهات الطاردة للبناء القبلي القديم في البلاد، والذي كان يبدو واضحا سواء في نضال الأمير عبد القادر ضد الغزو الفرنسي، تماما كما كان واضحا في انقسام ومواجهات الولايات في حرب التحرير.

أول مشكلة أمام الرئيس الجديد هي انقسام الآراء في الجيش الذي وضعه على قمة السلطة، طبقا لمصادر موثوق بها، فإن القواعد الأساسية للجيش وقياداته الصغيرة تعكس جميع تيارات المجتمع، من أول المتعاطفين مع الإسلاميين إلى المؤيدين للنظام العسكري العلماني الشبيه بنظام "أتاتورك" في تركيا قبل سبعين عاما، إلا أنه لا شك في أن برنامج حكم الأمين زروال يواجه عقبة سلطة الجنرالات الذين عينوه، فأسئلة الصحافة -هل أيدي الرئيس طليقة أم يجب أن يعتمد على دعم الحكام الحقيقيين الذين يقفون من ورائه؟- هذا السؤال لم يجد حتى الآن إجابة واضحة، فطبقا لملاحظات معلق صحيفة "لو ماتان": أنه "إذا لم يصل زروال إلى تحييد علاقات القوى (الجيش) لصالحه، فإن مهمته في دفع حل سياسي يعتمد على الحوار مع جبهة الإنقاذ سوف يتطور بتطور تلك العلاقات". إذا كان الهدف والاستراتيجية واضحان فإن إمكانيات تطبيقهما ليسا كذلك، وكل يوم يمر، فإن مرارة حصاد الموت يقلل من مصداقيته ومن أمل الذين يريدون الخروج النهائي من هذا الكابوس.

إطلاق سراح اثنين من زعماء الإسلاميين كتعبير عن حسن النية لا يكفي، فالحوار دون استثناء جبهة الإنقاذ يجب أن يتم مع مدني وبلحاج، وهذا يتطلب خروجهما العاجل من السجن وإتاحة إمكانية عقد "مجلس الشورى" قبل بدء مسيرة الحوار، إن العودة إلى الوضع السابق على يونيو ١٩٩١، سوف يتم في أوضاع صعبة، لأن الإرهاب والقمع والدم المراق في جانب أو آخر، خلق جراحا مفتوحة من الصعب شفاؤها، فمن ناحية، فإن جبهة الإنقاذ بسبب تحييد قياداتها -بالسجن أو العمل السري أو المنفى- تحولت إلى مجموعات وقوى مسلحة متفرقة، تحاول العمل باسم المبادئ والتقاليد الإسلامية، لكنها منقسمة على نفسها بسبب عنف الخلافات الشخصية والسياسية، فالمجموعات الإسلامية المسلحة تتهم الزعماء التاريخيين بالانتهازية والخيانة والتقليل من شأن تطبيق برنامج الشريعة كاملا، في الوقت نفسه فإن خوف الكثيرين من العسكريين -ويشاركهم في ذلك "التجمع من أجل الديمقراطية والثقافة" بزعامة سعيد سعدي والشيوعيين السابقين- من أن يكون إطلاق سراح عباسي مدني الخطوة الأولى نحو وصوله إلى رئاسة الدولة خلال فترة قصيرة نسبيا، مما يعتبر تهديدا

يعتبر تهديدا لمسيرة الحوار الهشة، ومشاركة الحركات الإسلامية الشـرعيه فـي هـده المسيرة مثل "النهضة" و"حماس"، يسهل الحوار وجعلهما بمثابة العناصر المتعقلة والمعتدلة.

أما الأحزاب السياسية العلمانية فهي مثال على الخرس والشلل والانقسام المثير للقلـق، فبينما يتسارع تحلل جبهة التحرير خاصة بعد انفصال الاتحاد العام للعمال الجزائريين عنها، فإن جبهة القوات الإشتراكية التي تعتبر القوى الرئيسية في المعارضة، تلتزم صمتا غير مفهوم في مواجهة موجات اغتيال المثقفين، ففي تصريحات لصحيفة إسبانية يبرر الزعيم التاريخي العجوز "آيت أحمد"، بأن منفاه الجديد في أوروبا يعود إلى خوفه من أن يلقى نفس مصير "بوضياف"، حيث يقول: أنه "لا يريد أن يكون الثاني في القائمة"، لكن ماذا عن قواعده؟. هل يملكون نفس إمكانية اللجوء إلى فرنسا أو سويسرا؟، إن صمت وسكون تلك القوى-ماذا يفعل أو يقول بن بيللا في هذه الساعات الحرجة؟- باستثناء وجود سعيد سعدي وحزب الاتحاد بزعامة هاشمي الشريف على الساحة في هذه الساعات الدرامية في الحياة الثقافية الجزائرية، يمكن أن تدفع تلك القوى ثمن الاتفاق الوشيك بين السلطة وجبهة الإنقاذ، فتظاهرة النساء أمام مدخل سينما "ابن خلدون" يوم ٨ مارس، بمناسبة اليوم العالمي للمرأة، لم تدعمها هذه الأحزاب، وطبقا لما نشرته الصحافة فإن مسيرة إدانة الإرهاب و"الحوار مع القتلة"، لم تجد دعما يذكر من تلك الأحزاب أيضا، هذا الفشل في تشكيل جبهة قوية والرفض القاطع لأي حوار مع الحزب الأكثر حصولا على الأصوات في الانتخابات يعكسان الرؤية القاصرة للواقع الجزائري، لأن استثناء جبهة الإنقاذ من مشروع هذه الأحزاب الاجتماعية ليس ديمقراطيا ولا مقبولا، لأن الديمقراطية لا يمكن أن تعمل تحت ظلال الدبابات، كما لو كانت قلاعا معزولة، والوقت الذي يمر في صالح إقامة نظام على نسق نظام أتاتورك، إن حوارا ثابتا بين الجيش بكل ما يملك من أدوات لا يعتبر تسليما، والتأييد الشعبي لجبهة الإنقاذ كبديل لا يمكن اعتباره أبدا لطخة في وجوده على رأس السلطة، لأن قمعها يمكن أن يؤدي على العكس إلى توظيفها للاستشهاد ويخلق منها أسطورة منقذة، بل يجب إجبار جبهة الإنقاذ على الدخول إلى نار التجربة وتركها تدير الأزمة الاقتصادية المعقدة يجعلها تهبط من أبراجها العاجية التي تعظ من خلالها، الوقت متأخر ولكن هناك متسع منه، لأن السماح للرعب والعنف المتطرف بالانتصار ولو نظريا لن يساعدها في أي الأحوال أن تقنع الرافضين، لأن انتخابات حرة بعيدة عن أي ضغوط أو تزييف كالتي يعد بها زروال، تجعل هناك من الأسباب ما يؤيد أن عدد ناخبي جبهة الإنقاذ سوف ينخفض عدديا، عما كان عليه قبل ثلاث سنوات،

لأن كثيرين من الجزائريين لم يعودوا يحتملون التطرف ولا الأشكال الإرهابية في تطبيق العدالة.

يبقى اللاعب الرابع والأكثر زئبقية، وأقصد هنا المافيا السياسية والمالية، رغم تهميشها بعد أحداث السنوات الأخيرة، إلا أنها سوف تعود إلى الظهور دائما كما لو كانت الحية ذات الرؤوس السبعة، ولم يتمكن أي "هرقل" حتى الآن من قطع أي من رؤوسها، وهدفها هو خصخصة الصناعة الجزائرية والاستيلاء على الشركات العامة الخاسرة تماما كما حدث في بلاد الشرق الأوروبي، عندها سوف يخرج السادة القدامى للشركات المؤممة من مكامنهم ويتنازعون فيما بينهم للاستيلاء عليها، ولا شيء يمكن أن يجمع بينها وبين الطبقة الجديدة، لذلك فإن استمرار هذه المافيا مرتبط باستمرار حالة عدم الاستقرار.

إن أي تحليل كامل لمشاكل الوضع الجزائري، يجب أن يحتوي مشكلة القبائل وغيرها من الأقليات البربرية -الشاوية والمزابية- إضافة إلى وضع المرأة التي حرمت من أية طريقة للتعبير عن الرأي والوعي، رغم دورها البطولي أثناء حرب الاستقلال، لأن عزلة المرأة الذي ظهر جليا يوم ٨ مارس الماضي، دليل على استثنائها الواقعي من كل البرامج السياسية والبرامج الاجتماعية، فمنذ عام ١٩٨٤ وهي تعاني من تطبيق قانون العائلة، الذي يعتبر أكثر تخلفا من قوانين تونس والمغرب، وهي ضحية كل أنواع العنف، إن إلقاء نظرة سريعة على بريد المطلقات والمهجورات في صحيفة "أسبوعية الجزائر Algerie Hebdo"، تكشف عن واقعها الذي لا تعكسه الإحصاءات، والكتيبات الدعائية التي يصدرها الذين يباهون بالحديث نيابة عنها.

ترى ما هو مصير جزائر الأشهر والسنوات المقبلة؟. إن الفرضيات التي يطرحها الباحث الاجتماعي "سامي نير"، الذي يعتبر واحدا من أفضل المتخصصين، تقول تلك الفرضيات أن هناك "الطريق الإيراني: النصر الإسلامي، والطريق التشيلي: انقلاب عسكري، والطريق الجمهوري: تقسيم السلطات بين جبهة الإنقاذ والقوى الديمقراطية"، وأنا أضيف إليها طريقا آخر ممكن الحدوث وأكثرها إثارة للخوف: الانقسام إلى طوائف، وبدء الصراع القبلي والحرب الأهلية على الطريقة اللبنانية، وسيطرة "السيبة" الفوضوية، أو انفجار اجتماعي ينتج عن ارتفاع الأسعار، الناتج عن التفاوض المحتمل مع صندوق النقد الدولي، فلا يجب أن ننسى أن فوائد الديون في عام ١٩٩٤ وصلت إلى تسعة مليارات من الدولارات، بينما لا يصل الدخل المتوقع من بيع النفط إلى هذا الرقم. ترى ماهو هامش المناورة أمام زروال؟.

إن نظرة عامة على الوضع من إرهاب وحرب مقنعة، وفساد اجتماعي ودمار اقتصادي، لا تؤدي إلا إلى إجابة واحدة على هذا السؤال: أن زروال لا يمكنه ولا يجب أن يتأخر كثيرا في البحث عن حل.

إن المواطنين الذين لا يتطلعون إلا إلى الحياة بعيدا عن الإرهاب والتهديد، فإنه في الجزائر التي تضربها الرياح من كل جانب، يشعر هؤلاء بما يشعر به طلاب مدرسة الفنون الجميلة بعد اغتيال مديرهم: يشعرون أنهم كائنات على وشك الاندثار.

- متى يأتي المستقبل؟. وفي أي يوم يمكن أن يصل الأمل؟

فيما أطرح هذه الأسئلة أستمع إلى كلمات الشاعر الذي لا يعوض:

الصمت هو الموت

فإذا التزمت الصمت

تموت،

وإذا تكلمت

تموت،

إذن تكلم ومت.

الشاعر: "طاهر جعوط"

"غزة-أريحا"، لاحرب ولا سلام

١- غزة... برميل البارود

عبر شرفة فندق "رامادا تل أبيب"، يمكن للزائر أن يشاهد عند الغروب شاطئا من الرمال النظيفة المرتبة بعناية، تحيط به فنادق ذات خمس نجوم، وينتشر عليه الصبيان والشباب الذين يرتدون الملابس الرياضية بمختلف ألوانها يمارسون لعبة الكرة الطائرة أو يمارسون العدو المنتظم، أو يقيسون مدى قدرتهم البدنية وكأنهم على استعداد للمشاركة في "ماراثون" قريب. إن المشهد يشبه أي مدينة ساحلية أميركية أو أوروبية بكل ما تضمه من خدمات تقدم للمصطافين، ومقاصف وأعلام ترفرف بفعل النسيم البحري. تبدو الشمس على وشك الاختفاء، ويخفف المغيب من حدة ألوان المسطحات المختارة التي يظللها بشكل مسرحي صفو اللحظة الآنية.

هل يعرف سكان المدينة، والسائحون الذين يشكلون أجزاء هذه اللوحة المسلية، شكل الحياة الواقعية لسكان غزة التي تقع على مسيرة ساعة واحدة بالسيارة عبر شبكة الطرق الحديثة التي تتضافر عليها المدن والمزارع الإسرائيلية؟. التليفزيون الحكومي والقنوات التليفزيونية الأميركية دائمة الحضور تبث مشاهد المتظاهرين الفلسطينيين أو غضب أعضاء بعض الكيبوتزات بعد الحادث اليومي الأخير، فيما يقول معلق محطة "سي.إن.إن": "يخرج من نار الانتفاضة المنطفئ. إن إسرائيل والفلسطينيين يبحثون مسيرة سلام صعب، فيما تركز وسائل الإعلام انتباهها الآن على اللقاءات الاعتيادية لرابين وبيريز مع عرفات". يقولون لنا: إن الحرب انتهت، وغزة ممر ساحلي ضيق تحاول منظمة التحرير الفلسطينية أن تثبت عليه حسن نواياها واستعدادها للتفاوض في إطار الاستقلال الذاتي الذي يمنحونها إياه.

وأثناء هذا فإن الأمل النابع من إعلان النوايا في واشنطون واتفاقية أوسلو يضمحل في مواجهة واقع الأحداث المرير، غزة لا تشكل الخبرة المطلوب التدليل بها: إنها لا تزال تمثل برميل البارود القابل للانفجار.

وحاجز "إيريز" الحدودي يلخص كل عناصر هذا الوضع المتفجر. عندما عبرته -قبل ست سنوات- برفقة زملائي من فريق العمل في برنامج "القبلة" التليفزيوني، أخضعنا البوليس العسكري الإسرائيلي لانتظار طويل قبل أن يصرح لنا بالدخول، واليوم، يبدو أنه تم تعزيز

الحراسة والرقابة، لكن التاكسي، الذي يحمل الأرقام الإسرائيلية الذي أسافر فيه، يشق طريقه عبر أحد الممرات المخصصة لمرور العربات دون أن يطلب مني أحد جواز سفري أو يدقق في أسباب زيارتي لهذا "الجيتو" الممتد بطول سبعين كيلومترا وعرضه يصل إلى ما بين عشرين وثلاثين كيلومترا والذي يسكنه اكثر من ٨٠٠ ألف مواطن. أعبر الأرض المحرمة بسرعة فائقة ثم أعبر الحاجز الحدودي المتواضع الفقير التابع للسلطة الوطنية الفلسطينية، وأصل إلى محطة الخدمة التي تعمها الفوضى، حيث ينتظرني التاكسي الذي يحمل اللوحة المعدنية البيضاء الخاصة بمنطقة غزة.

الانطباع بالهدوء خادع. إذا كان اسم "إيريز" يرمز في الصحافة إلى أنه أحد نقاط اللقاء المعتادة بين الزعماء الإسرائيليين والفلسطينيّين، فإنه يرمز أيضا في الوقت نفسه إلى المواجهات المتعددة بين الجانبين. في ١٧ يوليو ١٩٩٤، بعد قليل من استقرار عرفات في غزة، ثار آلاف العمال الذين يعبرون منطقة المراقبة الحدودية للعمل في إسرائيل، ضد الانتظار الطويل والإجراءات البيروقراطية: تدخلت الشرطة الفلسطينية وتم تبادل الأعيرة النارية طوال اثنتي عشر ساعة مما أسفر عن قتيلين وأكثر من مئة جريح فلسطيني، وقام المتجمعون فيما يبدو بتحريض من "حماس" بإحراق ١٥٢ باصا من مجموع باصات غزة الهزيلة، وأصيب سبعة عشر جنديا إسرائيليا بإصابات وجروح، ونتيجة لذلك فإن القطاع ظل محاصرا طوال عدة أيام، فيما وجه كل جانب إلى الجانب الآخر الاتهام بأنه كان وراء التحريض على ما حدث، ولم يتوصل أي جانب محايد إلى حقيقة ما جرى ولم يتم تحديد المسئولية، وقبل أيام قليلة من وصولي، فإن "تحريضا" مزعوما من جانب البوليس الفلسطيني انتهى بتدخل قوات الشحال (الجيش الإسرائيلي)، وهاجموا بيتا بالقرية المجاورة حيث لجأ "الجناة": وتم قتل هؤلاء واتهمتهم صحيفة " الجيروزاليم بوست" -التي تعتبر صوت اليمين الإسرائيلي المتشدد- بأنهم من رجال "حماس" الذين استطاعوا التسلل إلى قوات بوليس عرفات الجديدة.

الحقيقة أن الأحداث تتتابع بوتيرة متكررة، دون أن تعكسها الصحافة اليومية: لم يعد الجرحى في الوقت الراهن من المواجهة خبرا ذا أهمية؛ حيث أن سكان المنطقة المتاخمة للحدود يتحدثون عن تبادل نيران ليلي ونقل شباب إلى المستشفيات، فالإسرائيليون يطلقون النار ليلا ضد أي شيء يتحرك.

النظرة الأولى إلى مخيمات بيت حنون وجباليا وغزة تكشف عن مشهد حضري رث وقذر: الطرق موحلة أو مليئة بالحفر التي تمتد بطول الإسفلت الممزق كنتوءات الجدري، والمباني تعلوها آثار النيران أو متهدمة، أو تبدو كتجويفات العيون التي أفرغت حدقاتها، أو كمزاود مفتوحة، ومجاري الصرف التي تعج بكل أنواع المهملات والقاذورات، والحوائط والجدران مغطاة بالكتابات، وعربات ممزقة يجرها الأطفال.

أتعرف في بيت حنون على الأسلاك الشائكة للمعسكر الرئيسي لقوات أمن الشحال الذي أمضى فيه الصحفي الإسرائيلي "آري شافيت" خدمته العسكرية، والذي كتب عنه شهادته المؤثرة الجميلة حول شيوع استخدام التعذيب بشكل عام ضد الفلسطينيين في المعسكر، والآن يبدو المبنى الرمادي على هيئة كالحة ولا تزال تحيط به الحراسة المشددة، حيث يضم الآن قوات البوليس الفلسطيني الجديد، لكني أجهل إن كانت زنزاناته لا تزال تضم النشطين من جماعات حماس ومنظمة الجهاد الإسلامي.

التجول في الحي القديم بالسيارة يحتاج إلى سائق محنك وذي خبرة، و"سامي" الذي قدمه لي مراسل صحيفة "البابيس" في الشرق الأوسط، كان يتعرج عبر الطرق الموحلة التي لا تنتهي، وعبر مناطق موحلة وأحياء تفتقد لأبسط البنى الأساسية نتيجة لتضاعف عدد السكان عشر مرات في الخمسة والأربعين عاما الأخيرة؛ إضافة إلى وحشية الاحتلال الإسرائيلي الذي لم ينته بعد.

قبل النكبة أو كارثة عام ١٩٤٨، كان يسكن قطاع غزة حوالي ٩٠ ألف نسمة، لكن الحرب الفلسطينية–الإسرائيلية الأولى أدت إلى هروب أكثر من ٢٠٠ ألف فلسطيني من أراضيهم والإقامة في القطاع، وتم تسكين اللاجئين في مخيمات مؤقتة بمساعدة لجنة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين التابعة للأمم المتحدة، وتم إقامة هذه المخيمات من عشش تفتقد لأبسط الخدمات الأساسية، حيث تم التسكين كوضع مؤقت، وقبل اللاجئون الإقامة معتقدين انهم سرعان ما يعودون إلى يافا وحيفا وعكا أو إلى أي من القرى التي تزيد على ٤٠٠ قرية التي قامت السلطات الإسرائيلية بإزالتها من الوجود لتقيم عليها الكيوبوتزات الجديدة، وكما فعل يهود وموريسكو إسبانيا فإن الفلسطينيين المشردين احتفظوا بمفاتيح وعقود ملكية بيوتهم وحقولهم التي لم يعد لها وجود إلا في ذاكرتهم وأحلامهم. ومحاولات لجنة إغاثة اللاجئين لإقامة مساكن مؤسسة قوبلت برفض اللاجئين أنفسهم، وعانت غزة في فترة الخمسينيات من تدخل "قوات الشحال" والاحتلال الإسرائيلي القصير خلال الحملة الأنجلو فرنسية ضد الرئيس

عبد الناصر. وبعد الفشل السياسي للحملة - وحلول الولايات المتحدة محل إنجلترا وفرنسا كقوة رئيسية مسيطرة على المنطقة- تحول القطاع إلى معمل تفريخ لفدائي المستقبل مثل عرفات وأبو جهاد وأبو إياد، ...إلخ. -الذين سرعان ما أصبحوا زعماء "فتح" ومنظمة التحرير الفلسطينية- حيث نموا وترعرعوا في مخيمات اللاجئين بقطاع غزة، وبحلول الكارثة الثانية عام ١٩٦٧ وما تلاها من احتلال إسرائيلي بدأ عهد جديد من المقاومة الفلسطينية، وخلال السنوات الأربع الأولى، استطاعت القوات الخاصة بقيادة "آرييل شارون" أن تفرض حظر التجول، وأن تصيب أكثر المناطق تفجرا بالاختناق؛ إذ كانت تلك القوات تقوم بحملات اعتقال واسعة النطاق، وتطبق العقاب الجماعي لتفرض النظام بالقوة. ومنذ عام ١٩٧١ وحتى بداية الانتفاضة كان قطاع غزة يعيش سلاما مزعزعا تحت حذاء الاحتلال، بينما كانت المستوطنات الإسرائيلية تتضاعف وتتضخم وتنتشر بشكل خاص حول رفح.

ثم فتحت "حرب الحجارة" فترة جديدة للمواجهة الطويلة والعنيفة، وعندما ذهبت لتصوير فيلم تسجيلي عن الانتفاضة، كانت سبعة من المخيمات الثمانية الضخمة تعيش تحت حظر التجول ومحاصرة بإحكام؛ فيما كان الجيش الإسرائيلي يحتل وسط المدينة وكانت منطقة القطاع بكاملها عبارة عن صورة متكررة للقمع والمعاناة والبؤس.

كانت السيارات تغامر بحذر في أكثر المناطق السكنية وهي تعبر الأوحال التي تغمرها من وقت لآخر، والأرصفة وإطارات الشاحنات التي كان الشباب يحرقونها خلال الانتفاضة أو بين صناديق القمامة القديمة المحطمة، لكنه رغم هذا فإن التجارة تنتعش على استحياء. بينما كنا نقترب من وسط المدينة كانت تبرز جراجات السيارت وورش الإصلاح، والمواخير وحوانيت الفاكهة وحتى معارض الأثاث التي تعرض الطرازات الكريهة التي أطلقت عليها في مناسبة أخرى اسم "لويس السادس والعشرون"، والتي شاعت شهرتها من خلال مسلسلات التليفزيون المصري، رغم أن قليلا من الغزاويين يستطيعون اقتناءها والجلوس عليها لإراحة سيقانهم المتعبة.

أما شارع البيع والشراء الرئيسي "شارع عمر المختار" فإنه يبدو غريبا بالنسبة لمن شاهده قبل ست سنوات؛ حيث كانت حوانيته الرئيسية مغلقة، وكانت الأسلاك الشائكة تسيطر على مداخل شوارعه الجانبية، وقوات جيب الشحال بجنودها المسلحين بأقصى ما يستطيعون منعوني وزملائي من المرور مستخدمين الإرهاب بتوجيه بنادق إم-١٦ نحونا، أما اليوم فإن الطريق غاص بالسيارات بينما تزدحم الأرصفة بالناس، الذين يسرعون بين العربات العابرة

في عرض الشارع وهم يتفحصون ما تعرضه الحوانيت ويتبادلون الحوار حول الاسعار، اما الميدان الرئيسي ترفرف عليه مئات الصور لزعماء منظمة التحرير المغتالين. وحيث فتحت مصارف البنك العربي والبنك الفلسطيني أبوابها، أما المسجد الجميل فإنه يضم المصلين بين جدرانه التي تغطيها الشعارات التي تدعوا إلى الجهاد المقدس.

أترك المنطقة الساحلية التي تضم مقر السلطة الوطنية الفلسطينية لوقت لاحق لألبي نداء الذكريات: أذهب آلي مخيم "الشاطئ" وهو المخيم الوحيد الذي استطعت أن أتسلل إليه عام ١٩٨٨ في ظل ظروف بالغة الصعوبة، وجدت أن الطابية التي كانت تحاصره تمت إزالتها فأدخل بكامل حريتي إلى شوارع المخيم المتداخلة والتي تحيط بها بيوت متواضعة من القرميد وأسقفها من الصفيح. من خشونة الشاطئ يمكن للعين أن ترى مشهدا مليئا بالأعلام الصغيرة المنتشرة وبرج الإرسال التليفزيوني وخزانات المياه والبراميل التي تحولت إلى خزانات مياه متنقلة، لا توجد مجاري ولا شبكة صرف صحي، حيث تلقي المجاري بقاذوراتها في قنوات تتجمع معا لتنتهي إلى الشاطئ، بينما تشير الملابس المنشورة بين الأكواخ إلى درجة التناسل العالية بين السكان: فالملابس الداخلية والقمصان متعددة الأحجام، وتضم حفاضات الأطفال حديثي الولادة وملابس رياضية للصبيان والبنات في عمر المراهقة ما بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. أترك إحصاء الملابس وأتوصل إلى نتيجة هي أنني أمام بيت عائلي يضم ما بين خمسة أو ستة أطفال. ما أن أصل إلى البحر حتى أكتشف أن هناك حاجزا أمنيا من الحجارة وشاطئا مغطى بالقاذورات يلعب عليه عشرات الأطفال، بينما صبي يرتدي لباس البحر وقميصا يقاوم بين أمواج البحر محاولا الصيد في هذا المناخ المتقلب. وإلى يمين الطريق المتجه إلى غزة، توجد عدة مبان تحت الإنشاء وجراران يرصفان طريقا ليكون الممر البحري في المستقبل.

أثناء عودتي إلى المنطقة التي بدأت منها جولتي شاهدت رجلا في الأربعينيات من عمره يرتدى الكوفية الفلسطينية ذات المربعات البيضاء والسوداء يتحدث مع شيخ مسن – عرفت فيما بعد أنه أبوه- وكانا يتحادثان أمام منزلهما، وبعد التحية واكتشافهما أنني أتحدث العربية، عرضا أن أجلس معهما لتناول القهوة.

قال لي: "الوضع هنا لا يزال على حاله، ولا أمل في المستقبل، لو استطعت أن أسافر آلي بلد آخر لفعلت، إنني على استعداد للسفر حالا، كنا نعيش من قبل لأسابيع طويلة في

قفص محكم الإغلاق دون أن نتمكن من الإفلات منه. ما حدث الآن أن القفص اتسع وازداد حجمه، لكننا لا نزال أسرى الحياة فيه".

كان مسار جولتي التالية باتجاه مخيم جباليا القديم، الذي يعتبر الأكبر والأكثر ازدحاما بالسكان في قطاع غزة، والذي كان الأكثر معاناة ومقاومة أثناء الانتفاضة. يبدو مظهره العام أقل بؤسا من مخيم الشاطئ، إذ توجد به بيوت من طابقين وثلاثة طوابق، بعضها مغطى بطبقة من الكلس، جدران بعض البيوت عليها رسومات بدائية للعلم الفلسطيني، وقبة الصخرة محروسة بمدفعين رشاشين، وحمامة مزينة بالكوفية ذات المربعات البيضاء والسوداء تحطم قضبان زنزانتها وتبدأ طيرانها نحو الحرية. في عمق المنحدر شاهدت محطة تاكسيات الأجرة الجماعية، وعربات تجرها الحمير أو البغال، قطعان من الشياه، وسوق يغص بالخضراوات والفاكهة، كان هناك عملاق يتمتع بجاذبية فائقة وشارب كثيف يسير وفي يديه ثمرتان عملاقتان من الكرنب ، يستعرضهما بنوع من إبداء الرجولة البرينة، وتمتد أسلاك التيار الكهربائي على الأسطح ، تزاحمها إيريالات "هوائيات" أجهزة التليفزيون وخزانات المياه، بينما تطل قلعة مراقبة "الشحال" القديمة كمنظار خطر يهدد الجميع أو رقبة نعامة حذرة. كان هناك شابان يلعبان "الدومينو" على علبة كرتونية، ونصب يحمل لوحة تذكارية باسم شهداء الانتفاضة.

أجلس برفقة السائق "سامي" على رصيف المقهى المواجه لمخزن لجنة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين، حيث يمكن للزبائن من هذا المكان أن يراقبوا بوضوح المكان الذي كان معسكرا إسرائيليا بأسلاكه الشائكة، وبوابته وأبراج المُراقبة. اختفى الخوف الذي ألقى بظله على جباليا طوال سنوات، لكني وجدت خلال إقامتي نوعا من الخيبة الخفية تخيم على المكان وإحساسا بالرفض ضد سلام مر.

اكتشف صاحب المقهى ورفيقه لكنتي المغربية الدارجة، فتذكرا تلك السنوات التي عملا فيها في المغرب والجزائر، واستعادا تلك الفترة السعيدة التي قضياها في الدار البيضاء.

-"لا يوجد مخرج للشباب في غزة، أنا حاصل على دبلوم في الكيمياء البيولوجية وهنا كما ترى: أتكسب عيشي البائس كصاحب مقهى".

يسألني صديقه عما إذا كنت أعرف المطرب الجزائري "الشاب خالد" ونستعيد معا أغنياته وأغنيات "الراي" الأخرى.

وقبل أن أودعهما يشير صاحب المقهى إلى برميل مؤكسد مليء بـــالطين، وبــه فتحــات تستخدم لتصريف المياه الزائدة، وقد أحاط به ما يشبه القفص المصنوع من الأســلاك المعدنيــة التي تقطعت أوصالها بفعل الرياح وعبث الأطفال، وفي وسط البرميل شجيرة تحتضــر برغــم الرعاية التي يحيطها بها ويقول لي:

"إلتقط لها صورة، لأنك ستجد فيها صورة جيدة لحقيقة السلطة الوطنية الفلسطينية".

٢- عرفات في مصيدته

في زيارتي الحالية إلى غزة حظر العسكريون الإسرائيليون علينا أن نتوجه إلى جنوب القطاع، أجبرونا تحت تهديد السلاح أن نعود أدراجنا على بعد كيلومترات قليلة من دير البلح. منذ انتهاء الانتفاضة والطريق مفتوح: مرق التاكسي بشكل ملتو بين البراميل والدعامات الإسمنتية أمام تناوم أو تراخي الرقابة البوليسية الفلسطينية، الطريق القديم المهمل يقطع المزارع وحدائق البرتقال في خط مستقيم؛ حيث يلمع بلاستيك المزارع المكثفة والصيفية تحت الشمس، وأماكن الرقابة التي أقامها الجيش الإسرائيلي على الطرق المتقاطعة التي تؤدي إلى المستوطنات الإسرائيلية التسعة عشرة تضمها تباب صغيرة محاطة بأكياس مليئة بالطين، حيث تمارس أحكام الرقابة على بعد مئة متر فقط من أماكن عدوها القديم. وهذا التجاور غير المرغوب فيه من قبل الطرفين يتسبب في وقوع ضحايا وحوادث كثيرة: الفلسطينيون يتهمون الإسرائيليين أنهم يضغطون على الزناد بسهولة بينما هؤلاء يعلنون عن عمليات عسكرية تقوم بها عناصر من حماس. وعلامات الإشارات المرورية على الطرق المؤدية إلى بيت لحم وحيفا مكتوبة كلها باللغتين العبرية والإنجليزية، وتبدو خان يونس مغلقة بحزام من المستوطنات اليهودية ويتضح جليا أن الحصار مضروب حول رفح.

تبدي عاصمة جنوب القطاع مظهرا عاديا: حيث تضم أفرانا للشي، والحوانيت الممتلئة بالبضائع، ومحال الحلاقة، فيما تغص محلات الفاكهة بعناقيد ضخمة من الموز، وبعض شركات الاستيراد والتصدير الغريبة. بعد الزيارة القصيرة للحي البائس لمخيم "شيخ العيد" حيث يتزاحم الآلاف من لاجئي ١٩٤٨ وأحفادهم، فإن الطرق الجديدة المعبدة بشكل جيد والتي تؤدي إلى المستوطنات الضخمة القريبة من الحدود المصرية تعكس الواقع المر للظلم الذي يفرضه المنتصرون، ويضم حصن "جوش كتيف" المنيع قاعدة عسكرية محاطة بالأسلاك الشائكة والبوابات المكهربة، وتنتشر منشآتها على مدى كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات، وهي منشآت حديثة ومقامة بشكل جيد وتضم هناجر ومعسكرات وخزانات وأجهزة رادار عملاقة وأطباق إلتقاطِ البث التليفزيوني من الأقمار الصناعية وأبراج البث الإذاعي وكمية مهولة من

العربات المعدة للسير في المناطق الوعرة، لذلك فإن المقارنة مع اماكن الرقابة الفلسطينية تبدو صادمة للعين.

الطرق التي تمتد في كل المنطقة الجنوبية والتي أقامها المحتل تربط المستوطنات ببعضها وهي محاطة دائما ببوابات وشباك من الأسلاك، فتبدو كدولة غنية في قلب دولة فقيرة، بين الكثبان والمناطق الواقعة خارج نطاق الأسلاك الشائكة ترعى قطعان ضامرة وبعض المزارعين الذين يزرعون كروم الزيتون ونبات التين الشوكي، فيما العلامات الإرشادية مكتوبة فقط بلغة المحتل: حقول مزارع غان أور بدلاش، بينيل اتزمون. تصطف المساكن التي يقطنها المستوطنون بشكل منظم ونظيف بواجهاتها البيضاء وأسقفها الحمراء، وطبقا لما أخبروني به فإن أكثر هذه المساكن غير مقطونة، وتجوب عربات جيب الجيش الإسرائيلي من مكان إلى آخر دون أن يعترضها أحد: ولا يوجد في هذه المنطقة أي حراسة أو معسكر لبوليس عرفات. وعلى طريق جانبي مهمل توجد لافتة تحذر باللغة الإنجليزية: "احذر! أنتم تدخلون إلى منطقة السلطة الوطنية الفلسطينية"! وأمام المفاجأة، أتشجع لألقي نظرة على منطقة المراقبة التي تفصل القطاع عن العريش، وهناك فيما بين منطقة الرقابة الصورية للسلطة الوطنية الفلسطينية وحدود جمهورية مصر العربية كان الإسرائيليون يتفحصون ويقررون الدخول والخروج: وممنوع على أي من سكان غزة أو الزائرين الأجانب الدخول أو الخروج من منطقة الحكم الذاتي دون إذن صريح من الإسرائيليين، والسفير الباكستاني الذي حضر إلى المنطقة للإعداد للزيارة التي لم تتم التي كان من المزمع أن تقوم بها "بنازير بوتو" لعرفات عاد مجللا بالخزي والعار دون أن يتمكن من العبور، وطبقا لأقرب التقديرات الموثوق فيها فإن الجيش الإسرائيلي لا يزال يسيطر على ٤٢ في المئة من القطاع الذي لا يقطنه سوى ٣٧٠٠ مستوطن يهودي، وبعض المستوطنات التسعة عشرة: مثل مستوطنة "نتزاريم" غير مأهولة، ويبدو أنها تستخدم كقاعدة ومنطلق للعمليات المسلحة أو التخريبية التي يقوم بها أعضاء "نوستاعبيم" وهم إسرائيليون يتخفون في أزياء عربية ويقومون بعمليات "تنظيف" ضد العناصر المعادية "لمسيرة السلام". ورغم اتفاقية أوسلو وخطر ازدياد الكراهية الناشئة عن الاحتلال والاختلال الاقتصادي الرهيب فإن أمرا عسكريا صدر في مايو ١٩٩٤ يعطي للإسرائيليين الحق في الاستيلاء على أراض جديدة لتوسيع المستوطنات المقامة شمال شرق "بيت لاهيا" في أقصى شمال منطقة الحكم الذاتي.

نتيجة كل هذه المجموعة من العوامل، فإنه لن يكون مدهشا أنه كلما ازداد الثناء والتكريم لعرفات في الصحافة والأوساط الرسمية في الولايات المتحدة وأوروبا -حفل البيض الأبيض الفخم، وحفل تسلمه جائزة نوبل إلى جوار رابين وبيريز- فإن الثقة فيه واحترامه يقل بنفس القدر بين أهالي غزة، فهو الذي استقبل استقبال الأبطال عند وصوله إلى غزة في الأول من يوليو ١٩٩٤، فإن سياسته وطريقته في الحكم أصبحا محل شك متزايد بين السكان.

رغم ما ذكرناه فإن المسئولية عن هذا ليست سوى مسئوليته الخاصة، فبعد ٢٧ عاما من الاحتلال وست سنوات من الانتفاضة فإن الأمل في تغيير جوهري وسريع في الحياة كانا غير واقعيين بكل المقاييس، لكن مشاريع زعيم منظمة التحرير الفلسطينية، التي أعلن عنها في العديد من المقابلات الصحافية التي أجريت معه لتحويل غزة إلى هونج كونج أو سنغافورة متوسطية لم تكن تقدم الكثير من الأمل، حيث قال: "سوف نقوم بعمل ثورة في استغلال إمكانيات الفرد"، "سوف نقيم ٣٠ ألف مسكن مما يعني عملا لخمسين ألف من عمالنا الذين لن يكونوا في حاجة إلى الذهاب إلى "ايريز" بحثا عن عمل في إسرائيل".

إلا أن السلطة الوطنية الفلسطينية لم تتلقى سوى ٦٠ مليونا من المبلغ الذي وعدوها به خلال عام ١٩٩٤، والذي يقدر بمبلغ ٧٢٠ مليون دولار، وخلال شهر سبتمبر الماضي حدث خلاف بين إسرائيل والبنك الدولي حول مبلغ صغير مخصص للقدس الشرقية أثناء اجتماع الدول المانحة في باريس، أدى إلى احتجاز مبلغ ٢٠٠ مليون دولار المتفق عليها. ومساعدات بعض الدول مثل فرنسا واليابان والنرويج يتم تقديمها لتمويل مشروعات محددة، والمنح يتم تقديمها بموافقة إسرائيل وتصل ببطء شديد ولا تكفي لتغطية مصروفات عمل السلطة الوطنية الفلسطينية المتفق عليه في أوسلو والقاهرة، ببساطة فإن عرفات لا يمتلك الوسائل لتنفيذ سياسته، إنه ضحية في الوقت نفسه لعراقيل رابين ومحيط من العداء المتزايد لـ"محميته الصغيرة" في غزة.

اعترف رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية في مقابلة مع صحيفة "هاآرتز" الإسرائيلية قبل شهور بيأسه بسبب السياسة الإسرائيلية المزدوجة ومحاولات إجهاض "مسيرة السلام". إضافة إلى "الإذلال اليومي" الذي يمارسه ضده عدوه القديم.

وهناك العديد من العناصر تكشف عن الإحباط الحقيقي الذي يشعر به زعيم منظمة التحرير المخضرم الذي يتخبط في مصيدته الخاصة، منها تقييد حركة "وزرائه" (منعهم أحيانا من الذهاب إلى أريحا أو الدخول إلى الضفة الغربية)، منعه من الذهاب إلى الأماكن الإسلامية

المقدسة في القدس (بينما تمت دعوة الملك حسين بحرارة للصلاة فيها)، التاجيل المتكرر لمواعيد إجراء الانتخابات الفلسطينية التي كان من المقرر إجراؤها من ١٣ إبريل إلى ١٥ ديسمبر، ثم تأجيلها من جديد (أجاب رابين في اختصار: ليس هناك موعد مقدس)، إغلاق الحدود أمام الآلاف من العمال كعقاب جماعي بسبب الأحداث التي وقعت في "إيريز" (و ما ينتج عنه من مشاكل اجتماعية وسياسية داخل القطاع). المطالبة المتكررة بأن يعقد المجلس الوطني الفلسطيني جلسته في غزة لتقرير إلغاء المادة التي يتضمنها الميثاق الوطني الفلسطيني والتي تطالب بتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني (وهي مطالبة مستحيلة بسبب نقص المصداقية).. إنشاء مستوطنات جديدة لتسكين مستوطنين يهود جدد في الضفة الغربية (برغم الوعود بـ"إيقافها") الضغوط التي يتم ممارستها على السلطة الوطنية الفلسطينية لاعتقال ومحاكمة أعضاء حماس والجهاد الإسلامي في كل مرة يقومون فيها بأعمال مقاومة في إسرائيل أو الأراضي التي تسيطر عليها (لإجبار السلطة الوطنية الفلسطينية على لعب الدور الكريه الذي كان يقوم به الجيش الإسرائيلي وبذلك يضعون هذه السلطة موضع الشك في عيون مواطنيها) تخفيض عدد تصاريح العمل التي وعدت بها إسرائيل سكان القطاع والتي انخفضت من ٨٠ ألفا إلى ٨ آلاف فقط (مما يعني ضياع دخل حيوي لمئات الآلاف من العائلات) قرار استجلاب أيدي عاملة من رومانيا وتايلاند والصين (يوجد حاليا ٣٥ ألف عامل حلوا محل العمال الفلسطينيين في سوق العمل) كل هذه الأشياء والعناصر تكشف عن الإحباط الحقيقي الذي يشعر زعيم منظمة التحرير الفلسطينية المخضرم الذي يتخبط في مصيدته التي نصبها لنفسه.

إلى جوار كل هذه العراقيل المتراكمة يمكن إضافة توجه رابين الذي يرمي إلى الحط الرمزي من شأن منافسه القديم: فالطائرتان المروحيتان الخاصتان بعرفات لا تزالان تقبعان على الأرض في مطار مصري، ولقب "رئيس دولة President" السلطة الوطنية الفلسطينية انخفض ليصبح مجرد "رئيس مؤسسة Chairman فيما يسميه أعضاء حماس "مندوب" (بالطبع يفهم منه أنه مندوب تل أبيب)، إضافة إلى اعتراض إسرائيل في القاهرة على صك خاتم باسم دولة فلسطين.

إذا كانت المعاناة عامة من جراء سنوات طويلة من الاحتلال وتطبيق الأحكام الاستثنائية أو حظر التجول والانغلاق في البؤس والتكدس في مخيمات العجزة، فإن مكاسب السلام الظاهرة لا تبدو للعيان، ذلك أن انخفاض فرص العمل والافتقاد لنظام تعليمي عام

ونقص البنية الأساسية ونقص الرعاية الصحية تشكل صورة قاتمة تهدد استقرار القطاع والوضع القلق لرئيسه، رغم أن الاستفتاءات تبين أن عرفات لا يزال يتمتع بدعم أكبر من حماس أو المعارضة العلمانية المكونة من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي تتخذ من دمشق مستقرا لها، والتي لا تجد تقريبا جماهيرية تؤيدها بوضوح في غزة.

من حيدر عبدالشافي –رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني الذي يتمتع بالاحترام والذي تولى رئاسة مباحثات السلام الأولية والوسيط بين السلطة الوطنية الفلسطينية وبين الإسلاميين بعد المذبحة التي وقعت حديثا بجوار مسجد غزة– إلى الجامعيين والتجار والشباب العاطلين الذين أتيحت لي الفرصة لتجاذب أطراف الحديث معهم، فإن الانتقادات موجهة إلى اتفاقيات أوسلو والحكم الذاتي وتسلط وتوجه عرفات القبلي، وهي انتقادات تتراوح ما بين الانتقادات العنيفة إلى الانتقادات المخففة، فإن كل هذا لا يترك مجالا للشك بأنه يتجه نحو فقد جماهيريته.

يقول حيد عبدالشافي: "إن مسيرة السلام تفقد كل مصداقيتها، فلا يزال رابين يمتلك زمام الأمور، يريد أن يعزل الأراضي الفلسطينية وحبسنا في مجموعة من المحميات، إن شعبنا له الحق في مقاومة احتلال تغير اسمه لكن وسائله لا تزال كما هي".

يؤكد أحد أصحاب الحوانيت في شارع عمر المختار أن الوضع ساء مع الحكم الذاتي، ويلخص وجهة نظره في مثل يقول: "إذا كان هناك جائع يجد غنيا يمنحه سمكة سوف يأكلها شيئا فشيئا ويبقى سعيدا هانئا، أما إذا لم يعطوه شيئا فإنه سوف يحاول أن يتعلم الصيد"، هل هي حكاية عربية أم أنها مأخوذة عن الكتاب الأحمر لماوتسي تونج؟ إن ما دونته في مفكرتي يصل إلى ما يزيد عن دستة من التحليلات التي تقول الشيء نفسه، وعلى النهج نفسه، برغم كل هذا فإن غالبية الجماهير المتعبة من ست سنوات من الانتفاضة تبحث عن استراحة ولا ترغب في مواجهات جديدة، لو وصلت المساعدات الدولية إلى القطاع لربما تغير الاتجاه من رفض عرفات واعتباره مجرد جثة سياسية، إلا أن الوضع الاجتماعي حاليا في انحطاط دائم؛ فطبقا لما ذكره المبعوث الخاص للأمم المتحدة في الأراضي المحتلة "تيرج لارسون" فإن: "مستوى الحياة للسكان انخفض بنسبة ٥٠ في المئة عنه قبل ستة أشهر".

إن أول عمل للسلطة الوطنية الفلسطينية المبجلة كان تنظيف جدران غزة من الشعارات التي كانت تغطيها والمعادية لإسرائيل ، تكلفت العملية أكثر من ثلاثة ملايين دولار

طبقا لتقرير نشرته "نيويورك تايمز" وكانت عملية باهظة التكاليف ولا فائدة منها، فبعد أسابيع قليلة من عملية التلميع عاد مظهر المدينة إلى ما كان عليه من قبل، وظهرت الشعارات هذه المرة موجهة ضد رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية وتقول: "عرفات عبد رابين والأميركان". "مصيرك سيكون كمصير السادات". وبعد الاحتكاك الذي حدث يوم ١٨ نوفمبر ١٩٩٤ بين البوليس ومتظاهري حماس فإن حرب الشعارات والشتائم انطلقت بحدة شديدة، حيث أجاب نسور "فتح" بتهديدات مضادة: "سوف نقطع ألسنة الذين باعوا أنفسهم لطهران!". ولكن ليست كل الشعارات المكتوبة على جدران غزة تحمل نفس المعنى، بعضها يوجه اهتمامه للأحداث الدولية: " ما يحدث في فلسطين والعراق والبوسنة والشيشان عمل عدائي ضد الإسلام". وشعار آخر في الاستاد الرياضي الذي عقدت فيه حماس تظاهرة يوم ١٦ ديسمبر الماضي يعتبر كارثة: "سنعبد الطريق إلى الجنة باليهود الكلاب". وفي الأحياء المحيطة بغزة تظهر صور زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ممزقة أو مشوهة، كما ذكر لي أحد الجامعيين العاطلين عن العمل، إن المذيع "فون كلاوزويتز" قال: "مسيرة السلام ليست إلا الاحتلال بوسائل أخرى". "الإسرائيليون يفركون أيديهم لأننا نحن الفلسطينيين الآن نقتل بعضنا البعض".

كانت الحركة الإسلامية في غزة وريثة الإخوان المسلمين التي تم زرعها في القطاع قبل عقود. رفضت في البداية النضال السياسي ضد الاحتلال الإسرائيلي وكثفت جهودها لصالح العمل الاجتماعي والديني الذي لم يكن يشكل أي مشكلة لسلطات الاحتلال، بينما كان كوادر منظمة التحرير يتعرضون للإعدام بالعشرات على أيدي رجال آرييل شارون في الفترة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧١. انتشرت في تلك الفترة جماعة الشيخ أحمد ياسين ووسعت نشاطها من خلال المدارس وتوزيع التموين ودروس محو الأمية ومراكز مساعدة اللاجئين المحتاجين، وكما فعل بومدين والشاذلي بن جديد في الجزائر منذ بدايات السبعينات وحتى بدايات الثمانينات، فإن المحتلين كانوا يتغاضون عن شبكة الجمعيات الدينية التي كانوا يعتبرونها في صفهم في مواجهة الفدائيين الثوريين والماركسيين التابعين لياسر عرفات (فتح) وجورج حبش (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) ونايف حواتمه (الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين) وللحقيقة -كما حدث للرئيسين الجزائريين مع الإسلاميين المتطرفين الذي أنجب جبهة الإنقاذ- كانت سلطات الاحتلال تلعب بالنار. فإنشاء حماس في ديسمبر ١٩٨٧ لم ينبه المحتل، على الرغم من شجب الشيخ أحمد ياسين لقبول منظمة التحرير الفلسطينية لقرارات مجلس الأمن الدولي الذي يقرر وجود دولتين في الأراضي التي كانت بريطانيا تحتلها قديما

في فلسطين، ومع الانفجار العفوي للانتفاضة ومشاركة حماس فيها تغير الموقف الإسـرائيلي: تم القبض الشيخ أحمد ياسين في مايو ١٩٨٩ ولا يزال معتقلا منذ ذلك الوقـت، إلا أن أولويـة مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية طبقا لوجهة نظر تل أبيـب سـمحت للمنظمـة الإسـلامية أن تحافظ على كوادرها وقدرتها على العمل ضد حملات الاعتقال التي كان يشنها الجيش الإسرائيلي وجماعة شين بيت (المخابرات) وظل الحال هكذا حتى بداية هذا العقد، بينما كـانت مبادرات عرفات السلمية ترفضها تل أبيب وتعاني زعامته من النتائج السلبية لخطـه السياسـي الانتحاري بانحيازه إلى جانب صدام حسين خلال حرب الخليج، كانت حماس تمد خطوطها باتجاه الدول العربية المعتدلة في التحالف المواجه للعراق، وكانت تتلقى من هذه الدول وربمـا لا تزال تتلقى الإعانات التي تساعدها على العمل.

منذ عام ١٩٩١ وكل الظروف تتحالف ضد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية: انقطعت علاقاته مع السعوديين وإمارات الخليج وفقد المساعدات الاقتصادية حيث توقفت الأموال التـي كانت يرسلها العمال الفلسطينيون في منطقة الشرق الأوسط، والتي كانت تعتبر المورد الرئيسي لآلاف العائلات الفلسطينية في الأراضي المحتلة، ثم عزله دوليا، ثم العراقيل التـي كانت تعطل مسيرة السلام التي بدأت في مدريد، وازدياد حدة المعارضة الإسـلامية لسياسـته، والخلاف بين الفلسطينيين لم يكن يقلق الإسرائيليين كثيرا بسبب قصر النظر أو لسوء التقدير، وكانوا يتظاهرون أنهم لم يعودوا يرون في عرفات الثوري القديم -ضعفه الداخلي والأوضـاع المحيطة به حولته ليكون المحاور المقبول بل والمطلوب لذلك لا بد من الضغط عليه إلى الحد الممكن مقابل أن تقبله واشنطون- في الوقت نفسه كانت حماس ترفض أي اتفاق مـع الكيـان الصهيوني حتى تحرير كامل التراب الوطنـي الفلسطيني -تماما كما فعلت منظمـة التحريـر الفلسطينية في بداياتها- وعندما فتح الجيش الإسـرائيلي والمخابرات عيونهمـا كـانت المفاجـأة كبيرة، وكما قال أحد مستشاري رابين لشئون مكافحة الإرهاب في تعليق لـه -أخيرا- لصحافي من جريدة "لو موند": "أصبحت حماس كالعنقاء، عندما نقطع أحد رؤوسها تنبـت لهـا رؤوس أخرى".

٣- بين حماس ورابين.

مع وصول منظمة التحرير الفلسطينية إلــى غزة ازدادت حدة الخلافات بين السلطة الوطنية الفلسطينية وحماس؛ وردا على حرب الشعارات وحملة الهجوم الشخصي ضد عرفات قامت السلطة الوطنية الفلسطينية بحملة اعتقالات واستجوابات واسعة النطاق ضد الإسلاميين، وكان البوليس الفلسطيني الجديد المكون في غالبيته من العسكريين المنتمين إلى جيش التحرير الذين تبعوا عرفات في الأردن ثم إلى لبنان وتونس وتفرقوا فيما بعد في عدد من الدول العربية "الأخوية" من الجزائر وحتى اليمن، يعمل بشيء من الإهمال والفوضى، وطبقا لشهادات مراقبين محايدين كان رجال البوليس يلجأون في كثير من الأحيان إلى وسائل منقولة عن مخابرات بعض الدول العربية الدكتاتورية، والأسوأ من ذلك: فإن التناحر القائم ما بين الأقسام العديدة في البوليس كان يتسبب في خلق مناخ عام من الشك والريبة. فبالإضافة إلى قوات الأمن الوطنية والحرس الرئاسي المدعومين ماليا من قبل المجموعة الأوروبية، هناك البوليس المدني الذي يرتدي الملابس الزرقاء، والبوليس السياسي الذي يطلقون عليه اسم "البوليس الوقائي" والذي يتخذ من أريحا مقرا له، ويقوده المندفع الحاد الطبع جبريل أيوب، ثم البوليس العام والعسكري.. هذا التقسيم المتعدد والمتعجل والتناحر العنيف أحيانا فيما بين هذه الأقسام خاصة في الضفة الغربية، أثار ذعرا حقيقيا بين العديد من الفلسطينيين، سواء كانوا من المؤمنين بالديمقراطية أو من لهم ميول إسلامية.

والهجوم الانتحاري الذي أسفر عن مقتل ثلاثة جنود إسرائيليين في مفترق الطريق العام إلى رفح والقريب من مستوطنة ":نتزاريم" والذي قامت به منظمة الجهاد الإسلامية وما تبعه بعد ذلك من عمليات اعتقال لمئة وخمسين من أعضائها، التي قام بها بوليس السلطة الوطنية الفلسطينية دفعت بآلاف الشبان في غزة التابعين للمنظمتين الإسلاميتين إلى المطالبة بالإفراج عن المعتقلين فورا: رفع المتظاهرون شعارات معادية لإسرائيل وشجبت "تواطؤ عرفات مع رابين". في ظروف متناقضة- فإن وجهات النظر حول ما حدث كانت تناقضا مأساويا- ورجال البوليس الذين انتقلوا إلى مسجد فلسطين يوم الجمعة ١٨ نوفمبر، لتحريز مكبرات الصوت الخاصة بالمصلين قوبلوا بوابل من الحجارة، فأطلق البوليس الرصاص مما

أسفر عن إصابة عدد من الأشخاص إصابات قاتلة، واستمرت المواجهة بجميع ما تبعها من نهب وسلب وحرائق في كل القطاع طوال اثنتي عشرة ساعة، وعاشت غزة من جديد أحلك لحظاتها منذ الانتفاضة، وكانت حصيلة القمع: ثلاثة عشر قتيلا. فيما تقدم السلطة الوطنية الفلسطينية وجهة نظر مختلفة عما حدث، وتتحدث عن "إثارة من جانب عناصر أجنبية". ويرى البعض أن وراء الأحداث أيد إسرائيلية خفية من خلال المستعربين، وطبقا لشهادات عديدة فإن بعض رجال البوليس ألقوا بأسلحتهم إلى الأرض، ورفضوا تنفيذ أوامر رؤسائهم، بعضهم أطاع الأوامر مثل "أيمن ردحي" الذي هرب من الخدمة تحت وطأة تأنيب الضمير وكتب رسالة وداع إلى أسرته، وقام بعملية انتحارية فاشلة ضد أتوبيس إسرائيلي في القدس. وصورته اليوم والكلاشنكوف في يده معلقة في العديد من الحوانيت والأماكن العامة في غزة.

إن المعنى واضح جلي، فخلال أحداث الجمعة الأسود قام أعضاء حماس بإحراق داري السينما الموجودين في القطاع واللتين تم افتتاحهما بعد إغلاقهما الإجباري خلال فترة الانتفاضة: وهما دار سينما النصر الواقعة في طريق عمر المختار المزدحم في غزة، وسينما الشهيد في رفح.

يتهكم شاب بشارب كبير وبنظارات عندما يراني ألتقط صورة لواجهة سينما النصر: "الإسلاميون يرفضون جميع الأنشطة الثقافية والفنية التي تحمل أو تحتوى على الأيدلوجية الغربية الضحلة" انه شيء عبثي، أليس كذلك؟ من خلال هذه الرؤية يجب اقتلاع شجيرات العنب باستخدام التحليل القائل أن النبيذ يصنع من فاكهتها، لكن ألا تنتج هذه الشجيرات العنب الذي نأكله جميعا؟.

الهوة التي تفصل بين السلطة الوطنية الفلسطينية وحماس من الاتساع؛ بحيث يصبح من الصعب التقريب بينهما، الإسلاميون يتهمون عرفات بشدة أنه باع "الأهداف المقدسة" للمقاومة بأبخس الأثمان: ولا حيدة عن عودة أكثر من مليونين من لاجئي ١٩٤٨، وتحرير كامل التراب المحتل وإقامة دولة فلسطينية عاصمتها القدس، يقول يوسف إبراهيم مراسل "ذي نيويورك تايمز" أن المعتقلين من الحركات المناوئة لما يسمى بـ"مسيرة السلام" يمارسون تكتيكا لا يرحم، بالإجابة على أسئلة المحققين باللغة العبرية (كثيرون من شباب غزة تعلموا هذه اللغة أثناء وجودهم في السجن) وهذه الإجابة الهدف منها إذلال المحققين واتهامهم بأنهم ضباط في الجيش الإسرائيلي.

إننا نسير ببطء باتجاه الحرب الأهلية التي يخافها البعض ويتمناها الكثيرون؟

بعد مسيرة ملتوية عبر الحواري والشوارع المهملة يقودني سامي للقاء مع "محمود زهار" أحد أبرز زعماء حماس وأكثرهم تمتعا بالاحترام، والذي أطلق مجهولون النار على بيته في وقت قريب، وانتقاداته لاتفاقيات أوسلو وإعلان نوايا واشنطون تعتبر من أحد وأقسى الانتقادات.

"كيف يمكن الحديث عن السلام إذا كنا لا نزال في حرب مستمرة و٩٥ في المئة من أراضينا تحت الاحتلال الإسرائيلي؟ استسلم عرفات ليحصل في المقابل علي لا شيء، خططه الاقتصادية فشلت وأصبح مجبرا على التسول من رابين وكلينتون. لماذا سمح أن يظل خمسة آلاف من الفلسطينيين يتعفنون في سجون إسرائيل، وكثيرون منهم من جماعته السياسية؟ لماذا يحيط نفسه بكل هذا العدد من رجال البوليس ليقمع شعبه؟. من الذي اختاره لاحتلال هذا المنصب؟. نحن نطالب بانتخابات عامة نظيفة وبدون تزوير؟

ونتحدث عن موضوعات عامة مثل البوسنة والجزائر والشيشان. يمتنع محدثي عن انتقاده للإرهاب الذي تمارسه الجماعات الإسلامية المسلحة، ويتمسك بحق الإسلاميين الجزائريين في إعدام جنود ورجال الحكم مثل المطربين. أكرر متسائلا: المطربون؟ كنت أعتقد أنني سمعت خطأ. "نعم، فالمطربون يعملون في خدمة النظام الفاسد الملحد".

وعندما أودعه لا أتمالك نفسي وأبذل جهدا لأرد له ابتسامته اللطيفة.

الليالي في غزة حزينة: بدون إضاءة عامة في الشوارع، والقليل من المقاهي والمطاعم تغلق أبوابها مبكرا كما لو كانت تنفذ حظر تجول لا وجود له، ساهروا الليالي القليلون يغامرون بالسير في الشوارع الموحلة والخضوع لتفتيش الحواجز البوليسية ليلتقوا في أحد الفنادق الواقعة على كورنيش البحر: رجال أعمال وموظفون وبعض الأجانب، وبعض الصحافيين أو أعضاء وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين أو بعض الجمعيات الخيرية الإنسانية، النساء الوحيدات اللاتي شاهدتهن في غزة حاسرات الرؤوس، شاهدتهن في مقر السلطة الوطنية الفلسطينية.

أتأمل الصباح من نافذة حجرتي، حيث لا توجد ستائر ولا حصائر تغطي النافذة، مما يجعلني أستيقظ مع أول أشعة الفجر، أرى شبح السد الذي يمثل مشروع عرفات الطموح لفتح القطاع على التجارة العالمية عن طريق ميناء قادر في مرحلته الأولى على استيعاب ٥ آلاف طن -وهو مشروع مدعوم نظريا عن طريق المعونة الأوروبية التي لم تصل مطلقا- انهار السد في شهر نوفمبر الماضي عندما ضربته العاصفة الشتائية فانهارت بنية الرصيف

الأساسية، والحجارة التي تم استجلابها من "أريحا" لحماية الدعامات المعدنية لحاجز الأمواج استولى عليها الإسرائيليون عند وصولها إلى حاجز ايريز الحدودي، بحجة أن أعمال الميناء لم يتم الموافقة عليها في اللجنة الإسرائيلية - الفلسطينية المشتركة التي تمنح تصريح إقامة خطط المشروعات الاقتصادية في القطاع، ولنفس السبب تم الاستيلاء على عربات جمع القمامة التي قدمتها فرنسا منحة لبلدية غزة، وكذلك الأدوات الدراسية التي تبرعت بها الجمعيات الخيرية، وقطع الغيار التي قدمتها المنظمات العالمية غير الحكومية تم احتجازها في الجمارك الإسرائيلية في ميناء أشدود وعلى الحدود المصرية، وطبقا لما ذكرته صحيفة "لو موند" في عددها الصادر بتاريخ ٢١ يناير ١٩٩٥، فإن بعض هذه الإعانات "ضاعت" أو تم بيعها في مزادات علنية دون أن تحتج رسميا الدول التي قدمت هذه الإعانات أو المنظمات ذات الصلة بها بسبب هذه الممارسات: فكل شيء تم الاتفاق عليه في أوسلو و"انتهى الأمر".

تراجع عرفات حتى لا يصاب بخيبة الأمل من جراء العراقيل الإسرائيلية إلا أن "الخبير" الذي يستشيره تبين أنه دجال. واليوم فإن الجسر العائم المدمر يتوغل في البحر كحشرة، وأصابه الالتواء وأصبح مثيرا للأسى.

أما ميناء الصيد القريب المفتوح للجمهور فإن النشاط فيه قليل، لأن الصيادين لا يستطيعون الصيد إلا في منطقة أقصى عمق لها عشرين كيلومترا بطول القطاع، وإذا اخترقوها فإن مراكبهم تستولي عليها الدوريات الإسرائيلية بلا رحمة، مما أدى إلى أن يصبح السمك نوعا من الطعام الفاخر، وخارج إمكانات الأغلبية العريضة من الجماهير.

يقع مبنى السلطة الوطنية الفلسطينية المتواضع على بعد ٣٠٠ متر من الفندق فيما بين الشاطئ ومربض سيارات واسع، وأمام مدخله يتسامر أعضاء بوليس الأمن الوطني والحرس الرئاسي في تراخ، يفسحون الطريق أمام الزائرين ويحيون الشخصيات التي تدخل للاجتماع بأي "وزير"، أشاهد بين الجالسين على الرصيف المقابل في انتظار السماح لهم بالدخول، مسنا في حوالي السبعين من عمره، له وجه ضامر وشارب كث، يرتدي جلابية رمادية ويعتمر كوفية ناصعة البياض: أعجبت بشكله النبيل وأسفت أنني لم أكن أحمل آلة التصوير لألتقط له صورة، ورغم أن أحد الأصدقاء قدم لي رقم التليفون المباشر لياسر عبد ربه "وزير" الثقافة والإعلام -أحد الرجال المستقلين وذوي المكانة في السلطة الوطنية الفلسطينية- إلا أنني فضلت أن أتقدم بنفسي على قدمي لأرقب طريقة عمل الإدارة الجديدة عن قرب، قدمت جواز سفري ورسالة اعتمادي وكانت مفاجأة أن تركوني أمر، جلست في صالة تطل عليها نصف

دستة من المكاتب حيث كنت أرقب منها دخول وخروج العاملين المكتبيين والسكرتيرات ورجال الإدارة، بعد بعض الوقت أبلغني موظف أن الوزير سوف يستقبلني في الثانية بعد الظهر، قدمت له صورة من رسالة اعتمادي فيقول لحرس الباب أن يتركوني أمر عند عودتي دون مشاكل، وعندما عدت في الثانية بعد الظهر كان الحارسان تغيرا والوزير يحضر اجتماعا لمجلس الوزراء، وعندما طالبت برسالتي، لم يقدم لي أحد تفسيرا عن مكان وجودها: تم إلقاؤها في سلة المهملات.

نصحني أحد الأشخاص أن أعود بعد مضي ساعة: لأن الاجتماع ينفض في الثالثة؛ وبعده ستكون هناك ندوة صحافية، فجلست على الرصيف المقابل لأستمتع وأراقب المكان، المسن ذو المحيا النبيل كان لا يزال يسير جيئة وذهابا، وبصره لا يحيد عن المبنى الصعب المنال، كان هناك جمع من النساء يرغبن في الحديث إلى عرفات: إنهن أرملات أو مطلقات يشتكين من أن بعض رجال البوليس يزعجونهن ليلا، حيث يدورون حول بيوتهن ويدقون جرس الباب، إلا أن أحد رجال البوليس ضخم الجسم يمنعهن بلطف من الاقتراب من المبنى. كان الصحافيون ومصوروا المجلة الأسبوعية المحلية "فلسطين" والعاملون في التليفزيون المحلي الذي يصل بثه بشكل جزئي إلى القطاع ينتظرون انتهاء اجتماع "مجلس الوزراء" وكلهم ثقة في أهميته -برج البث التليفزيوني الذي تبرعت به فرنسا يأكله الصدأ على الحدود في انتظار الموافقة الإسرائيلية- لذلك يتجمعون بماكينات التصوير والميكروفونات الطويلة في انتظار نبيل شعث ليستمعوا إلى تصريحاته، وعندما انتهى الاجتماع، اختفى نبيل شعث في إحدى السيارات الرسمية للسلطة الوطنية الفلسطينية، "وزير" آخر يتجمع حوله الصحافيون وممثلو وسائل الإعلام، إلا أنه لا السيدات ولا المسن المتلفع بالكوفية استطاع أن يقترب منه، وتنطلق عدة سيارات من جديد، فيخبرني صديقي أن ياسر عبد ربه انطلق لتوه إلى أريحا، من مكاني الذي أراقب منه من على الرصيف المقابل رأيت ما يشبه مشهدا فيلينيا (نسبة إلى المخرج السينمائي الإيطالي فيليني).

إنها أمسيتي الأخيرة في غزة، لذلك قررت أن أستغل أضواء المحطة القليلة لأتأمل شيئا خلابا (أم أن محتل الأمس وحامي اليوم قضيا على أي مشهد جميل في القطاع) بعد أن تقطع وسط المدينة يوجد طريق يسير بمحاذاة الشاطئ باتجاه الجنوب، فأتوقف برفقة سامي على شاطئ به مطاعم صغيرة مغلقة، وكان هناك صبيان يستريحان على عربة يجرها حمار، وعدة مساكن تطل على البحر تشير إلى وجود برجوازية لا تزال في بداياتها (مشاريع إقامة

عمارات على الشاطئ لم تنجح كما كان متوقعا لها نظرا لنقص الوسائل المطلوبة، والعراقيل البيروقراطية الإسرائيلية والتنافس الداخلي حول شكل المؤسسة التي سوف تحصل على دعم البلاد المانحة وإدارة عرفات) بعد نزهة قصيرة، عرجنا على طريق شبه خال وقريب من مستوطنة نتزاريم الإسرائيلية، سرنا عليه حتى إلتقينا بحافلة مزدحمة بالأطفال، يرعاهم مدرسوهم للهو واللعب على الشاطئ، كان المشهد جميلا، وبعد أن استنشقنا ملء رئتينا من نسيم البحر المملح، عدنا من حيث أتينا.

فجأة قطعت طريقنا عربة تعج برجال البوليس، أشهروا أسلحتهم الرشاشة في وجوهنا وأجبروني على النزول إلى حافة الطريق، وتم تفتيش التاكسي من أوله إلى آخره بينما أقدم جواز سفري إلى الذي يبدو أنه رئيس المجموعة، ما إن انتهى تفتيش السيارة حتى تمت "دعوة" سامي للصعود إلى العربة وقام على حراستي ثلاثة من الشباب وانطلقنا بأقصى سرعة باتجاه مجهول، يضغط الشاب الذي كان يقود العربة على زر جهاز الراديو لينطلق بأقصى صوت له، كان يبدو على رجال البوليس أنهم منتشون -شباب في العشرينات من أعمارهم- وسرعان ما فهمت السبب، برغم ضوضاء الراديو المزعجة استطعت أن أقتنص بعض الجمل المتقطعة، اعتقدوا أنهم اقتنصوا فريسة ثمينة: رتبة عسكرية إسرائيلية كبيرة، قال لي الذي يقود العربة بنشوة: you are not Spanish (أنت لست إسبانيا). غبطة الذين اعتقلوني أثرت في نفسي؛ فآثرت الصمت: لأنني اعتقدت أنه شيء قاس أن أحرمهم من الاستمتاع بالانتقام. تشق العربة المدينة على طريقة أفلام شيكاغو فيما يطلق السائق مزمار سيارته بفرح على البوابة الأمنية للمعسكر، وهناك قادوني إلى مكتب صغير فيما تكفلت مجموعة أخرى بسامي، كان الاستجواب في البداية جافا، وظل يتحول بمرور الوقت إلى حوار لطيف، يبدو أن تأشيرات الدخول والخروج المتعددة لبلدان عربية وإسلامية على أوراق جواز سفري لفتت نظرهم (وحدث هذا أيضا لبوليس مطار تل أبيب إلى درجة أنهم لم يقبلوا طلبي بعدم ختم جواز سفري حتى لا يفسدوا تأشيرة دخولي اللبنانية، لكن رجل البوليس وضع الخاتم دون أن يرمش له جفن) أثناء التحقيق قررت الحذر ولم ألجأ إلى لهجتي المغربية، لأن هذا ربما كان يمكن أن يعقد الأمور لأن العديد من الإسرائيليين من أصول مغربية يتحدثون بها، أعاد لي الضابط جواز سفري بعد أن تأكدوا من أنني أقيم في الفندق الذي ذكرته لهم.

"نحن نقدم لك اعتذارنا، لأن الإسرائيليين يتسللون إلى هذه المنطقة، منذ أيام قليلة اعتقلنا عشرة منهم بين أشجار برتقال "جير بيت الادات"، ألم تقرأ الصحافة؟ أراد أن يقدم لي شايا، لكني اعتذرت لضيق الوقت وقلت له أنني على موعد مسبق.

ثم قال: "البنطلون الأخضر والجاكتة اللذان ترتديهما جعلا رجالي يخطئون، اعتقدوا أنك عسكري".

عند وداعنا سلمنا على بعض بالأيدي ووعدته أنني سوف أغير ملابسي في المستقبل.

للحديث عن غزة بشكل مفصل أحتاج إلى كتاب كامل، للحديث عن بؤسها وقمعها وإهمالها والشعور بالإهمال والاختناق، وعن إفاقتها العنيفة بعد الآمال التي تبخرت والأحلام التي تحولت إلى مزق.

قال لي أحد المعلمين: "أنظر إلى صبيان المخيمات إنهم يعيشون تحت ضغوط شديدة، بلا عمل ولا تسلية ولا حتى إمكانية الهجرة إلى الخارج وتكوين أسرة، نسبة كبيرة منهم تم تعذيبهم أو تم اعتقالهم خلال الانتفاضة، بعضهم لهم أخوة أو أقارب أو أصدقاء شهداء، وعاشوا في أحيائهم المحاصرة كالحيوانات لأسابيع طويلة، يشعرون أنهم يموتون أحياء وببطء فتتحول قلوبهم إلى قنابل، وفي يوم من الأيام سوف يحملون أي سلاح دون أن تشعر بهم أسرهم ليقوموا بأي عمل إرهابي انتحاري، لم يعد يعنيهم الموت لأنهم يشعرون أنهم موتى".

أترك الحديث عن "عالية" السيدة صاحبة فندق "مارنا هاوس" الذي أقمت فيه في بداية زيارتي لفرصة أخرى، والتي يجب أن يكتب قصة حياتها شخص ما في يوم من الأيام، كملخص لحكاية رحيمة بأبناء هذه المدينة، ودون أن أنتبه، أصابني التشاؤم الذي يخيم على السكان ووضعهم المأساوي وإحساسهم بالاختناق.

أغلقت حقيبتي في اليوم التالي وعدت مع سامي إلى حاجز "إيريز" الحدودي. كان التاكسي الذي يحمل اللوحات الإسرائيلية ينتظرني، ولكنني في هذه المرة أدخل طابور عمال القطاع أمام نوافذ الحاجز الأمني ليتفحصوا جواز سفري ويسمحوا لي بالخروج، ويداخلني إحساس بالإحباط والألم من جراء وضع جيتو غزة المؤلم.

٤- مكاسب السلام؟

عندما وصلت إلى القدس عدت إلى فندقي القديم "الأميركان كولوني" الذي أقمت فيه قبل ست سنوات، فالبار وصالوناته التي تقع في الطابق الأرضي تعتبر نقطة اللقاء الإجبارية للصحافيين والمثقفين الفلسطينيين والسياح المسيسين أو ذوي الاهتمامات العامة -فناؤه مغلق بسبب برد فصل الشتاء- والجديد في الأمر وجود رجال الأعمال الأردنيين -أكثرهم فلسطينيون مقيمون في الأردن- جاءوا إلى القدس الشرقية لدراسة جدوى استثماراتهم التي فتحت "مسيرة السلام" الأبواب أمامها.

يقع الفندق في المنتصف، على الطريق المؤدي إلى حي القنصليات الأوروبية، والطريق الذي يقود إلى الجزء المسور من المدينة القديمة. فندق "الأميركان كولوني" يقع على بعد مئة متر من "أورينت هاوس" (بيت الشرق)، المؤسسة الثقافية الفلسطينية التي تجسد روح المقاومة لسكان القدس ضد سياسة الضم الإجباري، التي تمارسها السلطات الإسرائيلية، ومن الفندق يمكن قطع شارع صلاح الدين سيرا على الأقدام مرورا بكاتدرائية سان جورج، ومعهد "البرايت" لإلقاء نظرة على الحوانيت والمحال التجارية والمكتبات والأكشاك ومكاتب الصرافة. عندما أصل إلى الطريق الذي يدور حول الأسوار يكفي الانحناء باتجاه اليمين وعبور ضجة البيع والشراء للباعة الجائلين، ومحطة الباصات المتهدمة، لأعبر بعد ذلك منتصف الطريق وهبوط السلالم المؤدية إلى باب دمشق الشعبي.

كانت شوارع الأسوار طوال الانتفاضة شبه خالية دائما، حيث تمر بها دوريات جنود الجيش الإسرائيلي برشاشات العوزي وأم-٠٦ وكان السائحون قلة، واليهود المتطرفون الذين يقيمون في المعبد اليهودي المقام في قلب الحي الفلسطيني المسيحي، يسيرون مسلحين أيضا، يصعدون ويهبطون السلالم في جماعات مثيرة، أما المشهد الذي يضم البوابة، كان في يناير ١٩٩٥ اكثر بهجة واستفزازا. المقاهي مزدحمة والباعة ينادون على بضائعهم المعروضة في منتصف السلالم، بينما بعض السائحين فرادى أو جماعات يلتقطون صورا تذكارية للمكان، أو يتطلعون على معروضات الحوانيت ويفاصلون في أثمان المعروضات، أشعر للحظات وكأنني في بيتي: في المناخ الأسري لساحة "جماعة الفنا".

آخذ طريقي باتجاه شارع العويد، فأتعثر في كل لحظة في قس أرثوذكسي أو راهب أرمني، أو رهبان فرانسيسكان أو عضوات في جمعيات البر والإحسان، أو حاخامات أو طلاب في إحدى المدارس القرآنية. يبدو أن خصوبة الثقافات المشتركة بدأت تزدهر من جديد في منطقة اللقاء بين الديانات الثلاثة الكبرى. أتبين بازارا يحمل اسما إسبانيا: "المدينة المقدسة" Ciudad Santa Recuerdos ، حيث ترفرف في مدخله راية لمجموعة عسكرية كولومبية غريبة (من المحتمل أن يكون صاحبه فلسطيني أثرى في ذلك البلد)، لا يزال جنود الجيش الإسرائيلي يقومون على حراسة البيت الذي يحتله أرييل شارون، والمزين بشمعدان يهودي ضخم وعلم إسرائيلي يغطي طول الواجهة، لا يبدو أن أحدا أصبح يعيره أي اهتمام (كانوا يقذفونه بالحجارة من قبل). أما الزائرين الأجانب فإنهم كانوا يختلطون بالمؤمنين الذين يتجهون لأداء فريضة الصلاة في المسجد الأقصى، تحت قبة الصخرة.

قال لي أحد أساتذة جامعة بير زيت وصديق الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش فيما بعد، أن مظهر الهدوء خادع، فعمدة القدس "أيهود اولمرت"، وهو أحد البارزين في الجناح الأكثر تشددا في حزب الليكود يحاول بكل الطرق إغلاق "بيت الشرق" -المقر العام لمنظمة التحرير الفلسطينية وتابعيها -وكذلك كل المؤسسات الثقافية الفلسطينية الأخرى بهدف نقلها إلى غزة وأريحا: لذلك فإن موظفيها يعتبرون هدفا لضغوط وممارسات بيروقراطية (الاستيلاء على الوثائق والتصاريح والاستدعاء للتحقيق في دائرة الأمن العسكرية والتحقيقات، إلخ...). أكمل الإسرائيليون وضاعفوا من حصارهم للمدينة القديمة عن طريق إقامة أحياء متجاورة ترتبط فيما بينها بشبكة طرق، تعزل وتخنق "استحكامات" الخصم القليلة، فيما يحتاج سكان القدس العرب إلى تصاريح خاصة لبناء أو ترميم أو توسيع بيوتهم، وكما ذكر الجغرافي الهولندي "جان دي جونج" -الذي أشار إليه إدوارد سعيد- كم من أرض فضاء يمتلكونها في منطقة يصل قطرها إلى عشرين كيلومترا، تم الاستيلاء عليها بقرارات إدارية. فالمستعمرات الإسرائيلية الجديدة تضيق حلقاتها حول العاصمة، وآخرها تمتد من بير زيت في الشمال حتى قرب الحرم الإبراهيمي في الجنوب، إن القدس الكبرى في طريقها إلى القيام، وتضم حوالي ٢٥ في المئة من الأراضي المحتلة في الضفة الغربية.

بدأت جولتي باتجاه الأراضي التي يسميها المحتل " يهودا والسامرا" في تاكسي يقوده فلسطيني، ويحمل لوحات معدنية إسرائيلية، الطريق الذي يقود إلى رام الله عبرته مرات عديدة في سنوات سابقة برفقة فريق من التليفزيون الإسباني، لا يزال يعاني نفس الازدحام

الذي يجعله أكثر الطرق مرورا في العاصمة، وفي منتصف الطريق أقام الجيش الإسرائيلي نقطة مراقبة ضخمة: السيارات ذات اللوحات الزرقاء الخاصة بالضفة الغربية لا تستطيع الدخول إلى المدينة المقدسة إذا لم تكن تحمل تصريحا خاصا، لذلك السبب فإن الفلسطينيين المصرح لهم بعبور الخط الأخضر لحدود ١٩٤٨ القديمة للعمل في إسرائيل يفضلون ترك سياراتهم في جراج قريب: أما التجار والمسنين والمرضى الذين يحتاجون إلى رعاية صحية، والأطفال المسجلين في مدارس القدس الشرقية، عليهم أن ينتظروا في طوابير طويلة لأداء ما تفرضها عليهم الواجبات الحدودية، قبل أن يتكدسوا في الباصات المزدحمة التي تحمل اللوحات الإسرائيلية، وتقطع المسافة إلى القدس.

وكما ذكرت بحق "سور باولا تيريزا" سكرتيرة لجنة العدالة والسلام المقيمة في رام الله (لو موند ديبلوماتيك عدد مارس ١٩٩٣)، فإن الرقابة والتفتيش يتكرران حتى في الباصات: "حدث أمس أنه بعد معاناة للوصول إلى داخل الباص، تم إيقافنا بعد مئة متر : ليحدث فحص جديد لبطاقات تحقيق الشخصية، يجب أن ترى نظرة الإنسان المنكسر، الذي يقع تحت رحمة جندي يمكنه أن يمزق بطاقته الثمينة التي لا غنى عنها قبل أن يسحبها منه، لتفهم مدى الغضب المتراكم الذي يشعر به الواحد منا أمام كل هذا الإذلال الذي لا بد وان ينفجر في يوم من الأيام في وجه من يتسببون فيه، إن مثل هذا الوضع يجعل من السهل على أي شرارة أن تشعل النار، فبعد أن أجبروا الجميع على مغادرة الباص تم تحريز بطاقة الهوية الخاصة بستة رجال من بينهم السائق... نخرج من رام الله في السادسة صباحا لنصل إلى القدس في التاسعة، ثلاث ساعات لقطع مسافة ١٥ كيلومترا".

على الطرف الآخر من "الحدود" -اللغز الأكبر أن الاحتلال يركز على نشر مستوطناته في دائرة تغطي كل الأرض الفلسطينية المحتلة، إلا أنه يجد نفسه مضطرا إلى الإبقاء على الحدود المعترف بها دوليا من عام ١٩٤٨ إلى عام ١٩٦٧، فأمن إسرائيل محل شك وكذلك أمن ١٤٠ ألف مستوطن يعيشون في ١٤٤ مستوطنة يهودية في الضفة الغربية- تغير المشهد بكامله: مخيم قلندية الفلسطيني القريب من الطريق العام اختفى، فبدون سياجه ولا شوارعه التي تنتشر عليها البراميل البترولية الفارغة ومداخل مراقبته يصبح من العسير العثور عليه، الطريق إلى رام الله يبدو بمظهر نشط بمواقف سياراته وأسواقه الصغيرة ومعارض الأثاث وشركات تأجير وبيع وشراء المباني، ووكالات تأجير السيارات، أما

إيريالات استقبال البث التليفزيوني الفضيه فإنها للعجب تتخذ شكل برج إيفل، ونقاط رقابه الجيش الإسرائيلي خفية، ولا تظهر للعيان في مدخل المدينة.

عاشت رام الله حربا يومية لسنوات طويلة: كانت في حالة إضراب عام لفترة غير محددة، ومحالها وحوانيتها ظلت مغلقة، وشوارعها الخالية كانت ذات مظهر كئيب وميت، وعربات الجيب الإسرائيلية تجوبها من أقصاها إلى أقصاها، فيما كان حراس آخرون يشهرون أسلحتهم من على الأسطح باتجاه المارة القلائل: من النساء والأطفال والعجزة...

أما اليوم، فإن الازدحام يمنع السير في وسط المدينة، والبحث عن مكان للسيارة يكاد يكون مستحيلا، والباعة الجائلون يغطون الأرصفة، والفتيان والفتيات اللاتي يغطين رؤوسهن يتأملون المعروضات التي تغص بها الحوانيت من جميع أنواع أدوات التكنولوجيا الحديثة، وافتتح البنك العربي والبنك الأردني وبنك القاهرة-عمان مقارهم الجديدة، فيما يسعى رأس المال الأردني ويستثمر تحت بصر المحتل المتراخي. واشترى العديد من الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الأردنية أو شيدوا بيوتا وشركات إيمانا منهم بأن رام الله ستكون ما بين يوم وآخر عاصمة للوطن الفلسطيني الصغير، أو الكيان الفلسطيني-الأردني المقبول من إسرائيل، ويحظى برعايتها.

فيما يجد عرفات نفسه مجبرا على التخلي عن طموحه في إنشاء بنك فلسطيني له الحق في إصدار عملة، ويقرر قبول الشيكل الإسرائيلي للتعامل به في قطاعي غزة وأريحا لفترة مؤقتة، فإن الدينار الأردني يغزو الضفة الغربية بقوة بعد توقيع اتفاقيات السلام بين الملك حسين ورابين.

إن استراتيجية العودة الأردنية إلى سيطرتها القديمة تكمل طموحات إسرائيل: إنها تشكل جزءا من السوق المشتركة شرق-أوسطية التي تسعى إليها تل أبيب، وتتمتع بالدعم الكامل للولايات المتحدة، هذه السوق سوف تكون المحرك والروح، فبعد اتفاقية أوسلو وإعلان النوايا في واشنطون، لا يستطيع أحد أن يتهم الملك حسين بأنه حطم "التضامن العربي"، ولا "خان القضية الفلسطينية المقدسة": لأن عرفات سبقه إلى ذلك، وهكذا بحسن نية وعن طيب خاطر فإن المملكة الهاشمية تضع جنودها الاقتصاديين على شاطئ نهر الأردن، فيما يقوم رابين بخنق غزة ويترك السلطة الوطنية الفلسطينية في وضع لا تحسد عليه، فكل يوم يمر يبين أن خيار غزة-أريحا أقل واقعية في مقابل التطور الذي تشهده الحرية السياسية المستقبلية المرتبطة بالأردن، يكشف استطلاع لمعهد الدراسات الفلسطينية في نابلس أن ٤٦ في المئة

من سكان الضفة الغربية المحتلة يؤيدون اتحاد أو كونفيدرالية مع المملكة الهاشمية، مقابل ٥٢ في المئة يدافعون عن إقامة دولة فلسطينية، وفي القدس الشرقية، فإن مؤيدي الكونفيدرالية مع الأردن تصل نسبتهم إلى ٥٦ في المئة نظرا ليأسهم من إمكانية العودة إلى حدود ١٩٤٨، وتعرضهم لكافة أنواع الاضطهاد، ومعاناتهم خلال حياتهم اليومية، وطبقا لما ذكرته صحيفة "جيروزاليم بوست" فإن ١٠ آلاف فلسطيني من سكان العاصمة طلبوا منحهم الجنسية الإسرائيلية، لذلك فان السرور البالغ الذي أعلن به عمدة القدس الذي ينتمي إلى الليكود النبأ لم يستمر طويلا، لأن العدد المتزايد للعرب الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية سلاح ذو حدين، وسوف يشكل تحديات ومشاكل على المدى المتوسط، لا تستطيع إسرائيل مواجهتها.

تعتبر رام الله أفضل مثال على تشكل المشروع الإسرائيلي-الفلسطيني-الأردني، والميكافيلية أو العمى السياسي لرابين: إنها جزيرة من الانتعاش الاقتصادي النسبي المحاط بمستوطنات جاءت ثمرة سياسة الدولة التوسعية، التي تشكل تناقضا حادا للهدف الذي يطلقون عليه "مسيرة السلام".

يتبخر تطبيع الحياة في رام الله فور المرور من تقاطع "جالازون"، حيث شاهدنا في سنوات ماضية تظاهرة مدرسية من التلاميذ قاذفي الحجارة ضد عربات الجيش الإسرائيلي. فبعد كيلومترات قليلة صعودا باتجاه الوادي، يوجد حاجز إسرائيلي يقطع طريقنا: تم قطع المرور على الطريق الرئيسي إلى نابلس. ويجب سلوك اتجاه آخر لطريق جبلي يمر قريبا من بير زيت، ونعود من جديد لنعبر مشهدا متوسطيا من أشجار الزيتون، وحلقات من المشاتل المدرجة والصبار، وعلى قمم الجبال المحيطة هناك استراتيجية واضحة حيث يمتلئ المشهد بمخابئ وأبراج المراقبة التابعة للمستوطنات الأيديولوجية التي تضم مستوطنين جاء أكثرهم من الولايات المتحدة، فيما يقيم الجيش الإسرائيلي حفره في الأرض فيشوه جمالها وتناسقها، ويمد شعابه ليحيط جميع القرى على هيئة خيوط عنكبوت حقيقية، بعد ما يزيد عن عام من اتفاقيات أوسلو، قامت إسرائيل بالاستيلاء على أكثر من ٧٠٠ كيلومتر مربع من الأراضي الفلسطينية، واقتلعت ١٥ ألف شجرة مثمرة لتوسيع مستوطناتها، وتحكم سيطرتها على ٧٣ في المئة من الضفة الغربية لشاطئ نهر الأردن التي احتلتها عام ١٩٦٧، التي تقدر بحوالي ٥٧٠٠ كيلومتر مربع، إضافة إلى أن إدارتها استولت على أكثر من ٨٠ في المئة المياه لاستخدامها في تنفيذ أهدافها الخاصة، ألا يعتبر كل هذا خرقا لاتفاقيات مدريد التي قدمت الولايات المتحدة على أساسها قرضا لإسرائيل بمبلغ عشرة آلاف مليون دولار، شرط

"تجميد" مستوطناتها في غزة والضفة الغربية؟. يبدو أن هذا الموضوع لا يزعج الذين يقررون السياسة على أرض الواقع.

نصل مرة أخرى إلى الطريق العام المؤدي إلى نابلس بعد الدوران حول الجبال، وكان سبب تغيير المسار الذي اكتشفته بعد ذلك يعود إلى مظاهرة لمجموعة من المستوطنين الذين يريدون إقامة مستوطنة في نفس المكان الذي قتل فيه الإسرائيلي "اوفرا فيلكس" في يوم الجمعة السادس من يناير الماضي، كانوا يحملون لافتة تقول: "حيث يراق الدم اليهودي سوف نقيم مستوطنة". رغم أن الإدارة العسكرية ترفض المبادرة -المكان معرض للهجوم في أي وقت- فإن المستوطنين أقاموا عدة خيام على بعد مئة متر من الحاجز الذي يقطع الطريق.

حاصر الجيش الإسرائيلي قرية "بيت فريك" طوال أسبوعين خلال شهر يونيو عام ١٩٨٨، وذلك بسبب رفض السكان دفع الضرائب المقررة عليهم وكون القرية مسقط رأس "الإرهابي" الذي اغتال عمدة نابلس، المتهم بالتعاون مع الاحتلال، وفي ليلة السابع عشر قام الجيش الإسرائيلي باختراق القرية بعربات الجيب والشاحنات وطائرة مروحية، وانتهت العملية بعدد كبير من الجرحى ومقتل الشاب "حسين أحمد مليتات"، الذي مات على أثر رصاصة أطلقت عليه من الخلف فيما يبدو، كنت التقطت بكاميرات التليفزيون الإسباني لقطة لقبره المقام بجوار المسجد، والمزين بصورته والأعلام الفلسطينية قبل أن أقدم العزاء لأسرته في مسكنها بأعلى القرية. أشرت على السائق أن يسير باتجاه طريق القرية، وأن يحترس لأنه مليء بالحفر مثل كل الطرق الفلسطينية المهملة، والمحاطة بشبكة من أحدث الطرق السريعة التي تربط بين كبريات المستوطنات والمستوطنات الصغيرة المقامة فيما حولها، بعد المرور بأماكن تجميع القمامة -الإسرائيليون يكومون قمامتهم في المناطق المزمع إقامة منطقة الحكم الذاتي فيها مستقبلا- نعبر حقول المزروعات والفاكهة الواسعة قبل أن ندخل القرية التي لا تزال في ذاكرتي رغم مرور السنوات، لكن في ميدان القرية الذي صورنا فيه مظاهرة الاحتجاج قام مبنيان حديثان، وكان المسجد مغلقا للترميم وكانت بعض الحوانيت مفتوحة، وسيارات تشير إلى أن الحياة عادت إلى مسارها الطبيعي، وعودة الناس إلى التنفس بهدوء، بحثت عن أسرة الفتى: قال لي صبي أن أباه في الحقل وانطلق ليخبره، فبقيت إلى جوار المكان الذي سقط فيه الفتى، وبعد دقائق قليلة جاء "حسين أحمد عودة"، مرتديا جاكتة وجلابية رماديتين، ومتلفعا بالكوفية التقليدية ذات المربعات السوداء والبيضاء، شعر بالراحة وهو

يتعرف علي فتعانقنا بانفعال، قال إن الحياة مستمرة، وإن القرية شهدت موت ستة آخرين من الشباب، رغم كل هذا فالأوضاع هادئة، والناس تفرغت لأشغالها والجيش الإسرائيلي يدعهم يعيشون في سلام، قدم لنا الشاي وعرض علينا تناول الغداء، فقلت له أنه علي أن أواصل الطريق باتجاه نابلس، ووعدته أن أرسل له نسخة من فيديو الفيلم، وافترقنا بالدعوة بالتمنيات الطيبة لكل منا.

حملنا الطريق بسرعة إلى مركز المدينة التي تشبه رام الله، فشوارعها مليئة بالنشاط والازدحام كبير، وأرى من جديد أن الهدوء يغطي على القلق الخفي، ومنحنيات السوق تذكرني بفاس ومراكش: فوضى المكان العام والخاص، الاقتراب من الناس والأشياء، وترتسم على كل وجه حكايته في الحياة: صعوبة السنوات التي عاشها.

انقشع السراب فجأة، فعند عودتنا إلى الميدان حيث تركنا السيارة سمعنا صرخات وعويل أبواق سيارات البوليس، تبين أن صبيا قذف عسكريا إسرائيليا بحجر، فقام الجنود بالقبض على فتى آخر لا ذنب له، وطرحوه أرضا وطحنوه بأقدامهم، ثم جرجروه إلى عربة الجيب، حيث بقي مكبلا منكفئا على وجهه في انتظار أن تصل قوات أخرى، كان الناس يرقبون المشهد من مسافة حذرة، ولم يقترب من الجنود سوى رجل قصير أصلع الرأس، حاول مناقشة الجنود فأبعدوه بعنف، بعد قليل وصلت نصف دستة من عربات الجيب: انطلق منها جنود يحملون المدافع الرشاشة وأجبروا المارة على الابتعاد، وعندما انطلقوا بفريستهم اقتربت لأتحدث مع الرجل القصير الأصلع: فشرح لي أحدهم باللغة الإنجليزية أن الرجل أبوه، أنا أؤكد براءته وأقوم بذلك كتابة، وأوقع على هذا باسمي وعنواني، رجتني الأسرة – كانت أم المقبوض عليه وشقيقته وصلتا لتوهما– أن أذهب إلى المعسكر لأدلي بشهادتي، ذهبت برفقة المترجم الذي يحدثني بالإنجليزية إلى البوابة – تعلمت بخبرتي أن أخرس عربيتي– شرحنا الأمر للحراس، وبعد انتظار تركنا ندخل عبر جهاز الكشف عن المعادن لندلف إلى فناء يضم مكاتب البوليس، وشرحت لهم هناك سبب زيارتي، فقام فتى يهودي أسمر واضح أنه من أصول عربية، ونهرني باللغة العبرية بعنف، كانت جبهته بها آثار دماء بسيطة: إنه الشخص الذي أصيب بضربة الحجر، أردت أن أرد عليه بالإنجليزية لكن رفيقه منعني قائلا: "يقول أنه إذا لم تدل بشهادتك بالعبرية فإنه لا قيمة لها". كان وجهه ينضح بالكراهية، فقمت على الفور بعقد مقارنة بينه وبين سائق عربة مجموعة البوليس الفلسطيني الذين "اعتقلوني" في غزة: يمكن القول أنهما توأمان!. كيف يمكن أن تكون هناك مثل هذه

الهوة من عدم الإدراك والحقد بين شباب يتشابهون كثيرا؟. سحرني التشابه بين الموقفين: فلا شيء يكشف عن الملامح الخاصة جدا بين الأشقاء أكثر من مثل هذه المواجهة.

المرور في الأراضي الفلسطينية المحتلة هو الدخول في عالم من الأسرار: إنه خليط مقلق من "العادية والغرابة والتداخل والتباعد" الذي يتحدث عنه "كامل منصور" في دراسته القصيرة المنشورة في "مجلة الدراسات الفلسطينية"، فالملابس واللهجة ولوحة السيارة تعتبر من مكونات الشخصية التي تجبر من يعيشون وضعا متطرفا أن يتخذوا موقفا أو آخر، أو الابتعاد عن كليهما. فإذا كانت اللوحة المعدنية الصفراء تدل على أن السيارة إسرائيلية، فإن سائقي يهتم كثيرا أن يضع اسم شركة تأجير السيارات العربية ظاهرا للعيان عندما نمر بقرى ومدن فلسطينية حتى لو لم يكن هناك خطر من أن يقذفونا بالحجارة كما كان يحدث من قبل. ولنفس السبب يخفي اسم الشركة عندما نقترب من حاجز مراقبة إسرائيلي، ولهجتي المغربية يمكن أن تجعلهم يخطئوني بيهودي مهاجر من المغرب، لذلك يجب أن أمتنع عن الحديث بهذه اللهجة مع فلسطينيين غير معروفين لي حتى لا أفقد ثقتهم، وهذه اللهجة ذاتها عندما أستخدمها مع الأصدقاء تسهل لي على العكس من ذلك الدخول إلى مناطق مشتركة وتحطم الحواجز، إن أي غريب بنظارة شمس وآلة تصوير سيجد من يمنعه من زيارة الحرم الشريف في أوقات الصلاة، أما إذا كان بلا نظارة شمسية وآلة تصوير، ويحمل صحيفة القدس بشكل ظاهر، بالإضافة إلى مسبحة في يده سوف يدخل المكان دون عوائق.

إن فهم علم الدلالات يبدو شيئا مقلقا.

ما هي الحالة الحدودية؟ الشخص أم العلامة؟

٥- قص ولصق.

السفر إلى الجنوب باتجاه الخليل يتيح للمتفرج رؤية الدراما الفلسطينية بوضوح، فإضافة إلى الأوضاع المعروفة؛ هناك أشيا تستجد تضاف إلى مسببات القلق.

يوصلنا الطريق الجانبي الذي يخترق كروم الزيتون إلى التقاطع مع الطريق العام الممتد فيما وراء الخليل، والذي يقطع صحراء النقب كالسكين، الفيلات القديمة الرومانتيكية التي كانت يمتلكها برجوازيو القدس الشرقية تشغلها الآن عائلات إسرائيلية، وبذلك أصبح الحي يتمتع بالتجانس العرقي طبقا لخطط الضم التي يمارسها الليكود، والتي ينفذها العمدة "أيهود اولميرت" بحرص شديد، وتقوم على بعد كيلومترات قليلة نقاط تفتيش القدس الكبرى بغربلة السيارات، فتفتح الطريق أمام السيارات التي تحمل الأرقام الأردنية وسيارات الفلسطينيين الذين يذهبون للعمل أو لزيارة المدينة المقدسة بتصريح خاص، يمرق التاكسي الذي أستقله دون عقبات بين الطوابير الطويلة الصامتة والخانعة، التي تحمل اللوحات الزرقاء، فلم يطلب منا أحد هوياتنا لا في إسرائيل ولا في الأراضي المحتلة، فلغة الدلالات تساعدنا على التعامل مع الجانبين، وأتساءل: ماذا يحدث لو كان لون بشرتي أكثر سمرة؛ ولحيتي طويلة؟.

بعد المرور ببيت لحم التي تقطنها أغلبية مسيحية فلسطينية؛ ألمح حيا كاملا محاطا بشباك معدنية، ومدخله من ناحية الطريق العام مسدود ببراميل فارغة يذكرني بأيام الانتفاضة، أتوقف لأتعرف على ما يحدث؛ وأمرق إلى داخل الحي بسهولة متخذا ممرا جانبيا، حيث لا يوجد بوليس ولا حراسة إسرائيلية، يقولون إن المنطقة مطبق عليها العقاب الجماعي: بعض الصبية اعتاد على قذف الحجارة ضد الدوريات التي تمر على الطريق مستغلين توقفها، والآن فإن طريق الوصول إلى الحي يتطلب الالتفاف حول الهضبة التي يقوم الحي على سفحها. قال الفتي الذي كان يرشدني: "أن دورية ليلية هاجمت بيته وضربته وهددت أسرته".

نخترق مشاهد تشبه بيوت منطقة أليكانتي (الواقعة على شواطئ البحر المتوسط الإسبانية) من جديد، حيث توجد مدرجات شيدت بعناية؛ فتبدو كشواطئ أو طبقات صخرية

جيولوجية مرسومة على خارطة بدرجات متعددة من اللون الطفلي. كانت حوانيت قريه "الخضر" مغلقة. وعدد من سيارات الجيب التابعة للجيش الإسرائيلي تحرس مفترق الطرق، لأن مستوطني مستوطنة "افرات" القريبة احتلوا أراض جديدة وقطعوا الأشجار. شاهدت في قناة التليفزيون الرسمية صورا للمواجهات الكلامية وتبادل الشتائم تحت سمع وبصر الجنود الذين يفصلون بين المتنازعين.

تمتد المستوطنات المقامة أو التي لا تزال تحت الإنشاء بطول الطريق، ببيوتها سابقة التجهيز ذات الأسقف الحمراء، وسيارات القوافل المعدة للإقامة المؤقتة للمهاجرين القادمين من روسيا والولايات المتحدة ، وكذلك توجد أبراج مراقبة وبوابات وأسلاك شائكة لمستوطنات مثل: نيفيه دانييل، وإليعازر، وإيفرات، وروش تزوريم، وآلون شيفات وكفر إتزيون.

نظرة واحدة إلى الضفة الغربية تكشف عن تركيبتها المثيرة، فالأسلاك الشائكة تحيط بالمستوطنات كما تحيط بالقواعد العسكرية والمناطق الاستراتيجية، فهي تحمي وتفصل، توحد بين مناطق منفصلة وتفصل بين مناطق متلاحمة، وتنسج متاهة من الجزر التي تتنافر وتتجاذب، يصبح في بعض الأماكن من الصعب التفريق بين ما تحيط به أو تحظره، أو بين ما بداخلها وما بخارجها، إنه نظام معقد من الدوائر بتشعبات رفيعة تعلن عن رغبة المحتل في تقطيع أوصال الأراضي إلى أجزاء صغيرة وذرات تبدو متراكمة، ومع ذلك فإنها تتجاهل بعضها البعض.

كنت أكتب هذه السطور عندما كانت الصحافة تعلن عن حادث نتانيا الإرهابي الدموي الذي قتل فيه ١٩ إسرائيليا، فالشعور الناتج عن هذه المذبحة يزيد من حدة المواجهة بين الشعبين، وعندما يعلن إسحاق رابين أنه من أجل القضاء على هذه الهجمات الانتحارية التي يقوم بها رجال ملغومون، فإن "الحل الوحيد يكمن في الفصل التام بين إسرائيل والأراضي (المحتلة)" فإنه يعلن حقيقة كبرى، يجب الفصل بين الفلسطينيين وبين الإسرائيليين إذا كانوا يتوقون إلى الحياة معا؛ واقتسام الأرض والموارد الطبيعية بعدالة في المستعمرة البريطانية القديمة، لكن، كيف يمكن إقامة هذا الفصل إذا كانت سياسة إقامة المستوطنات في غزة والضفة الغربية، ومضاعفة نقاط التصادم والتقسيم تجعل ذلك مستحيلا؟. كيف يمكن الحفاظ على أمن الإسرائيليين على الطرق المتشابكة التي تقطع أراض معادية لها؟. هل يجب وضع

حارس كل مئة متر منها؟. كيف يمكن تفادي ان يقوم مجهول بإطلاق النار عليهم من مرتفع قريب؟.

اعتذارات عرفات المتكررة كلما حدث هجوم "إرهابي" تعتبر منطقية والتزاما بما يدعى باسم "مسيرة السلام" ، لكن هذا الاهتمام والقلق بشأن أمن الإسرائيليين الذي يعتبر الموضوع الرئيسي الدائم في اجتماعاته مع رابين وبيريز يجب أن يقابلها أيضا وبشكل علني القلق على حياة وعمل وكرامة الفلسطينيين، وهذا لم يحدث مطلقا من جانب المحاورين الإسرائيليين الذين يطالبون من موقف القوة بضمانات لا يمكن أن تؤتي ثمارها ما لم تكن متبادلة بين الطرفين، لأنه ما لم توقف إسرائيل سياستها القائمة على استمرار التوسع في الاستيطان، والامتناع عن استخدام "مسيرة السلام" لمد احتلالها بوسائل أخرى، فإن التشاؤم والكراهية المنتشرين بين أوساط واسعة من الشعبين سوف تتفاقم.

الدخول إلى "الخليل"؛ يضعني فجأة في مناخ توتر سنوات الانتفاضة، فالحوانيت والمتاجر كانت مغلقة تنفيذا لإعلان الإضراب العام احتجاجا ضد استفزازات المستوطنين المتشددين المتحصنين في وسط المدينة، ولم يكن هناك سوى الصيدليات وحوانيت الفاكهة والخضروات التي كانت لا تزال تفتح أبوابها، أقوم بجولة في الطرف الآخر الجبلي من المدينة الذي يضم البيوت التي استولى عليها واحتلها المستوطنون بالقوة، والتي يمكن التعرف عليها من أول وهلة لوجود الجنود المسلحين بمدافعهم الرشاشة على أسطحها وشرفاتها بشكل ظاهر، فيما أغلقت الحوانيت القريبة من المقابر أبوابها وتم إغلاق الشوارع بالبراميل، وبعد حوار قصير مع السائق سمح الجنود بمرور التاكسي.

المسجد الكبير الذي يضم مقابر الأنبياء والتي يجلها اليهود والمسيحيون والمسلمون، مبنى مهيب من الحجر الطفلي متعدد الشرفات والقباب يشبه بعض الكنائس والكاتدرائيات الإسبانية، يشي مزيجه المعماري عن وجود التعايش السلمي بين المؤمنين بالديانات الثلاثة خلال قرون عديدة، شرفته مربعة وبها فتحة صغيرة مخصصة للمؤذن، وله قبة صغيرة مزينة بالجمور (ثلاث كرات مذهبة على هيئة هلال).

منذ وقوع مذبحة ٢٥ فبراير ١٩٩٤، والدخول إلى المقام يخضع لنظام فرز معقد: المسجد مقسم إلى جزئين منفصلين بإحكام، يدخل اليهود من السلم الرئيسي وعليهم أن يسلموا أسلحتهم قبل المرور عبر جهاز الكشف عن الأدوات المعدنية التابع للجيش الإسرائيلي، أمرق برفقة مجموعة من اليهود الاشكناز المهاجرين من الولايات المتحدة لأشاهد معهم مقبرة النبي

"إبراهام" أو "إبراهيم" الذي تلتف مقبرته بكتان أخضر مزين بآيات قرآنية، والزائر اليهودي يمكنه أن يشاهده من خلال باب من القضبان مغلق بقفل، وعلى مسافة قريبة أقام الإسرائيليون في فناء المسجد معبدا صغيرا حيث يتلو الطلاب صلواتهم، في الغرفة الأخرى من الفناء عدة سيدات يجلسن في صفين من المقاعد المستطيلة، يؤدين صلواتهن في خشوع أمام باب آخر من القضبان: أمام مقبرة سارة، بعد تناول جرعة سريعة من نافورة الاغتسال الصغيرة ، التي تشير قبتها الخضراء وهلالها إلى آثار عبث أحد المتطرفين، أعود أدراجي من تحت السلالم وأستدير باتجاه نقطة تفتيش الجيش الإسرائيلي الرئيسية، لأصعد عبر السلم المخصص للمسلمين، كان هناك جندي يراقب المدخل حيث يوجد جهاز الكشف عن المعادن، فأندس بين المصلين في المسجد من المكان نفسه الذي استطاع "باروش غولدشتاين" أن يمر منه بتواطؤ من أحد جنود أو ضباط الجيش الإسرائيلي، ليفرغ بعد ذلك رصاصات مدفعه الرشاش في الحضور أثناء الصلاة فيقتل ٢٩ شخصا، قبل أن يسقط مضرجا بدماء جروح إصابته، أتوجه إلى المحراب ذي الأعمدة الرخامية برفقة مرشد، فأشاهد المنبر الخشبي المصنوع من خشب الأرز، والحوائط الخضراء وأفاريز الأعمدة الحجرية النبيلة المطعمة بأحجار بيضاء وسوداء وطفلية، أما مقبرة النبي إبراهيم فيمكن رؤيتها عبر بوابة من القضبان شبيهة بتلك التي تقع على الجانب اليهودي من المسجد، المخلصون للنبي إبراهيم وزوجته يؤدون صلواتهم متجاهلين وجود المصلين الذين ينتمون إلى الطائفة الأخرى على بعد أمتار قليلة منهم، إنه التقارب والنفي، ما لنا وما لهم، الذي يرمز هنا أكثر من أي مكان آخر عن ضغينة وعناد الإسرائيليين والفلسطينيين، وصعوبة أو استحالة تقسيم الإرث الثقافي والديني المشترك، إن وضعي كشخص على الحياد وإمكانية أن أشبع رغبتي في حب الاستطلاع على الجانبين، تسمح لي بأن أعيد رسم المشهد الأصلي للمسجد، وضعه التقسيمي الحالي، كيف يمكن الخروج بسلام من حالة الانفصام اليومي هذه؟.

تتابع الصحافة ووسائل الإعلام الغربية الأخرى، باهتمام وخوف، انتشار ظاهرة الأصولية الإسلامية من المغرب وحتى إندونيسيا، لكنها لا تشير إلا من بعيد إلى ظواهر أصولية أخرى ليست أقل أهمية ولا إثارة للقلق : الأصولية اليهودية والهندوسية وظواهر أصولية الكنيسة الأرثوذكسية الصربية واليونانية، إن الجريمة التي ارتكبها باروش غولدشتاين لم تكن عملا من أعمال شخص "مختل عقليا"؛ كما حاولت أن تشير المحكمة التي حققت في المذبحة: إنه نتيجة لتيار أيديولوجي للصهيونية المتطرفة نابع من أصول أميريكية، ومشرب

في الوقت نفسه بالماسونية المتوارثة من Pilgrims ، المشبعة بفكرة القدر المحتوم المعلن ومناخ العنف للمجتمع "المنعزل" (الجيتو) في المدن الكبرى التي تعيشها الولايات المتحدة اليوم، وكتب حول هذا الموضوع الكاتب "سانشيث فيرلوسيو" دراسة (موسى من الدرجة الثالثة - جريدة الباييس- ٣ نوفمبر ١٩٩١)، حلل فيها الخطوات التي مرت بها عبر الولايات المتحدة فكرة التصوف الاستعماري للبروتستانتية، الذين كانوا يرون في الهنود في أفضل الأحوال "أناس لا حاجة إلى وجودهم، وفي أسوأ الأحوال أشباح غير مقبولين ويجب مطاردتهم واستعبادهم وتمزيقهم". والمستوطنون اليهود الذين جاءوا من الولايات المتحدة وسكنوا مستوطنات الضفة الغربية من هذه الجماعات المتطرفة، تماما مثل الخام الشهير "كاهانا"، إنهم يمدون سيطرتهم إلى العديد من المستوطنات، ولديهم قناعة بفكرة الاختيار الإلهي والحتمية التاريخية، إضافة إلى أن توازن القوة الحالي في صالح إسرائيل: لذلك لا يدهشهم وجود محميات "جيتو" فلسطينية، ولا يصدمهم أنهم نشأوا في التجاور والمواجهة وهم الذين عاشوا في مناطق منعزلة منتشرة في واشنطون، وشيكاغو ونيويورك. والغريب أن قناعاتهم الدينية تكاد تتطابق مع قناعات المنتمين إلى حماس والجهاد الإسلامي. إن صورة "البطل" باروش غولشتاين معلقة في العديد من المستوطنات المنتشرة في الأراضي المحتلة، تماما كصورة "الشهيد" أيمن ردحي المعلقة في مخيمات اللاجئين في غزة، إن السلام الدائم والعادل سيكون مستحيلا بدون المواجهة القاتلة لهذين المتطرفين المتناحرين.

تعيش الخليل في حالة مواجهة شبه دائمة منذ حادث الحرم الإبراهيمي، فالمتطرفون اليهود الذين يقيمون في وسط المدينة ضاعفوا من استفزازاتهم. والتحرشات المستمرة بين سكان المدينة وجنود الجيش الإسرائيلي تسببت في مقتل شخص وجرح ١٩ من الفلسطينيين خلال المواجهة التي حدثت يوم ١٦ مايو الماضي، وبعدها بيومين قام أعضاء من حماس باغتيال مستوطنين اثنين وإصابة ثالث بإصابات قاتلة، ورغم وجود مراقبين دوليين فإن الوضع يسير من سيء إلى أسوأ: مظاهرات عنيفة، وحظر تجول، وإضراب عام، أعادت المدينة إلى الأوضاع التي عاشتها خلال الانتفاضة، ورغم أنه خلال زيارتي لم تقع أحداث خطيرة -شهدت القبض على عدة شباب وتفتيشهم- فإن التوتر ظاهر للعيان، والجيش الإسرائيلي يزيل الشعارات المعادية لإسرائيل المكتوبة على بوابات الحوانيت والمتاجر المعدنية، إلا أنها سرعان ما تظهر من جديد، ولأن الخليل لم تعد تفتح اليوم الشهية إلى تأمل مناظرها وآثارها القديمة قررنا العودة إلى القدس.

في مسيرة الذهاب اقنعتني نقطة تفتيش للجيش الإسرائيلي على مفترق الطرق المؤدي إلى قرية "بيت عمر" الفلسطينية بأن شيئا غير طيب يحدث فيها، وفي طريق العودة كانت نقطة التفتيش تم رفعها، لكني أقرر تغيير مساري لألقي نظرة على المكان، وهناك فشلنا في العثور على مقهى لتناول كوب من الشاي، وفي الميدان الرئيسي، اقترب منا بعض المتسكعين بهدف إشباع رغبتهم في حب الاستطلاع، وسألوا السائق عن هويتي، وقام رجل نحيل القامة في الثلاثينيات من عمره باستضافتنا في بيته، فذهبنا بالسيارة إليه، برفقة صديق له أصغر سنا، يرتدي الجينز وجاكتة خضراء ويلف حول رقبته ولحيته المشذبة كوفية مربعات سوداء وبيضاء، وردا على سؤالي حول ما حدث أمس الثامن من يناير ١٩٩٥، يقول صاحب البيت: دخلت قوات الشين بيت (المخابرات الإسرائيلية) القرية دون أي سبب ظاهر، ومنعت مرور الأفراد والسيارات فيما بين المسجد ومكتب البريد. لا أعرف إن كانوا يبحثون عن سبب للاحتكاك بنا أم يريدون تخويفنا، والحقيقة أنهم أصدروا أوامرهم بإخلاء الأرصفة وأصيب صبيان بجروح من الرصاص المطاطي، أحدهما في الثامنة من عمره اسمه "سري حسن عوض" أصيب في ساقه ويرقد الآن في مستشفى الخليل، والآخر فوزي فيصل في العشرين من عمره حاول أن يسعف الصغير فأصيب برصاصة في رأسه، ونقل إلى المستشفى أيضا، وحتى الآن لا نعرف سبب قدوم هؤلاء ليعتدوا علينا بهذه الطريقة الوحشية، وقمت أمس بإبلاغ صحيفة النهار بالنبأ، ولكنها لم تنشره".

بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث في حديقة البيت شرح لي الفتى ذو اللحية والجينز، بأن مثل هذا النوع من الغارات التي يسمونها "وقائية" تحدث بشكل شبه دائم، رغم اتفاقيات السلام، وأنه وصديقه سجنا طوال فترة الانتفاضة، وغير مصرح لهما بزيارة القدس، ويعيشان الآن من ممارسة الزراعة في الحقل، ويقول أنهما قانعان لأن غيرهما يعيش ظروفا أسوأ بكثير.

المواجهات اليومية بين سكان قرية "الخضر" ومستوطني "افرات" لا تزال مستمرة، الفلسطينيون الذين يلقون تأييدا من أعضاء الحركة الإسرائيلية "السلام الآن"، أرادوا السير في مظاهرة احتجاج، إلا أن ضابطا من الجيش الإسرائيلي أقنعهم بالعدول عن هذه المحاولة، وكان هناك عدد من الخطباء الفلسطينيين والإسرائيليين يلقون كلماتهم أمام حوالي مئة من المتظاهرين عبر مكبرات الصوت، وبعض كاميرات وميكرفونات التليفزيون والإذاعات الأجنبية تسجل التظاهرة، تبادلت الحديث مع مراسل التليفزيون الإسباني "انتينا-٣" وفتاة

إسرائيلية تنسق عمليات الدعم للمزارعين المهددة أراضيهم بالانتزاع. تقول الفتاة بخشونة "رابين يواصل سياسة الليكود، إنه يمارس إذلال الفلسطينيين، كيف يمكن الحديث عن السلام إذا كان الاحتلال مستمرا في التوسع؟. إن هذه السياسة انتحارية على المدى البعيد، كيف يمكن أن تستغرب أن يقوم الفلسطينيون بالانتقام، ويرسلون بالانتحاريين إلى مدننا؟.

بعد أسبوعين من صدور هذه الكلمات، جاءت المذبحة التي حدثت في "نتانيا" لتؤكد حقيقة ما قالته.

٦- الحلم والكابوس.

هل يمكن الحديث عن السلام منذ إعلان واشنطون المهيب في ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، في وقت قتل فيه الجيش الإسرائيلي والمستوطنون أكثر من ٢٠٠ ألف فلسطيني، وتمت إزالة أكثر من مئة منزل كنوع من العقاب، وانتزاع ١٥ ألف شجرة لإقامة المزيد من المستوطنات، مقابل بضع عشرات من المدنيين والعسكريين الإسرائيليين الذين راحوا ضحية للهجمات الانتحارية كما حدث في تل أبيب ونتانيا؟.

هذا التساؤل الذي يطرحه الرأي العام في الجانبين يجد كل يوم مؤيدين أقل بين الإسرائيليين والفلسطينيين الذين يجيبون عنه بالإيجاب. إن مشاهد الحزن الوطني بعد الهجوم الذي وقع في نتانيا وفرحة شباب غزة التي لم يفلحوا في إخفائها، أثناء تجمعهم أمام بيوت عائلات الرجال الذين قاموا بهذا الهجوم الانتحاري، تبين مدى الهوة التي تفصل الشعبين - المحتل والواقع تحت الاحتلال- وبدلا من أن تضيق فإنها تتسع، إننا نشهد السقوط في هوة الكراهية بلا حدود بسبب الغرور وقصر النظر الإسرائيلي وتخاذل وضعف عرفات.

إن موقف المثقفين الفلسطينيين المتحفظ أو الرافض بوضوح "مسيرة السلام"، يزداد كلما ابتعدت هذه المسيرة عن طريقها الذي بدأته في مدريد، حتى وصلت إلى المزيد من التنازلات التي يقدمها عرفات دون مقابل، والتي يمكن أن تقضي على اتفاقيات أوسلو والقاهرة، إن توقيع اتفاقيات أوسلو أثارت أزمة داخلية في منظمة الزعيم الفلسطيني، حيث قاطع "فاروق قدومي" الذي كان "وزيرا للخارجية" أثناء فترة تونس، اجتماعات اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، إضافة إلى "أبو مازن" رغم أنه من الموقعين على الاتفاقيات. وشيئا فشيئا تخلى عنها العديد من المفاوضين المستقلين مثل حنان عشراوي وحيدر عبدالشافي، إلخ...، وأعلنوا أن السلام الحقيقي يحتاج إلى حد أدنى من المساواة والتوازن، إن استقالة الشاعر "محمود درويش" من المجلس الوطني الفلسطيني وانتقادات "إدوارد سعيد" العنيفة (العضو السابق في المجلس) ضد "استسلام" عرفات و"نهجه الاستبدادي"- تكشف عن الانفصال المتزايد بين الزعيم وليس بين شباب غزة المهمشين الذين اكتسبتهم حماس إلى جانبها فقط؛ بل الأخطر من هذا ابتعاد عرفات عن الصفوة الفلسطينية في الداخل والشتات، الذين يتهمونه بالتخلي عن قرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة (٢٤٢ و٣٣٨) التي كانت

تعتبر المرتكز الرئيسي لـ"مسيرة السلام". والموقعون منهم على وثيقة بزعامة حيدر عبدالشافي وصلوا إلى نتيجة مفادها أن القيادة "العرفاتية" في أوسلو والقاهرة "تمنح الشرعية للأعمال المنافية لهذه الاتفاقيات، مثل إقامة المستوطنات الإسرائيلية والاستيلاء على الأراضي وضم وتهويد القدس "الشرقية"، وعزلها عن باقي الضفة الغربية، وتكريس السيطرة اليهودية في الأراضي المحتلة". إن تطابق رأي الأحزاب العلمانية المعارضة المنتمية إلى جبهة الرفض مع رأي أغلبية المثقفين الفلسطينيين الذين كانوا قريبين من منظمة التحرير الفلسطينية حتى وقت قريب، واتهامهم عرفات وجماعته بأنهم باعوا الأهداف التاريخية للمقاومة بثمن بخس، هذه الأهداف التي تتمثل في عودة ثلاثة ملايين لاجئ إلى بيوتهم أو الحصول على تعويضات مناسبة عنها، العودة إلى الحدود المعترف بها دوليا لتقسيم ١٩٤٨، وإقامة دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس الشرقية، ويجب أن يضاف إلى هذه الأهداف التي تخلى عنها عرفات كما يقول "إدوارد سعيد" "التخلي عن الانتفاضة وفكرة المقاومة المسلحة، هذا إذا لم نتحدث عن ذكر ما دمرته واستولت عليه إسرائيل منذ عام ١٩٤٨؛ دون أن تتنازل عن أي شيء".

بينما يفتح الفلسطينيون عيونهم -كما تقول عجوز فلسطينية تعتز بنفسها- على النكبة الثالثة في نصف القرن الأخير؛ فإن الإسرائيليين يتغنون بالنصر، والاتفاقيات الموقعة في عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ تعتبر صيغة جديدة مع تعديلات طفيفة لخطة السلام الشهيرة، التي قدمها نائب رئيس الوزراء الإسرائيلي "إيجال آلون" بعد قليل من الانتصار الإسرائيلي في حرب الأيام الستة (١٩٦٧)، حيث صرح شيمون بيريز بعد التوقيع: "هم الذين غيروا مواقفهم لا نحن". إن هذه الفرحة تعود إلى النتائج الرائعة التي تحققت وتقضي على قرارات الأمم المتحدة الصادرة حتى عام ١٩٩٠، والتي تطالب بحل سلمي للصراع في ظل الوجود والاعتراف المتبادل بين الدولتين. ففي أوسلو والقاهرة تم القضاء على الدولة الفلسطينية وحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني، إسرائيل لا تزال تمتلك السيطرة الكاملة على وادي نهر الأردن، والحدود الخارجية للسلطة الوطنية الفلسطينية، والمستوطنات وشبكة الطرق التي تربط فيما بينها، وتسيطر على القدس الكبرى التي يطالب الكنيست منفردا بأن تكون "العاصمة الموحدة والأبدية للدولة اليهودية". وكما كتب "ميرون بينفينيستي" في صحيفة "هآرتس" الإسرائيلية بعد اجتماع القاهرة الذي عقد في مايو الماضي: "إن قراءة متأنية لمئات الصفحات التي تضمها الاتفاقية لا تترك مجالا للشك في من هو المنتصر ومن المهزوم، فمن خلال

محتوى العبارات والتعميمات المقصودة ومئات الفصول والشروح والملاحق والبروتوكولات، يمكن التوصل بوضوح إلى أن النصر الإسرائيلي كان مطلقا والهزيمة الفلسطينية كانت قاتلة"؛ ومكافأة على "مرونة" رابين و"تمسكه بالسلام العادل والمتوازن" فإن الولايات المتحدة قدمت ستة مليارات من الدولارات مساعدة لإسرائيل.

والسؤال الذي يطرحه العديد من الفلسطينيين حول كيف ولماذا وافق الزعيم السابق للفدائيين على اتفاقيات "تصفي بثمن بخس" -بتعبير عزمي بشارة أستاذ الفلسفة بجامعة بير زيت- ٤٥ عاما من الكفاح، لا يجد إجابة سهلة، إن عزلة منظمة التحرير الفلسطينية دوليا بعد حرب الخليج، والاختفاء المفاجئ للاتحاد السوفييتي حليفه الأساسي ليسا السبب الرئيسي فيما حدث، إذ استطاع أن يتخطى خمس حروب وهزائم وحصارات ومنافي متكررة، وأن يرفع علم الوطن عاليا، هل السبب هو الانفصال المتزايد بين أسلوب المقاومة الرسمية والواقع الجديد الذي خلقه المحتل في وطنه، دفعته إلى البحث عن "سلام الشجعان" الخادع؟. أم أن التطويق الضاغط للاحتلال الذي فتت الفضاء الفلسطيني، دفعه إلى التوصل إلى نتيجة أنه إذا أراد الحفاظ على ما تبقى من وطنه عليه الإسراع قبل أن يتبخر كله؟. إن حقيقة جلوسه للتفاوض دون أن يمتلك أي ورقة في يده حكم عليه أن يساير لعبة من يمتلك في يديه جميع الأوراق الرابحة، إن غموض الاتفاقيات الموقعة التي تسمح دائما بتفسير واحد تحدده إسرائيل تفتح الطريق أمام استقلال ذاتي (مؤقت؟) بلا أي سلطة حقيقية، ومحرومة من أي مساعدة وتقف على حافة المواجهة الدائمة للتذمر الشعبي المحتوم، إن اعتناق منطق الخصم -أمن إسرائيل سواء داخل أو خارج حدودها المعترف بها دوليا أو في الأراضي المحتلة- دون أي مقابل لا يؤدي إلا إلى إضفاء الشرعية على الاحتلال، وقبول الحياة بالشروط التي يفرضها غرور القوة؟. التفسير الأكثر احتمالا أن عرفات واجه خيار البحث عن اتفاق سيء أو مد أمد معاناة سكان الأراضي المحتلة، علينا أن نعترف أن هذه المعاناة خفت بشكل عام نسبيا منذ بدء "مسيرة السلام"، لكن الإحباط يسيطر الآن على المناخ العام، فلا يبدو أن هناك أحدا على استعداد لقبول هذا التفسير.

وكما أشار المثقفون الفلسطينيون المعتدلون فإن البيروقراطية والعجز طوال عقود أدت إلى الخلط بين قضية منظمة التحرير وقضية الشعب الفلسطيني، "إلى درجة القول بأن إنقاذ المنظمة هو إنقاذ للشعب" (إلياس سامبور). وربما كان هذا هو السبب في هذا الخطأ سواء من جانب الراديكاليين أو المثاليين. هو الذي أدى إلى التقليل من شأن اللاجئين في الأردن

وسورية واستثنائهم من اللعبة، خاصـة أولئك الذي يعيشـون فـي لبنـان الذيـن يسيطر عليهم الشعور بالخيانة والإهمال التي ألقت بالمخيمـات إلـى اليـأس الكـامل، مـن الـذي يتذكـر اليـوم ضحايا "تل الزعتر" وجثث مذابح "صابرا" و"شـاتيلا" التـي عـبر عنهـا "جـان جينيـه"، ورعـب حصار قصف بيروت بمدفعيـة وطـائرات الجيـش الإسـرائيلي؟. هـؤلاء اللاجئـون المهـددون بالطرد من المخيمات البطوليـة بسـبب المشـروعات الكـبرى لتطويـر العاصمـة، والمتمسـكون بعقود بيوتهم وأراضيهم التي تم الاستيلاء عليها عام ١٩٤٨، والتـي لا تسـاوي شـيئا الآن، إن اللاجئين الفلسطينيين في لبنان يعانون من رفض مجتمع لا يسمح لهم بالاندماج فيه، ويفتقـدون لأي مساعدة غير تلك التي تقدمها لهم وكالة الإغاثة التي أصبح مصير استمرارها محل شـك. إن ٣٥ ألفا من البشر تم تحويلهم إلى مزبلة التاريخ المكونة من الدم والنار، إنهـم ليسـوا أكـثر من طنطنة وغضب.

إن تأكيد إسحاق رابين على مطالبة السلطة الوطنية الفلسـطينية إلغـاء البنـود الرافضـة لوجود الدولة اليهودية على أرض فلسطين من الميثاق الوطني كما وعد زعيم منظمة التحرير الفلسطينية في أوسلو، يهدف إلى ما هو أبعد من الأمن الذي تبحث عنه إسرائيل، لأن عرفـات أعلن ذلك عام ١٩٨٨، وهذا البند اليوم لا قيمـة لـه، ومـا رآه البروفيسـور الإسـرائيلي "أمـون راز كراكوتزكين" (Un paix sans histoire) (مجلـة الدراسـات الفلسـطينية – شـتاء ١٩٩٥) "إن ما تطالب به إسرائيل ليس إلغاء النص بقدر ما تطـالب بإلغـاء الذاكـرة التاريخيـة التي أبدعته، هذا هو الأمر، إن المطلوب إلغاء الذاكرة الفلسطينية بشكل عـام، وهـذه المطالبـة تعني إصدار الأوامر إلى الفلسطينيين باعتناق الطرح الصهيوني للتاريخ"، بمعنى آخـر: إلغـاء الذاكرة الوطنية بالكـامل ودون شـروط، وأن تضيـف إليهـا أيضـا تعليـم تـاريخ مـن الاحتـلال اليهودي يتجاهل بالكامل الوجود الفلسطيني، ويدعم صورة البلاد القفر الخالية، تنفيـذا لشـعار: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

من نافلة القول أن نذكر هنا أن هذا الزعم لا يمكـن أن يكـون مقبـولا مـن الفلسـطينيين مطلقا، هذا الشعب زاده الألم والمرارة والإذلال عنادا، بل علـى العكـس تمامـا، فإنـه زاد مـن إحساسه الحاد بهويته والظلم الذي يتعرض له.

إن لحظة النصر العسكري والسياسي والاقتصادي تضع إسرائيل أمام خطـورة الفشـل، إن التمسك بالمستوطنات في غزة والضفة الغربية، وتدمير السلطة الوطنيـة الفلسـطينية بقيـادة عرفـات، وتـأجيل الانتخابـات المعلن عنهـا، ومـد أمـد احتـلال الجيـش الإسـرائيلي للمـدن

الفلسطينية، الخ... تؤكد ان إسحاق رابين يفتقر إلى وضوح الرؤية والشجاعة السياسية، فعامل الزمن لا يلعب بالضرورة في صالح إسرائيل سكانيا، وتحول الآلاف من الفلسطينيين إلى الانضمام إلى حماس وتضاعف الهجمات الانتحارية لا يمكن مواجهتها بعمليات الحصار، ولا بالفصل المستحيل والدقيق والمزج التي خلقها الاحتلال الطويل للضفة الغربية، فبدلا من مد اليد إلى الخصم والاعتراف للفلسطينيين حق تقرير المصير وتحسين أوضاعهم المعيشية، فإن التمسك بعدم التخلي عن أي بوصة تم انتزاعها بقوة السلاح لن يؤدي إلا إلى تسميم الصراع، الذي يمكن حله برؤية مستقبلية واضحة، إن الافتقار الكامل إلى الفهم، والاحترام لكرامة الفلسطينيين يؤدي إلى استمرار الصراع ويدفع إلى "انتفاضة بطرق أخرى"، أكثر عنفا ودموية.

هل محكوم على الإسرائيليين والفلسطينيين بأن يقضي كل منهما على الآخر ماديا ومعنويا خلال سنوات أو عقود؟. إن اتفاقيات سلام وتعايش حقيقيين، مثل تلك التي توصل إليها مانديلا ودي كليرك في جنوب إفريقيا، تؤكد أن الصراع المسلح الأكثر عنفا يمكن حله بالسخاء والتسامح والرؤية التاريخية الواضحه، قبل سنوات ذكرت "الصحيفة الفلسطينية" عام ١٩٨٨ جملة لمثقف من القدس الشرقية عن ازدواجية الحلم لأحفاد إسحاق وإسماعيل تقول: محو أو بقاء الأخر، لكن المشكلة تكمن في "سواء نحن أم هم نحاول أن نعرف إن كنا على استعداد لقبول شيء أقل من حلمنا".

بعد اتفاقيات أوسلو فإن الإسرائيليين ركزوا على الأمل في إكمال حلمهم على حساب كابوس الفلسطينيين، هذا الأمل يكشف عن خداع كامل، إن الاعتراف بالهوية الفلسطينية، وحق الشعب الفلسطيني في دولة مستقلة وديموقراطية هو الذي يمكن أن ينهي في يوم من الأيام مأساة الشرق الأوسط.

مشاهد حرب، والشيشان خلفيتها

١- "وداعا لك، من، روسي الوطن القذر".

تاريخ الوجود الروسي في الشيشان، وصعود هذا الوجود وهبوطه فيما يقرب من قرنين من الزمان، ترك من ورائه تاريخا قليل المصادر في عدد منشوراته، لكن هذا العدد القليل له قيمة كبيرة، وكان أول كتاب يشير إلى هذا الموضوع "الغزو الروسي للقوقاز The Russian Conquest of Caucasus" لمؤلفه ج. إف. بادلي J. F. Baddeley، الذي يصف بشكل تفصيلي فترات التوسع القيصري المختلفة باتجاه الجنوب، وكوارث الحرب الاستعمارية ضد سكان الجبال الذين اعتنقوا الإسلام قبل ما يزيد على قرن من الزمان. إلا أن إعلان الجنرال "يورمولوف" القائد العام للجيش الإمبراطوري في الفترة ما بين ١٨١٥ و١٨٢٧ -الذي كان تمثاله ينتصب في الميدان الكبير لمدينة جروزني حتى تحطيمه عام ١٩٩٠- كان يشبه إعلان وزير الدفاع السابق "بافيل غراتشوف" عن القضاء التام على "قطاع الطرق الشيشانيين"، وهذا الإعلان لقي مقاومة عنيفة من الشعوب الجبلية التي تمثل الجماعات الصوفية عمودها الفقري -وبشكل خاص النقشبندية والقادرية- التي انتشرت منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر وحتى عام ١٨٥٩، وهو تاريخ هزيمة ولجوء الإمام شاميل Shamil إلى تركيا. فالمريدون أو أعضاء هذه الجماعات الذين وصفهم العسكريون، وممثلو الحكومة العاملون في تلك المنطقة، ومؤرخو تلك الفترة بصفات مشابهة لتلك الصفات التي يطلقها عليهم المتحدثون الرسميون للرئيس "الديمقراطي" بوريس يلتسين، هؤلاء المريدون ناضلوا بعناد في سبيل استقلالهم وتحملوا الآثار المدمرة لاستراتيجية "الأرض المحروقة" التي يطبقها اليوم سادة الكرملين بلا خجل.

وهناك كتاب آخر له أهمية كبيرة بعنوان "الصوفي والقومسيير Le Soufi et le commissaire" من تأليف أليكساندر بونبنجن"، يرسم صورة شاملة لـ "الطرق" (جمع طريقة أو جماعة دينية) التي تجسد إرادة الحياة لشعب يزيد عدده قليلا عن المليون نسمة، تواجه عدوا يفوقها بكثير في العدد والعتاد، لكن معرفة الشيشانيين الدقيقة لجغرافيا المكان، وروح التضحية والتحلي بالبسالة، والممارسة الجماعية للذكر -عملية جماعية تشتمل على رقصات روحانية تدهش الغزاة وتقلقهم- ساعدتهم على الاستمرار في الحياة والمحافظة على هويتهم، فهم يوفقون بين الحرب المقدسة وبين "الكتمان" -التغاضي والخضوع الظاهري- في

انتظار اللحظة المناسبة للعودة للحرب، كما حدث بعد ثورة ١٩١٧، عندما طالبوا باستقلال الإمارة الشمالية للقوقاز تحت قيادة إمام نقشبندي عجوز، ورغم أن هذا التمرد تم سحقه عام ١٩٢٤، إلا أن "المريدين" نشروا نفوذهم إلى الشعوب المجاورة في الأنجوش وداغستان، ورغم التدمير المنظم لما يسمى "خلايا قطاع الطرق" وإعدام زعمائهم، إلا أن المقاتلين الشيشان مارسوا حرب عصابات امتدت حتى عام ٣٦، إلى أن جاء الغزو النازي وما تبعه بعد ذلك من نفي للشعب الشيشاني بكامله إلى آسيا.

كان لحروب القوقاز في القرن التاسع عشر -التي قادها الإمام شاميل وتلك التي حدثت ما بين عامي ١٨٦٤ و١٨٧٧ بقيادة "المرشد" قادري كونتا حاج Kadiri Kunta Haxj"- آثار كارثية مدمرة على المجتمع الروسي، تماما كالآثار التي خلفها الغزو الروسي لأفغانستان بعد ذلك بقرن من الزمان، فقد تسببت حروب القوقاز في غضب الشعب بأكمله المتعب من إرسال أبنائه إلى المذبح، ونشرت هذه الحروب روحا من الشك والنقد الذاتي بين مجموعة صغيرة ومختارة من الضباط والجنود الشبان الذين شاركوا فيها، وكانت فكرة تكوين تنظيمات مسلحة من القوقازيين لمواجهة "قطاع الطرق الشيشانيين" من صنع القيادة العسكرية العليا القيصرية، لتجنب الآثار الخطيرة لانتشار روح التعب والهزيمة بين طبقات الشعب، ولكن بعد الغزو الباهر الذي قامت به قوات "شاميل باساييف" لمنطقة "بودنوفسك" في يونيه من عام ١٩٩٥، فإننا نشهد عودة إلى إنشاء هذه التنظيمات المسلحة المشبعة بصوفية تقليدية وكراهية لشعوب القوقاز، التي قضى عليها السوفييت عقابا على تعاونهم مع الروس البيض خلال الحرب الأهلية.

ومع سقوط الاتحاد السوفييتي والعودة إلى المطالبة من جديد باستقلال الشيشان تحت قيادة الجنرال "دوداييف" يعود التاريخ إلى دورته: الماضي يعود ليصبح حاضرا، دون وعي بدروسه المريرة، فإذا كان أحد المسئولين عن سياسة الحل السياسي السلمي في الشيشان صرح عام ١٨٣٤ بقوله: "الشيء الوحيد الذي يمكن فعله مع هذا الشعب هو محوه من على وجه الأرض"، فإن كلمات الرئيس بوريس يلتسين التي قالها حديثا: "يجب القضاء قضاء مبرما على "قطاع الطرق" كالكلاب المسعورة"، هذه الكلمات تؤكد عمق الكراهية المزروعة بشكل واسع بين الجماعات الوطنية وبين مؤيدي السلافية الروس، والتي ليس فيها "للشيشاني سوى أنه قاتل، وإذا لم يكن قادرا على القتل فهو قاطع الطريق، وإذا لم يكن لا هذا ولا ذاك فهو لص، وإذا لم يفعل فهو ليس شيشانيا" (طالعوا تصريحات الجنرال باراكوف، الذي يعتبر

أحد أقرب المقربين إلى الرئيس يلتسين، هذه التصريحات نشرها مراسل "البابيس" بتاريخ ٢١-١-١٩٩٦) لذلك يصبح من غير المفيد أن نقول أن استخدام مثل هذه اللهجة يكشف بشكل لا يقبل الشك أن الهدف هو "التصفية النهائية".

أسطورة سحق سكان الجبال دفعت بعض كتاب القرن التاسع عشر الروس إلى التعاطف معهم، وهؤلاء الكتاب شاركوا في شبابهم سواء كمتطوعين أو حبا في المغامرة، أو تم إرسالهم إلى هناك إجباريا للمشاركة في "تهدئة سلمية" للقوقاز، فتعرفوا هناك وبشكل مباشر على تطلع هذه الشعوب "المجبرة على الاستسلام" إلى النضال من أجل حريتها، ومن بين الشهادات المكتوبة بشكل روائي، نشير إلى شهادتين لكاتبين من كبار الكتاب ميخائيل ليرمونتوف (١٨١٤-١٨٤١) وليو تولستوي (١٨٢٨-١٩١٠) حيث نجد أن القوقازيين الذين يظهرون في رواياتهما تقدم لنا صورة حية لأحكامهما المسبقة والتعلق العاطفي والتضامن والإعجاب بأعدائهما، وهذه هي المشاعر المتناقضة التي تثيرها عند مؤلفيهما، فنجد التمرد الرومانتيكي عند ليرمونتوف، في مقابل العجرفة الروسية التي تكشف عن الموقف التأملي والأكثر حدة وتدميرا عبر تعلق العجوز توليستوي بالماضي.

ففي القصة القصيرة التي تحمل اسم "بيلا Bela" في الفصل الأول لرواية ليرمونتوف، التي تحمل اسم "**بطل من زماننا**". نجد أن الكاتب يعكس معرفة قريبة عن الأراضي التي تم ضمها حديثا إلى الإمبراطورية، ومعرفة بأساطير فروسية سكانها، فيرقط نثره -تماما مثل تولستوي- بكلمات وجمل من اللغات القوقازية -في أغلبها من أصول تركية وعربية- ويفرق بحرص بين الأعراق المختلفة التي تشكل سكان المنطقة: ليس فقط الشيشانيين بل أيضا الأوستينو والشركس والكلاباردينيين والتتار الذين كانوا يخضعون للغازي الروسي أو المنفيين من الأراضي العثمانية. وحكاية "بيلا" تدور عبر حوار بين الراوي وبين مقاتل مخضرم من الحروب القوقازية، فيما بين المسامرة في حان بدائي يشير خلاله بشكل عشوائي إلى قصة خطف "بيتشورين" لبيلا بطله الحكاية، ثم النهاية الفاجعة لمغامرة كل منهما، وعناصر هذا الفصل تذكر القارئ الإسباني بالرواية الموريسكية، وحروب غرناطة الأهلية التي كتبها "خينيس بيريث دي هيتا" أو "التوزاني دي البوخارى" لكالدرون دي لاباركا: مستخدما احتقار ومثالية العدو، مع خلفية من التشويق الشرقي، أو تكريم صريح للخوف والقوة التي يتمتع بهما الشعب المهزوم تحت سلاح "المتحضر".

وفي القصة نجد المخضرم يستخدم لهجة ملتوية عند إشارته إلى الشيشانيين والشعوب المتمردة الأخرى: "إنهم قطاع الطرق والمتقشفون" الذين ينصبون الشراك للجيش و'يجعلونا ندفع الثمن"، والواحد منا لا يمكنه أن يعرف، أو يقول إذا ما كان بحماية وعورة الأرض، لديه بعض "السيطرة المشعثة لهؤلاء المتربصين". لو أردنا الحق فالعجوز يخدم الشاعر ليعبر عن وجهة نظر عادية منتشرة بين مواطنيه عند الحديث عن العدو "الأسيوي"، بنفس الطريقة التي تعبر بها بعض الشخصيات التي أبدعها ثربانتيس والتي نصبت نفسها متحدثة باسم الرأي العام المسيحي القديم:

"هؤلاء الأسيويون من أكثر الناس دهاء، هل تعتقد حضرتك أنهم يستحثون الثيران بصرخاتهم؟، بحق الشيطان كيف يعرف هؤلاء ما تخور به الثيران؟. بالمقابل فالثيران نعم تفهمهم، لو أردت يا سيدي يمكنك أن تأمر بنعنيق عشرة منهم، لكن بينما يصرخون بلغتهم في الثيران فإنها لن تتحرك من مكانها... إنهم مكارون عظماء، وماذا يمكن للواحد منا أن يفعل؟... إنهم يحبون انتزاع الحجرات من المسافرين. ونحن أنفسنا عودناهم على عادة المكر السيئة هذه. وسوف ترى كيف يطلبون منك المزيد لشراء الفودكا. أنا أعرفهم جيدا. أنهم لن يفلحوا في التغرير بي".

بينما تتحول النظرة السلبية -التي تعتبر من أهم مكونات الروسي اليوم- إلى إعجاب فالمخضرم لا يستطيع إخفاء إعجابه بقدرة المتمردين على القتال:

"إنهم قطاع طرق أشداء، شاهدت بعضهم أثناء القتال، ومنهم من يظل ممسكا بسيفه مقاتلا فيما تناوشه السناكي.

من الواضح أن ذلك العسكري المحنك لم يفكر في أسباب البطولة الانتحارية لمريدي الإمام شاميل، ولا حتى ليرمونتوف فكر في هذا، فالزمن الذي يجري لا يحتاج إلى هذا النوع من الأسئلة، وأكثر من هذا، للتعرف على نفسيةُ الشاعر يصبح من المفضل أن نترك جانبا أغنية المهد القوقازية، والإشارة المبتذلة إلى "الشيشاني الشرير"، وأن نتوقف عند اللعنة المفزعة والتغني بالوطن الأم: تلك الأغنية التي تسيطر على قارئ الأمس واليوم، الخاضع لتأثير عنف ليرمونتوف ضد عبودية الأجساد والأرواح التي تفرضها تقاليد السيطرة الروسية الأزلية:

"وداعا لك، من روسي الوطن القذر

وطن المستعمرين والعبيد

وداعا لأولئك المقاتلين الملونين بالأزرق،

وداعا للشعب المصفد.

*** ***

ربما أنا، خلف القوقاز المخضب،

استعماري يمكنني من متسلطيك،

من عينيه، التي ترقب كل شيء،

من سمعه، الذي لا يسمع شيئا تافها.

(الترجمة إلى الإسبانية لأنطونيو بيريث راموس)

***

إن قصص وشهادات المجندين من أجل وطن "قذر"، التي تطبع الشخصية الاستقلالية الروسية الضعيفة المهددة، تظهر بشكل مرير كجلد للنفس يعانيه الوطن بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وتحوله إلى قوة متعسفة، ومخادعة لـ "القيم الديمقراطية واقتصاد السوق"، كل هذا كان معناه على المدى القريب وبقوة الواقع، انهيارا لكل الأحلام، واحتلال الطوائف المتنازعة للسلطة الخالية، انهيارا لمستوى الحياة تحت ضغط تضخم متزايد بشكل سريع، انهيارا سريعا للإنتاج، ومضاربة مكشوفة، وانتشارا للبؤس، وسكرا مفرطا من شدة التجمد، عجزة نزعوا من مساكنهم، صراعات بين مافيات. هذا هو كل ما نجم عن الأحلام السريعة في التغيير وفقدان الحريات العامة، لم يعد هناك غير "كازينو" مقامرة بسبعة أرواح، ورجال أعمال مزيفين من نوع "مدرسة شيكاغو" يحيط بهم حراس شخصيون قضوا على الروح المعنوية للسكان، ووضعوا الاتحاد الروسي على حافة الجحيم. وهناك شباب كثيرون يلعنون مثل ليرمونتوف كل عبيد وحاشية الطاغية المستبد، ويلعنون حروب الجيش والبوليس، التي لا تختلف عن نفس التسلط سوى في اللون، إن روسيا نهاية القرن العشرين تذكر في وجوه عديدة تلك الروسيا التي كانت خاضعة في نهاية القرن الماضي للمستعمرين الإمبراطوريين.

أي مخلص مخيف أو مسيح يظهر ليخلصها؟

٢- تولستوي وحرب القوقاز.

عاش تولستوي حرب القوقاز فيما بين عامي ١٨٥١ و١٨٥٣ كموظف حكومي وضابط في المدفعية. ونجد عمق هذه التجربة في الرواية التي بدأ في كتابتها بعد ما يقرب من أربعة عقود، والتي لم تصرح الرقابة بنشرها حتى الآن، وفيما بين الفكرة واللحظة العاطفية الأولى تمكن من تعميق معرفته التاريخية للوقائع. بعد محاولة "إخضاع" الشيشان الدموية الثانية، كانت الرواية قد نضجت، وتم تصفيفها على المطبعة، وتصحيحها بسرعة خلال فترة شيخوخة الكاتب العجوز، لكن تلك الرواية التي تحمل عنوانا لها "حاج مراد" لم تر النور إلا بعد وفاة المؤلف، فالطبعة الروسية الأولى الصادرة عام ١٩١٢ عانت من مقص "جراح الأفكار" المغير: أما الطبعة الكاملة للرواية فقد صدرت بعد ذلك في برلين.

من تابع الأحداث في الشيشان بانتباه منذ إعلان الاستقلال بقيادة الجنرال دوداييف، وحتى التدخل العسكري الروسي "لعدة ساعات" في ديسمبر ١٩٩٤، وبدء عملية "الإخضاع السلمي" الجديدة، فإن العودة إلى بعض صفحات الرواية يمكن أن يكون كاشفا للأحداث: تعطي رؤية عميقة للوقائع المنشورة في الصحافة، وهذه الوقائع تحمل قراءة الرواية من جديد برؤية كفاحية مؤلمة، وتجعلها أكثر معاصرة.

يضفر تولستوي حول شخصية حاج مراد المتناقضة الذي يشغل منصب نائب الإمام شاميل -الذي كانت قصة هروبه السريعة إلى الروس ثم مصرعه على أيديهم، تعتمد على وقائع حقيقية تؤيدها المصادر التاريخية- صورة مقنعة لا تشوبها أي شوفينية حول الغزو الروسي للقوقاز، وعنف القمع القيصري في مواجهة المقاومة الصلبة للشيشانيين، والخلاف بين المتصارعين في دوائر السلطة وتكتيكاتهم، وغطرستهم الفظة، وضعف القيادات وفساد رؤسائهم وضباطهم، كل هذا وصفه الكاتب بريشة خفيفة لكنها حازمة لا ترحم، وهكذا نكتشف أن "بطولات الجيش الروسي المجيدة" التي تحدثت عنها الصحف، لم تكن في الواقع سوى شرك شيشاني راح ضحيته عشرات الجنود، الذين سقطوا "دفاعا عن القيصر والوطن والعقيدة الأرثوذكسية". وبينما تشرح الرواية الجميلة تفاني البطل الذهبي، نجد المؤلف يصف العسكريين سريعا على لسان أحدهم، بأنهم "لصوص وقطاع طرق"، على استعداد لبيع أسلحتهم إلى المتمردين لسداد ديونهم في المقامرة، ويتحدث عن ضباط استولوا على المال

المخصص للقوات المقاتلة، ويذكر ضابطا برتبة كولونيل مهدد بتقديمه إلى مجلس حرب بسبب تبديده إمدادات الكتيبة، ويشير أيضا إلى إدمان الفودكا والاختلاس الذي يمارسه المسئولون، إنه يرسم صورة مظلمة لهرم الفساد العام المنتشر من أصغر إلى أكبر مسئول، تماما مثل يلتسين، نجد نيقولا الأول الأكبر، مقتنع بأن هذا "الهرم من الموظفين مقام من الشعب وضد الشعب"، وهذا الفساد نفسه يصفه اليوم "سيرجي كوفاليوف" فالجميع كانوا يسرقون، "كان يعرف أن واجبه عقاب الذين يرتشون ويسرقون ، لكنه كان يعرف أيضا أن هذا لن يردع الموظفين الجدد الذين سوف يحتلون أماكنهم، لأن عمل الموظفين الرسميين هو السرقة، وواجبه كقيصر هو عقابهم، ومهما كان ذلك مزعجا فهو قام بواجبه بشكل كامل". هل يمكننا أن نجد وصفا دقيقا أكثر من هذا الذي نجده اليوم فيما ينشره المراسلون المعتمدون في موسكو، وفي الصحافة الروسية المستقلة التي لم يتم إسكاتها حتى الآن برقابة القيصر الجديد؟.

اجتماع نيقولا الأول بوزير حربه شيرنيشوف -أي تشابه بينه وبين وزير الدفاع بافيل غراتشوف، أو الشهير ميخائيل بارسكوف ليس سوى مجرد مصادفة- هذا الاجتماع منح تولستوي الفرصة لإعادة وصف المناخ العام الدنيء والتملق المحيط بالقيصر: قيمة مستشاريه ورجاله المقربين تقاس كما يحدث الآن بدرجة انحنائهم أثناء أداء التحية، والطاعة العمياء في تنفيذ الأوامر المتناقضة والمتقلبة. فيعتقد القارئ أنه يعيش من جديد مشاهد يقدمها ممثلون معاصرون: وعود سلام غامضة يطلقها أمام الشعب الطيب، تعكس الحالة النفسية للطاغية:

"خضوع الحاشية -أواصل، وأعلن، وأناقض الواقع- يأخذه إلى أقصى حد، حتى أنه لا يرى تناقضاته الشخصية، فلا يقارن بين أفعاله وكلماته في الواقع، ولا يعترف بالمنطق ولا حتى بالإحساس العام، وكان مقتنعا اقتناعا تاما أن مواقفه جميعا المتناقضة مع بعضها، هي مواقف جادة ومتوازنة، لا لشيء سوى أنها مواقفه هو شخصيا".

برنامج نيقولا الأول -إحراق المساكن وتدمير المحاصيل ومطاردة المتمردين بلا هوادة- كان يجري تنفيذه حرفيا:

"لم يبق في القرية فرد واحد، فالجنود لديهم أوامر بإحراق القمح، والقش وحتى "الساكلية" (البيوت). دخان ترابي ينتشر في كل القرية، ومن خلاله كان الجنود يقومون بنهب ما يجدونه في البيوت، وإطلاق الرصاص لقتل الدجاج الذي لم يستطع الجبليون أخذه معهم".

كان تولستوي أكثر معرفة بالناحية الدينية-الوطنية للمقاومة الشيشانية، فكان يشير بشكل محدد وقاطع للانتماء الإسلامي للمريدين ونهجهم في نشر روح الحرب المقدسة في قرى داغستان المجاورة، لكن ما يثير الدهشة هو عدم إشارته إلى المبادئ المنتشرة لجماعة النقشبندية التي كان الشاميل مرشدها. الترجمة المجملة لهذه الطريقة ليس فيها أية مجاملة: فتسلطه كتسلط الجنرال دوداييف بعد مئة وأربعين سنة، كان يغذي جانبا رافضا من الشعب ويدفعه إلى التمرد كما حدث لبطل الرواية، إضافة إلى مكانته كزعيم روحي وتطبيقه الحرفي للشريعة كانت تقرب منه الجبليون الرافضون للمنطق الإمبراطوري، والرافضون للتقدم "الحضاري" الروسي. فهم "المجرمون واللصوص والإرهابيون القتلة"، الذين يهاجمهم يلتسين وغراتشوف باستمرار -الذين يجب القضاء عليهم كالقضاء على "ورم سرطاني" عن طريق القصف الجوي المكثف، والصواريخ المتعددة الرؤوس، والتدمير المدفعي، وممارسة سياسة "الأرض المحروقة"، وهجوم القوات الخاصة على هؤلاء الذين ينحدرون من صلب أولئك الشيشانيين الذين رسمتهم بإعجاب ريشة تولستوي:

"اجتمع الشيوخ في الساحة، جالسين في حلقات ليناقشوا الوضع. لم يتحدث أحد عن كراهيتهم للروس، لأن ما كان يشعر به الشيشانيون صغارا وكبارا، كان شيئا أقوى من الكراهية. ليست كراهية بل اشمئزازا ونفورا وحيرة في مواجهة هؤلاء الكلاب الروس وعنفهم الغبي، والتطلع نحو محوهم كما تمحى الفئران، والعناكب السامة والذئاب، إنه إحساس طبيعي جدا، كالإحساس بالوقاية من الوباء".

إن شعور بعض الشخصيات بالسخط مثل "سيرجي كوفاليوف" رئيس لجنة حقوق الإنسان التابعة للرئاسة، والسيدة يلندا بونار أرملة زخاروف والعديد من المثقفين والديمقراطيين، يمكن أن يجد قيمة تحت مظلة تولستوي وتأثيره المستمر على الشعب الروسي، ورواية "حاج مراد" لا تضمها قائمة النشرات التي يعلنها الذين يعانون من الاستعمار، إنها رواية رائعة، رقيقة ودقيقة، تتيح التعبير بالكلمة لكل أبطال الصراع المختلفين من قامعين ومقموعين، للضباط المحبين للحياة والتقاليد البدائية للقوقازيين -مثل بتلر، وربما كانت رؤية ذاتية للمؤلف- ولشخصيات ملبية بالتناقضات، وتكاد لا تفسر نفسها مثل الشخصية التي تحمل الرواية اسمها. فالقصيدة التي يلقيها أحد الأتباع على حاج مراد مبتهلا بوخز الموت، هذه القصيدة تعتبر أحد المشاهد الأكثر إثارة في هذه الرواية القصيرة، الثرية اللب.

مع ثورة ١٩١٧ تعلق الشيشانيون بوعود الحرية التي تعهد بها "لينين" للشعوب التي كانت واقعة تحت سيطرة القيصرية، لكن سرعان ما تم قمع إمارة القوقاز الشمالية، تماما كما حدث في زمن "الشاميل" و"كونتا حاج"، وتواصل القتال الحاد والعنيف منذ عام ١٩٢٤ ضد "قطاع الطرق" و"المتطرفين"، دون أن تذكر الصحافة شيئا عن هذا القتال، واستمرت هذه الحرب حتى ما يقرب من منتصف العقد التالي. وليست هناك شهادات أدبية عنها: فقط توجد كتابات دعائية رسمية، ووثائق داخلية خاصة بالجيش والمنظمات الأمنية، وحتى بعد النفي الجماعي للشيشانيين إلى كازاخستان في ٢٣ فبراير من عام ١٩٤٤، لم نعرف عن هذا النفي شيئا إلا عن طريق صفحات كتبها "سالزنشتاين" في المجلد الرابع من كتابه "أرخبيل جولاج"، وتجربة الحياة الجماعية في معسكرات الاعتقال التي كشف عنها محضر إداري، رسم بدقة الملامح الرئيسية لهذا الشعب القوقازي المتعاضد في مواجهة العواتي، والذي عاش في نضال مستمر لأكثر من قرن من الزمان، هذه الصورة تصف تقاليده التي يسيطر عليها الانتقام للشرف العائلي، والتي لم تستطع محوها السنوات الثلاثون من السيطرة السوفييتية:

"كانت هناك أمة (في الجولاج) لم تستسلم أبدا، لم تتطبع مع الحياة العقلية للاستسلام، ولم تكن جماعة من المتمردين، بل كانت أمة بأكملها -أشير هنا إلى الشيشانيين... (هؤلاء) لم يحاولوا مطلقا إرضاء أو استرضاء الزعماء، كانت أفعال هذه الأمة متشامخة، وكانت في الحقيقة معادية... وهناك شيء غير عادي يجب الإشارة إليه، أنه لم يتمكن أحد من منعهم من الحياة على الطريقة التي كانوا يعيشون بها. والنظام الذي حكم تلك الأرض طوال ثلاثة عقود، لم يتمكن من إجبارهم على احترام قوانينه".

بعد العودة إلى القوقاز في عهد خروتشوف، ظلت جذوة النار الاستقلالية خابية تحت الرماد: كانت فترة طويلة من "الكتمان"، حافظ خلالها الصوفيون القادرية على تنظيماتهم السرية دون مساس، واليوم، فإن النار تشتعل ويتكرر قمع التاريخ الغبي. ويبدو الشاميلان "باساييف" و"سلمان رادوييف" الذئبان المتوحدان وحفيدا الإمام شاميل، وكأنهما شخصيتان تم انتزاعهما من صفحات "ليرمونتوف" و"تولستوي". والهجوم على خلايا "قطاع الطرق" لدوداييف، يبدو معروفا لنا وقريبا من أسماعنا: فالهجوم استهدف قرية "فيندينو" حصن وملجأ الإمام شاميل.

رواية تولستوي تبدأ وتنتهي بوصف دقيق لحقل بري لزهور العليق الملونة. ومحاولات الراوي التي بذلها لقطعها وجمعها في حزم كان صعبا ومستحيلا، فالأشواك

وخزها كوخز القنفذ، ووبرها كان قاسيا، ومحاولة قصفها تنتهي بالفشل. "**ويكتب- أعلنت ندمي عن تدميري لزهرة جميلة جدا، ثم أنقيتها. لكن يالها من قوة، يالها من طاقة حيوية. قلت هذا عندما ضاع جهدي الذي بذلته لانتزاعها. كيف تقاوم وكم دفعت لحياتها ثمنا غاليا**".

عشب الحقل المقطوع، وبقايا الجذوع الممزقة، والسيقان المحطمة والزهور المسودة، التي سحقها مرور إحدى العربات، إنها أول صورة تطرأ على ذاكرة المسافر الذي يضع قدميه على أرض الشيشان: الحقل عاد منتفضا، رغم أنه جريح ومنكسر، لكنه يقف ثابتا منتصبا، كما لاحظه تولستوي بحدة، فعصارته ترفض الاستسلام.

٣- القيصر بوريس.

عند الخروج من مطار موسكو الدولي، يمكن للتغييرات السريعة التي جرت على العمران خلال السنوات الخمس الأخيرة أن تخدع حتى بليد الحس، فقد انتشرت الإعلانات على الطريق الجديد المؤدي إلى المدينة، إعلانات عن "إستيلا أرتويس" و"مارلبورو" مزروعة على أعمدة الإنارة تحيي المسافر، وبعد قليل تتبعها إعلانات عن فوجي ولاكي إسترايك وسامسونج وكامباري وكميل وغيرها من المنتجات الروسية والغربية، لكن كلما تعمق التاكسي في داخل المدينة، فإن هذه الإعلانات تختفي تحت لوحات دعائية ضخمة موزعة على طول الطرق والشوارع يبدو عليها يلتسين بحلته الكاملة وهو يصافح عمدة موسكو ذو الشعبية المنطلقة "يوري لوزكوف"، الذي نظف وسط المدينة بقوة من الصعاليك وغير المرغوب فيهم، وحصر الأمن المفقود في الشوارع دون أن يمس شعرة واحدة من المافيات، ويسيطر بيد من حديد على تحركات السكان ذوي الأصول القوقازية، وبنى عمارات ضخمة للطبقة الوسطى، وأكمل الطريق الضخم المحيط بالعاصمة، فتبدو صور الرئيس والعمدة على خلفية من أسوار الكرملين وقباب الكنائس المذهبة، وهكذا يبدو أنهما يتمتعان باحترام وحماية رمز السلطة المطلقة، ومباركة الكنيسة الوطنية، الخادم الأمين للأرستقراطية طوال عصور التوسع الإمبراطوري والقيصري.

أما صور البؤس التي كانت منتشرة حتى عام ١٩٩٠ صارت مرئية أقل، فقد أزالها عمدة المدينة وألقى بها تحت البساط، فالآن يعيش حوالي ٨٠ في المئة من الشعب الروسي في البؤس المنتشر في المناطق المحيطة بالمدينة، داخل المناطق الصناعية المهجورة، وفي أطلال المصانع، علاوة على كل هذا فإن التناقض الساحق مستمر، حيث احتلت العطور الفرنسية وملابس الألوان المتحدة لبينيتون، واجهات عرض الحوانيت الحكومية السابقة جي.يو.إم. الموجودة في الميدان الأحمر . وأصبح زبائنها يماثلون ما نراه كثيرا في أي مدينة غربية، حيث ترى رجال الأعمال الروس بحقائبهم السوداء والملابس التي تجعلهم أقرب في الشبه إلى زملائهم الأمريكيين، لكن مظهرهم كمواطنين تمتعوا بالحرية حديثا، وكمحدثي ثراء يكشف عنهما طريقتهم في الممارسة اليومية: كالشباب الذين يقطعون شوارع المدينة مقلدين إشارات وحركات الموديلات المصورة في مجلة "كوزموبوليتان"، رغم أنهم لم يتحرروا بعد

من كل الآثار القديمة، إنهم الروس الجدد، بعد عدة ساعات، اشاهدهم على شاشات التليفزيون متخفين خلف ملابس لاعبي التنس، أو لاعبي الجولف، وقد نضحت أجسادهم بالعرق، ويحملون مضاربهم، أو يضربون الكرات ضربات عمياء تقذف بها إلى أمتار قليلة بالقرب من الحفرة المطلوبة، في محاولة منهم للوصول إلى ما تشوقوا إليه من احترام، تماما كما وصفهم الجنرال "أليكساندر ليبيد"، أحد المرشحين للوصول إلى مقعد الرئاسة، وذلك قبل أن يعينه يلتسين كأحد الدرافيل التي يعتمد عليها لتأكيد انتصاره للفترة الثانية في الانتخابات: "**في الحقيقة هناك حكومتان في روسيا، حكومة على رأسها رجل أصابه الهرم، (...) وأخرى لها بناء مختلف تماما، أكثر قسوة، وأكثر تحررا، فلدينا الملايين من المعوزين بمعاشات بائسة، ودون أي مكافأة عن سنوات خدمتهم في العمل. لكن المجرمين يعيشون في عربات المرسيدس، ويسكنون الفيلات، ويقضون إجازاتهم في جزر الكناري، والحكومة تحصل الضرائب من رجال الأعمال، والمافيا تتلقى أيضا نصيبها من الذين لا يريدون أن تنفجر بهم سياراتهم في الهواء(...)، كيف يتسنى لإنسان شريف أن يعيش في وطن كهذا؟**. (موسكو تايمز بتاريخ ١-٦-٩٦).

عند المرور عبر مدخل الفندق بنزلائه الأجانب والروس المتضامنين معا في شراء الشركات الحكومية المفلسة، يسترعي الانتباه وجود موائد وكراسي وثيرة، يشغلها رجال من الحرس الخاص، يلفتون النظر بمظهرهم الذي لا تخطئه العين، وحفلات موسيقى تعزفها فرقة موسيقى حجرة رباعية بشعورهم المستعارة، وملابسهم التي تنتمي إلى القرن الثامن عشر، وشدة الزحام في الحدائق والمساحات المجاورة لمحطة المترو القريبة، كل هذه المشاهد تجذب بشدة انتباه الذين زاروا هذه العاصمة أيام مجدها، في أزمنة "بناء الإشتراكية".

وفي أمسيات الصيف الروسي الطويلة، يمكن مشاهدة المحالون على التقاعد، ضحايا التحول إلى اقتصاد السوق والانهيار السريع للروبل، وقد اصطفوا في خط مستقيم على بعد أمتار قليلة من الميدان الأحمر بمعارض منتجاته الشاذة. يقفون في انتظام حازم، كما في أفضل أزمنة الوطن السوفييتي، فإذا حاول أحدهم التقدم وكسر انتظام الطابور، فإن شخصا ما يبرز كقائد فجائي متطوع، يطالبه بإتباع النظام على الفور، ويذكرني المشهد بفصل من أوائل وأجمل روايات سولجستين. حيث يقف سيدات وشيوخ بميدالياتهم البطولية التي حصلوا عليها كأبطال للعمل، وموظفون أخنى عليهم الدهر، وسيدات نحيفات بجوارب غليظة وصنادل، وشباب يبدو عليهم المرض، كل هؤلاء يعرضون على المارة أكياسا بلاستيكية، وزجاجات

بيبسي كولا ضخمة، وزجاجات تحتوي علـى سوائل غير محددة الهويـة، وفودكـا رخيصـة، وخبز وعلب سجائر كلها عليها خاتم قديم بائس، وعلى وجوههم كل علامات المرارة.

وعلى بعد قليل من هذا المكـان، هنـاك باعـة جـائلون ينـادون علـى صحـف ومجـلات تحمل صور ستالين، ونشرات ومنشورات انفصالية ومعادية للسامية. عدد من الناس يتحلقـون ويتناقشون في السياسة بغضب، ويقارنون بين "مزايا" المرشحين مثل زيرونفسكي وزيجانوف. وتحت القوس المؤدي إلى الساحة، هناك نساء يعلقن في أعناقهن صلبانا عليهـا السيد المسيح يعظن ويطلبن الصدقات. وبعض المتدينين التابعين للكنيسة يتبعون قسيسا أرثوذكسيا، يتنزهون أمام الكنائس الجديدة التي أُعيد بناؤها بالقرب من أسوار الكرملين ومقبرة "أبو الثورة".

أثناء العودة إلى الفندق، أتابع أحداث الحملة الانتخابية فـي أنبـاء التليفزيـون الروسـي، فيما يظهر المرشحون على الشاشة بشكل خاطف، فإن القيصر بوريس يتمتع بمعاملة خاصـة، فيبدو منتبها ومتملقا، ويظهر فـي صـور متعـددة فـأعجب بـه وهـو يرقص، ومحـاط بحـراس خصوصيين، أو يعانق طفلة شقراء جميلة ترتدي ملابس فولكلورية، ويبدو في صورة الرجـل الكريم الذي يلعب دور "بابا نويل"، ويـوزع وعـودا بزيـادة ضخمـة فـي المعاشـات والرواتـب المتخلفة للموظفين والعمال، وفجأة يظهر بعينين شـريرتين ووجـه حـانق يخطـب فـي اسـتقبال عسكري، أو يبدو في حفل موسيقي شبابي لـلروك، يتبختـر تمامـا كمـا يفعـل "خيسـوس خيـل" (عمدة ماربيا البدين ورئيس نادي أتليتكو دي مدريد) بين معجبيه. أظل في ترقبي حتى النهاية (بحيرة البجع الباهرة لنيرييف؟) لكن النوم يغلبني فلا أستطيع المتابعة.

الاحتقار والافتراءات للمتهم المستقبلي تعتبر أحد عناصر الدعايـة الصربيـة المتطرفـة لتبرير المذابح الجماعية ضد المسلمين، هذه الطريقة استخدمها يلتسين ومستشاروه أيضا كنوع من التبرير للكوارث السياسية والاقتصادية، وتحول المجتمـع إلـى مجتمـع خـاضع لممارسـات الجريمة المنظمة، وغرق أغلبية الشعب الروسي في جحيم البؤس المادي والمعنوي، التي تعيد إلى الأذهان ما كتبه ديستوفسكي وجوركي. فوصف الشيشاني بأنه "قـاطع طريـق". و"مجـرم". و"ممارس للجريمة المنظمة". كل هذا يسوقه يلتسـين لـتبرير كـوارث حـرب إبـادة ضـد شـعب تحمل الكثير من الـذل والتحقير. وكمـا كتـب حديثـا الصحـافي يافوشـي ايجلـوف: "**المجتمـع الروسـي (...) قدموا له على طبق من فضة، وفـي لحظـة مناسـبة عدوا مثاليـا، مكونـا مـن "مافيا قوقازية"، و"تطرف إسلامي"، فبدت الحرب كأنها صدام بين "روس" و"قوقـاز"، دون أن**

يكون هناك أي مكان للحوار الحضاري بينهما، وبذلك يمكن الوصول إلى نهاية سريعة: يختفي فيها "الآخرون" من أمام أنظارنا.

"وصفة" ميلوسوفيتش ورفاقه من الصرب البوسنيين للعودة "بشكل مشبوه إلى لعب دور الضحية من جديد"، هو تضبيب صورتهم، وخلق صورة لعدو جديد يكون غامضا بشكل كاف، حتى يمكن ضمان راحة الضمير الأخلاقي لدى الشاهد البعيد"، وهذا هو بالضبط الذي استطاع استخلاصه بشكل جديد كل من "فيرونيك ناهوم" و"غرابو" و"ايفيس كان"- عندما فحصوا موقف يلتسن وغراتشيف، فالغرب الذي كان يتصاعد طبقا لمجرى الأحداث في أفغانستان، وحرصه على الحفاظ على "ما تحقق من أهداف الديمقراطية" للرئيس الروسي، باتجاه تحقيق اقتصاد السوق، فإنه لم ولن يتدخل. لا أحد أو لا أحد تقريبا سوف يتحرك، مثل شخصية تولستوي، عندما تلعن "مايرا ديمتريفنا" مواطنيها بعد إنهاء عملية تنظيف ضد "الهاربين" من أتباع الإمام شاميل، في الرواية التي ذكرناها من قبل. "أي حرب؟. أنتم القتلة، وهذا هو كل شيء".

وهناك أشياء أخرى متوازية ومتشابهة بين "الديمقراطي" يلتسن وبين الزعماء الصربيين لا تنتهي عند هذا الحد: فقد أوقف ميلوسيفتش عمل الاتحاد اليوغسلافي، وقام بتفريغه من محتواه بهدف التخلص من رئيسه ماركوفتش، وتعيين نفسه رئيسا وراعيا لدولة صربيا الكبرى، وأعتمد يلتسن أيضا على محاولة الانقلاب العسكري التي جرت في أغسطس ١٩٩١، للتخلص من التسليح السوفييتي المعقد والقضاء على غورباتشوف، ولو أننا تعمقنا أكثر في هذه المقارنة، نكتشف أن يلتسن تعلم كثيرا من اللغة المزدوجة لأصدقائه ميلوسفيتش وكارادينش -الذي أنعم عليه مؤخرا بصليب "سان أندريس"، رغم محاكمته بسبب جرائم الحرب التي تحقق فيها محكمة لاهاي- فهو يزيد من وعوده بالتعاون بينما، يقرر استخدام الحل العسكري ويكمل سحق الشيشان.

وقبيل انعقاد قمة السبعة الكبار في موسكو، غطى الرئيس الروسي وجهه المتورم بقناع من البراءة في محاولة لإقناع ضيوفه، بينما استمرت المذابح والقصف الجوي، لكن القيادة القديمة الغارقة في فن الكذب التي تعرف أنه يكذب، أخرجت من جراب الحاوي كما يفعل المشعوذ خططا لوعود عاجلة بوقف العمليات، بقصد توسيع المذبحة والتغطية على نفاقه، لكنه فعل هذا في اللحظة المناسبة أمام أصدقائه الغربيين، الذين تتوقف عليهم المعونات.

ومنذ السابع والعشرين من مايو، تاريخ توقيع البروتوكول مع الوفد الشيشاني برئاسة سلمان ياندربيف، والذي يهدف إلى وقف النزاع المسلح والبدء في تبادل الأسرى، وحتى الاتفاق الذي تم التوصل إليه في نازران الواقعة في جمهورية الأنجوش المجاورة، الذي توصل إليه الوزير الروسي فاشيسلاف ميخائيلوف ورئيس قيادة القوات المستقلة أصلان ماسجادوف -اتفاق يقرر انسحاب جيش الفيدالية الروسية مع نهاية أغسطس، وتأجيل الانتخابات البرلمانية الشيشانية التي ينظمها نظام دوكو زافجاييف العميل، لكنه لا يذكر شيئا عن مسألة الاستقلال- كان يلتسن يبادل بين تصريحاته المهدئة، وبين تصريحاته المهددة طبقا للجمهور الذي يتوجه إليه، وطبقا لحالته النفسية، والتي وصفها تولستوي بشكل ماهر عند وصفه لنيقولا الأول، كان يتمسك بموقفين متناقضين : تقديم نفسه على أنه رجل السلام أمام ناخبيه الشباب، بينما يحمل وزير دفاعه مسئولية الدعوة إلى "سحق قطاع الطرق".

كان يبدو أن هذا الخلط بدأ يتضح عندما قرر يوم ٢٨ مايو، الاحتفاظ بالرئيس الشيشاني كرهينة في موسكو، فطار يلتسن إلى أوسيتيا الشمالية ومن هناك طار في طائرة مروحية ليهبط في مطار سيفيرني العسكري القريب من جروزني، والذي يعتبر قاعدة للقوة الميكانيكية رقم ٢٠٥. وقال لقادة وضباط الجيش "لقد كسبتم الحرب"، "لقد دمرنا النظام الإجرامي"، وكانت كلماته لتهدئة غضب القيادات التي تنتمي كلها تقريبا إلى المؤيدين لزيرونوفسكي وزيجانوف، وكانوا على وشك التمرد بعد اللقاء الذي جرى في الكرملين مع مستشار دوداييف. وبهذا تمكن من تمرير الخطر بزيارته الدعائية لجروزني (كل شيء يجري دائما في الهواء!) - تلك الزيارة التي تم الإعداد لها بسرعة فائقة عن طريق إعداد طائرة مروحية صغيرة مستديرة تشبه ساحة الرقص- ولكن الرئيس لم يفعل سوى مصافحة العدد القليل الذي تبقى في قرية شيشانية، وهتف بطريقة رزينة "جمهورية الشيشان في روسيا وليست في أي مكان آخر".

وفي الأيام التالية وبينما لم يتم تطبيق اتفاق وقف إطلاق النار -كالاتفاق الذي أعلنه من جانب واحد في ٣١ من مارس- استمرت العمليات الخاصة، وأطلق يلتسن فكرة منح الشيشان "استقلالا موسعا"، شبيه باستقلال تترستان، وشجع على المضي في محادثات السلام المزمع عقدها، أولا في داغستان -التي فشلت بسبب الحصار والقصف المدفعي لمدينة شالي، واغتيال قائد المستقلين راشد بارجيشيف الذي ذهب إلى هناك لتشجيع المحاصرين- وبعد ذلك في جمهورية الأنجوش، ولكن الرغبة في إطالة أمد المحادثات وتفادي هزيمة جديدة للجيش

تؤثر على الدعاية الانتخابية للرئيس انتهت في ١٠ يونيو، ولكن التنازلات لتلبية طلبات الشيشانيين -وقف الانتخابات البرلمانية تحت السيطرة الروسية، رفع الحصار عن القرى، رفع مراكز الحراسة والتفتيش من على الطرق، إلخ...- لم تؤد إلى أي نوع من الثقة عند قادة الاستقلاليين، ثم كانت اتفاقيات ٣٠ يونيو ١٩٩٥، التي تم التوصل إليها بعد الاختراق الكبير الذي قام به شاميل باساييف في دوديونوفسك -والتي تتضمن أيضا الانسحاب التدريجي للجيش، ونزع سلاح الشيشانيين، عدا مجموعات صغيرة للدفاع عن النفس في القرى- سرعان ما تحولت هي الأخرى إلى حروف ميتة مثل كل اتفاقيات وقف القتال التي أعلنها يلتسن. ولم يكن التمسك بإجراء الانتخابات البرلمانية تحت سيطرة حكومة زافجاييف، سوى أول انتهاك لهذه الاتفاقيات، ومؤشر لاستمرار لغة موسكو المزدوجة.

إن هدف الرئيس الروسي هو كسب الانتخابات الرئاسية بأي ثمن، وهذا يدفعه إلى فعل أي شيء ومنها التنازل الظاهري، ولكن ماذا يحدث بعد فوزه المحتمل في الدورة الثانية؟. هل يقبل الشيشانيون نزع سلاح جمهوريتهم الصغيرة دون تدخل من جانب المتقلب المزاج الجالس في الكرملين؟. ألا يحتمل أن تدخل الحكاية لعبة جديدة كتلك التي انتهت بالهجوم الدموي للجيش في عمليات خاصة، وما تبعها من إقامة معسكرات الإعداد والتعذيب والاغتيال في نقاط التسلل؟. والشيء بالشيء يذكر، فإن نصرا مؤكدا لزيجانوف في رأي كثير من الاستقلاليين سوف يمنح الفرصة لقادة وضباط الجيش الأكثر عربدة ويزيد الوضع تعقيدا.

إن دعم الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية المعلن للرئيس الروسي طوال فترة رئاسته المشوشة، يكشف من جديد عن أن الحكومات الغربية تضحي بالمبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان من أجل مصالحها. فقبول روسيا كعضو في المجلس الأوروبي، والقروض الجديدة من صندوق النقد الدولي، وزيارات الدعم لزعماء باريس ولندن وبون وواشنطون، تؤكد جهلا مطبقا بالواقع الروسي ودور يلتسن كمبشر مفترض لاقتصاد السوق، وكداعم للديمقراطيين ومعاد للشيوعيين.

ما أهمية شعب صغير مكون من ما يزيد قليلا على مليون نفس، جريمتهم الوحيدة أن موقعهم جاء صدفة في مكان إستراتيجي لقوة عظمى، لها "تطلعات استعمارية"؟. فصندوق النقد الدولي لازال يمول حملة عسكرية تبلغ تكاليفها اليومية ملايين الدولارات، دون مقابل سياسي أو إنساني يذكر. هل القتل الجماعي مسألة روسية داخلية وأي إدانة خارجية تعتبر تدخلا غير مقبول في الشئون الداخلية؟. إن النداء الذي وجهته يلينا بونر أرملة زخاروف

قبل اشهر قليلة إلى السكرتير العام للامم المتحدة، يتعالى في مواجهة السكون الاخلاقي والإحساس المريض الأعمى: "رغم أنه لا يتطابق مع لهجة وطريقة الجنرال المغتال دوداييف، فإن هذا النداء يتفق معه فيما هو أساسي. إن مسئولية الإبادة الجديدة التي يتم تنفيذها في الشيشان تقع على عاتق يلتسن وحده".

٤- حصار ومذابح ومقابر جماعية.

قام الجيش الروسي في ١١ من ديسمبر ١٩٩٤ بغزو جمهورية الشيشان؛ "لإعادة النظام الدستوري"، والقضاء على نظام "المجرمين وقطاع الطرق"، حسب قول وزير الدفاع السابق بافيل غراتشيف، وكان مقررا أن تستغرق العملية عدة ساعات: مجرد نزهة عسكرية. لكن بعد سبعة عشر شهرا خلفت "النزهة" من ورائها حوالي ٤٠ ألفا من الضحايا المدنيين -بينهم العديد من الروس القاطنين في مدينة غروزني- وتقدر خسائر الجيش المحتل بحوالي ثلاثة عشر ألف قتيل ومفقود في العمليات، وتدمير العاصمة بكاملها، إضافة إلى المدن الصغيرة والقرى في الشيشان، وهو دمار لايمكن مقارنته في تركيزه وحجمه سوى بما حدث لبعض المدن الروسية والألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد أكثر من عام ونصف من الغزو تكبد الجيش خسائر تزيد على ما تكبده خلال اثنتي عشر سنة أثناء مغامرته في أفغانستان.

وكما حدث في أفغانستان، قام زعماء الكرملين الجدد أولا بتجميل الغزو ليبدو عملا بطوليا لمجموعة من "المواطنين الشرفاء"، أنهوه بالتخلص من دكتاتورية وفساد دوداييف. وفي نوفمبر ١٩٩٤ دخلت الدبابات لأول مرة في العاصمة غروزني، وتم تصويرها على أنها "مساعدة صديقة" للشيشانيين الشرفاء، إلا أن التدخل انتهى بشكل كارثة، فقد جرى تدمير الدبابات بقاذفات القنابل اليدوية، ورغم ادعاءات قادة موسكو العسكريين بأن القتال شاركت فيه قوات مرتزقة مجهولة الهوية، إلا أن هؤلاء القادة ابتلعوا الهزيمة عندما أعاد إليهم الجنرال دوداييف أسرى جيشهم. إلا أن يلتسن ووزير دفاعه السابق غراتشيف لم يتعلما درس التاريخ من الهزائم السابقة، التي واجهتها القيادة السوفييتية في حرب أفغانستان، والتي كانت أحد أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي، ولا حتى ذكريات الحروب المتتالية في الشيشان، التي بدأت منذ عهد الإمام منصور، لذلك دفع يلتسن بقواته إلى حرب يعرف تماما أنه من الصعب كسبها. لذلك من هنا بدأت جهود التليفزيون الحكومي والصحافة الرسمية محاولاتها إخفاء الحقيقة المرة لما يحدث، ومحاولاتها إخفاء الأفعال البربرية المشينة وتخبط العمليات العسكرية، وتصوير الهزائم على أنها أعمال بطولية، مكررين نفس طقوس الماضي "سحق آخر قطاع الطرق صار وشيكا". ورغم الإصرار على التبرير وخداع النفس -إرث مباشر

ورثته روسيا عن الاتحاد السوفييتي المأسوف عليه- إلا أن العمليتين اللتين قام بهما شاميل باساييف في بودينوسك، ورادوييف في كيليار، وعودتهما منتصرين إلى الشيشان، كانتا سببا في الجحيم الذي فتحه الجيش على القرى الشيشانية، فتسبب في خسائر في الجيش نفسه أكثر من الخسائر التي وقعت بين صفوف المقاتلين المطالبين بالاستقلال، وفتحت هذه العمليات عيون جانب كبير من الرأي العام، فازداد عدد المواطنين المعارضين لهذه الحرب، ولم يعد هناك سوى قلة قليلة من الجنود والضباط لمتطوعين قليلي العدة والعتاد، على استعداد للتضحية بأرواحهم في ساحة الشرف، فجمهورية الشيشان لم تعد تعنيهم في شيء.

إن استقلال هذه الجمهورية التي تبلغ مساحتها ١٣ ألف كيلومترا مربعا الذي أعلنه جنرال القوات الجوية السوفييتية دوداييف في ٢٧ من أكتوبر ١٩٩١، يشبه في العديد من جوانبه الاستقلال الذي أعلنه الإمام النقشبندي في أغسطس عام ١٩١٧، والذي تولاه عسكريا بعد ذلك الشيخ حاج: في كلا الحالتين استغل كل منهما فرصة انهيار القيصرية وتفسخ الاتحاد السوفييتي غير المتوقع، فسلف دوداييف كان ضابطا من أصل شيشاني في جيش نيقولا الأول برتبة كولونيل، وهو "كيتماس ألدحانوف"، شارك من قبل بشكل نشط في النضال من أجل الاستقلال، في البداية ناضل ضد القوقازيين والروس البيض، وبعد ذلك ناضل ضد البولشفيك. كانت الحرب ضارية، والمزيدون الذين كانوا تحت قيادة محمد البلقاني، الذي يوجد مزاره وقبره حاليا في داغستان ويعتبر هدفا لحجيج كبير في الأيام الأقل قمعا، تمكنوا من القضاء على فرقة كاملة من الجيش الأحمر في معركة جرت في وادي أركان، على بعد مسافة قريبة من المكان الذي تم فيه تدمير طابور تابع لفرقة المشاة الميكانيكية رقم ٢٤٥ في إبريل من هذا العام، فلم يتبق من هذا الطابور سوى دباباته المحترقة، وكانت تلك الحرب قد انتهت بشكل مؤقت عام ١٩٢٥، بعد إلقاء القبض على الإمام نجم الدين ونوابه في مخابئهم بجبال القوقاز، تماما كما حدث في الوقت الحالي وفي زمن الإمام شاميل، فقد تم هدم قريتي ذ دونو وباموت بعد حصار عنيف.

ولكن على عكس ما فعل الإمام شاميل مع الزعماء الدينيين في إمارة القوقاز الشمالية، فلم يستطع دودايبف لم شمل أغلبية الشيشانيين حول زعامته، فقد كانت فكرته عن الدولة، وتفتيته القبلي وسلبيته -بعضهم يسميها تواطؤا- تجاه المافيات المحلية، كل هذا زرع الخلافات، وأغضب العديد من الاستقلاليين. شهدت الشيشان خلال فترة رئاسته التي استمرت ثلاث سنوات، العديد من تصفية الحسابات وانتشار الفساد. وكما ذكر لي عثمان إماييف النائب

العام السابق للجمهورية، وعضو الوفد الذي شارك في محادثات وقف إطلاق النار مع الروس في ٣٠ من يوليو ١٩٩٥، فقد مرت من بين يديه العديد من القضايا الخاصة بالمختفين في الصراعات بين القبائل المتناحرة. إضافة إلى مرور أنابيب الغاز المتجه إلى البحر الأسود عبر الأراضي الشيشانية الذي أدى إلى وجود تناقض بين المصالح. لذلك ما لم يستطيع أن يحققه دوداييف بسبب فرديته وضعف شخصيته، حققه الروس خلال غزوهم الهمجي في ديسمبر، وتدميرهم للعاصمة: التوحيد الكامل لكل الشيشانيين للدفاع عن استقلالهم.

لا يبدو الكلام مبالغا فيه عن لينينجراد ودرسد اللتان انطبعت صورهما في الذاكرة بالأبيض والأسود أثناء الحرب إلى الأبد، فوسط غروزني كان مركزا لسقوط قنابل المدفعية الثقيلة ونيران الدبابات والصواريخ، والقنابل التي كانت تلقي بها القاذفات والطائرات المروحية. حيث اختفى وسط المدينة من الوجود بما فيها قصر الرئاسة الذي كان يتخذ دوداييف من مخابئه مركزا له، وكذلك مبنى البرلمان، ومعهد علوم التربية، والبنك الوطني للجمهورية والمعهد العالي للبترول، ومتحف عبد الرحمن أفتورجاييف، ومسرح ليرمونتوف، ومتحف الفنون الجميلة، وفندق القوقاز، إلخ.. وحتى يمكن إخفاء حجم الدمار بالمدينة، تم طحن جبال من الحطام في ماكينات طحن ضخمة، ونقل بقاياها إلى خارج غروزني، وأخترع صناع "البطولة" سواتر معدنية أقاموها حول المناطق المدمرة لإخفائها عن العيون الفضولية، ولكن عبر فتحات هذه السواتر يمكن مشاهدة العمل الذي لا يتوقف لماكينات التنظيف والطحن. فلم يسلم شيء من هذا الدمار سوى بعض الأشجار والحشائش البرية. وبعيدا عن هذه الصورة يمكن رؤية عامودين من الدخان يتوجان حقول البترول المشتعلة خارج المدينة: وحريقها يضبب سماء المكان، بينما يرتفع لهيبها من وقت لآخر كرمز حي للجحيم الذي يبدو كوحش طائر يحوم على المدينة.

والمناطق القريبة لا تقل دمارا عن هذا المشهد: مبان مفرغة، وسماوات مخضبة بالسواد، وفوهات مفتوحة، وبيوت شبه متفحمة وخشنة، بواجهاتها التي تنتشر عليها أخاديد كالجدري، وعلامات مرور مثيرة للضحك، ورافعات شبحية معلقة في الفراغ. ومبنى مكون من بيوت وردية اللون كانت تسكنها من قبل الطبقة الحاكمة المحلية، برزت أعمدتها المتعددة، وتيجانها المنحنية بشكل مضبب، وتستعرض شرفاتها بحوافها المحترقة، وتبدو الشرفات كما لو كانت طاقات مبيضة، وكما قال لي مرافقي أن هناك أسرة روسية تعيش في أحد مخابئ هذا المبنى المنهار. اقتربنا من المكان لمشاهدة هذه الأسرة: رجل شبه قعيد، وأمه المشوشة

العقل وطفلة في التاسعة من عمرها يسكنون في غرفة قذرة ومفتوحة على الخلاء، ليس لديهم عمل ولا معاش ولا حتى مساعدة، يعيشون على الصدقات التي يقدمها الشيشانيون لهم ولأمثالهم من الروس المقعدين. وبينما يحافظ القوقازيون على صلاتهم الأسرية والقبلية نجد الروس يعيشون واقعا مأساويا: يعانون من تجاهل ورفض مواطنيهم الذين تسببوا في هذا المصير. والعجائز اللاتي يتصعلكن بالقرب من السوق يمثلن صورة حية للتدمير الذي مارسه الغزاة، الذين لم يرحموا حتى مواطنيهم.

عثرت بين أشجار وبقايا زهور حديقة قريبة من المنطقة المحاطة بالسواتر المعدنية على تمثال لدب يركب دراجة، مما يشير إلى ان تلك الحديقة كانت مخصصة قبل سنوات لألعاب الأطفال. ويبدو أن هذا التمثال الصغير كان أسعد حظا من تمثال لينين الذي كان مقاما على بعد مئة متر تقريبا، والذي لم يبق منه سوى قاعدته، بعد ذلك بأيام قليلة، وفي مكان مهجور قريب من محطة القطارات الخالية، عثرت على تمثال ضخم مهمل لرئيس مجلس السوفييت، تحيط به الشجيرات من كل جانب: كان يرقد هناك فلاديمير ايلتش أوليانوف الذي كان معروفا بقوته وعصبيته الخطابية.

باقي المدينة يصور نفس المشهد البشع المهدم: عمارات مهدمة، دبابات محترقة، دعامات أسقف خالية، دعامات معلقة، أحياء كاملة هجرها قاطنوها، ومن وقت لآخر تجد لافتة محذرة تقول: 'هنا أناس يسكنون"، أو أكثر إيجازا فتقول: "يوجد أحياء". مركز المدينة الجديد الذي يحتله مبنى الرئاسة الموالية للروس، ومعسكر للجيش يبدو كقلعة حصينة: محاط بمراكز محصنة، ودبابات على كل جانب، وأعشاش مدفعية سريعة الطلقات على أسطح المباني الرئيسية، وجنود ورجال بوليس كثيرون في وضع استعداد للقتال. الأماكن التي زرتها -المركز الصحافي والمكاتب التي حصلت فيها على تصاريح التجول كصحافي من الجانب الروسي أولا، ثم بعد ذلك من إدارة الألعوبة زافجاييف- كلها محاطة بأكياس الرمل وحراس بأسلحة أتوماتيكية، ورغم كل هذه القوة المرعبة التي توجد في هذه العاصمة التي تم احتلالها بالدم والنار، تمكن يوم ٦ من مارس الماضي عدة مئات من المقاتلين الشيشان المسلحين بقاذفات القنابل اليدوية من احتلالها في ساعات قليلة، وكان نجاح الهجوم الخاطف دليلا على السلام الخادع الذي أعلنه الروس مرارا، وتمكنت من التأكد من هذا بنفسي بعد ذلك بأيام قليلة، فالليل ملك للشيشانيين، تتحول خلاله مواقع المراقبة والقواعد العسكرية المقامة في السهل إلى أهداف سهلة معرضة لضربات مباغتة للقوة المعادية الخفية .

بالإضافة إلى الرقم غير المحدد من ضحايا الحرب المدنيين -بعض المحللين والخبراء الروس والشيشانيين يرون أنها تربو على ٤٠ ألفا- يجب تعداد المفقودين بشكل منتظم خلال عمليات التفتيش، والذين يتم اعتقالهم وإرسالهم إلى نقاط مختلفة مخصصة لممارسة عملية "التنقية". أجريت برفقة ريكاردو أورتيغا مراسل التليفزيون الإسباني "أنتينا-٣"، حوارا مع حسين جاميدوف رئيس لجنة الصليب الأحمر في غروزني، ذلك الطيار المدني الذي تغير اتجاه حياته فجأة، عندما عثر على جثث اثنين من أبنائه في إحدى المقابر الجماعية، وبعد أسابيع قليلة من "الإغماءة" التي أصابته في نهاية يناير ١٩٩٥، منذ تلك اللحظة، تحول جاميدوف من شخص مهندم يرتدي حلة رمادية وربطة عنق، إلى شخص باحث عن المذابح ومستودعات المخلفات البشرية المنتشرة بطول الأراضي الشيشانية وعرضها، ويقوم بتصوير ضحاياها. كان جالسا في مكتبه الصغير يعرض علينا أكداسا من العلب الكرتونية المليئة بالصور المرتبة والمحفوظة بحرص شديد، كل ضحية تبدو مختومة برقم، إلى أن وصل الرقم المؤقت حتى ١٣١٣. تم التعرف على ٤٢٦ شخصا منهم، وهناك العديد من المترددين على مكتبه للبحث والتعرف على أقربائهم. وبينما كنا نتحادث دخل رجل يبحث عن أحد عشر مفقودا من أفراد أسرته اختفوا جميعا، وهو يزور المكتب يوميا على أمل أن يجد "شيئا" جديدا يسمح له بالقيام بدفن بعضهم.

عملية التعرف صعبة جدا: في كثير من الأحيان يتعلق الأمر بجمجمة عارية أو متفحمة من جراء حريق، أو عدد من الجثث المكدسة في صناديق الذخيرة بأوضاع مختلفة، وكلها تقريبا تبدو عليها آثار التعذيب والموت بالرصاص: رصاصة في العين أطلقت عن قرب شديد، في الجبهة، في العنق، والأيدي مقيدة بحبال أو أسلاك. إنها مشاهد رعب، ومن الصعب تأمل الضحايا ذوي العيون المجوفة، والأفواه المفرغة، التي تبدو عليها علامات الصراخ، أو علامات الاختناق، والاحتجاج الساخط، أو تبدو عليها علامات الدهشة، والألم، وأحيانا كما لو كانت علامات دهشة بريئة، وقليلا ما تبدو عليها علامات الجدية، ورغم محاولات الصليب الأحمر، إلا أن السلطات العسكرية الروسية لم تحقق في أمر أي مقبرة جماعية مكدسة بالجثث. ولن تكون هناك أية محكمة تحاكم مرتكبي هذه المذابح.

وفي الصليب الأحمر يعرض علينا مصور شيشاني شريط فيديو يصور عملية القصف الجوي التي تعرضت لها قرية "كادر يورت" يوم ٢٨ من شهر مارس الماضي، وكانت نتيجته

موت ١٢ طفلا. وكانت القيادة الروسية العليا كذبت وجود هذا القصف، ووصفت النبأ بأنه دعاية معادية يطلقها "قطاع الطرق".

ورغم أن عمليات القتل الجماعي تعود إلى شهري مارس وإبريل من عام ١٩٩٥، إلا أن عمليات التفتيش والاعتقال التي تقوم بها السلطات الروسية لا زالت مستمرة، وفي نقطة تفتيش مقامة في حي "ستارو-بروميسلوفي" الخاضع لوزارة الداخلية الفيدرالية الروسية في الشيشان، يوجد عدد كبير من المعتقلين، وكل معسكر به أماكن اعتقال واستجواب وتعذيب خاصة به. روى شاب يدعى سلمان أمام كاميرا الفيديو حكاية رحلته وإقامته في أحد هذه المعسكرات، قال أن الناقلة التي أقلتهم كان بها العشرات من المشتبه فيهم، قتل منهم الجنود الروس ثمانية بسبب احتجاجهم على طريقة النقل، وشربوا الفودكا وهم جلوس على جثثهم. وبعدها أعلنت القيادة العسكرية أن هؤلاء القتلى كانوا ضحايا لطلقات المدفعية التي أطلقها المقاتلون المطالبون بالاستقلال.

يشير الاتفاق الثاني الموقع يوم ١٠ من يونيو في نازان، إلى تشكيل لجنة مكونة من ست ممثلين عن الروس وست ممثلين عن الشيشان، للبحث والتعرف على المفقودين والمعتقلين خلال السبعة عشر شهرا التي شهدتها الحرب، وبند آخر من هذا الاتفاق يشير إلى الإغلاق النهائي لنقاط "التنقية"، لكن بعد كل هذه الاتفاقيات التي لم يتم تنفيذها والوعود التي تم الحنث بها، لم يعلق الشيشان أملا على اللجان الروسية والنوايا الحقيقة لزيغانوف ويلتسن. كل شيء يمكن أن يظل على حاله، لأن شراهة قيادات عسكرية مثل فلاديمير شامنوف وفياتيسيف تيجوميروف في الانتقام سوف تبقى، نظرا لمرارة الذل والفشل في تطبيق "الاستسلام" والتشوش والمعنويات المنهارة لقواتهم التي لا تنبئ بجديد، قال لي أحد قيادات المقاتلين الشيشان الذين التقيتهم بعد ذلك أن "الحرب مستمرة منذ قرنين من الزمان، ولا يستطيع أحد أن يتكهن إن كانت سوف تستمر أربعين أو خمسين سنة أخرى؟".

٥- حدود متحركة.

على عكس ما حدث في البوسنة، حيث كان نقص كل أنواع الغذاء يزيد من صعوبة الحصار، فإن الشيشان تجد ما تحتاجه جيدا فيما يختص بالمتطلبات الأساسية، حيث تمتد الحوانيت الصغيرة ومنافذ البيع المليئة بكل أنواع الأغذية المختلفة على جانبي الطرق والتقاطعات التي يحكم الجيش الروسي سيطرته عليها: قناني بنزين، وقطع غيار، وإطارات مستخدمة، ومثلجات، وحوانيت جزارة، وموائد فاكهة وخضروات، وحوانيت لا تعد ولا تحصى تبيع البيرة والفودكا والسجائر، فيما نوحي مراكز المراقبة المنتشرة والقريبة -محاطة بأكياس الحصى، ومخابئ المدافع الرشاشة- للغريب عن المكان بنوع من الهدوء الكاذب.

المشهد في شوارع العاصمة غروزني التي لم يتم تدميرها بالكامل، أو الشوارع المضمخة برماد الحرائق، أو الغارقة في الوحل المتخلف عن الأمطار الأخيرة لا يختلف كثيرا -كل شبكات المجاري وشبكات المياه النقية توقفت عن العمل- حيث يمكن مشاهدة: بيع وشراء أنواع مختلفة من البضائع، التي يعيش عليها الشيشانيون الذين فقدوا عملهم وتحولوا إلى المقاومة السلبية، وعليهم أن يعيشوا رغم قسوة المحتل.

تشبه أسواق غروزني في شكلها أسواق الأناضول وإيران الريفية: حيث يحمل شباب المضاربين بين أيديهم حزما من الدولارات، ويدور البشر بين موائد الطعام والمثلجات، ويمرون بين حوانيت بيع الفيديو، والراديوهات، والشرائط والمسجلات، ويتحاورون حول أكوام من علب السجائر الأمريكية، يتجمعون ويتنازعون حول أسعار السراويل والجاكتات، والبلوزات والقمصان التركية الصنع. يريني مرافقي علبة حلوى صناعة إسبانية!، والجميع يحملون أكياسا من البلاستيك تحمل ماركات "أوكلاند" أو "منز وير" ، كل هذا الخليط والمحاورات تجذب الأوغاد المحليين، وعملاء الحكومة الموالية لروسيا، وأثناء تجوالي أسترجع في ذهني صورة لشخصية بارزة بوجه منتفخ وترتدي ملابس تشبه ملابس المافيا (أو ربما كان العكس صحيح؟) وحلة بيضاء وقبعة رخوة تصدر أوامرها الهامسة عبر تليفون جيب صغير ملتصق إلى إحدى أذنيها.

- هل هذا كان حقيقة أم محض وهم؟

هذا السؤال ذاته يلح على الزائر المنوّم بفعل النشاط اليومي المحموم، والمشاهد الرومانتيكية للمناطق المفترض أنه "تم إخضاعها". فمواقع الرقابة منتشرة على طول الطريق المؤدي إلى غروزني، طبقا للتليفزيون الحكومي، موجودة لضمان العودة التدريجية للحياة الطبيعية، وخلال جولتي في مناطق متعددة من الشيشان واجهت كل أنواع الحواجز والممرات، التي كان يجب على العربات المدنية أن تمرق عبرها في حركات ملتوية: كتل من الأسمنت المهمل، وأحجار، وسواتر معدنية، وحواجز، وأسلاك شائكة، ودعامات، وجذوع أشجار، وبقايا دبابات مؤكسدة. وفي كل مركز مراقبة يجري فحص تصاريح المرور بدقة متناهية، وكذلك حقيبة السيارة. فهل يمكن لكل هذا القدر من الرقابة أن يمنع المقاتلين الشيشان من الوصول إلى "المناطق الآمنة"؟.

لاشيء بعيد عن الحقيقة، فوزارة الدفاع الروسية تدفع رواتب وحدات الجنود المتطوعين متأخرة لعدة أشهر، مما يدفعهم إلى مواصلة حياتهم عن طريق الرشوة والسرقة، ويبيع الجنود الروس بنزين دباباتهم في الطريق العام للشيشانيين، ويبيعون في الخفاء مدافعهم الرشاشة وبنادقهم وذخيرتهم، والحدود قابلة للاختراق ومتحركة: العسكريون الذين يخشون هجوما ليليا يتوصلون إلى اتفاق مع القرى على رفع سواتر المراقبة، وهذا يفسر سبب سهولة عبور المقاتلين الشيشان إلى "المناطق الآمنة"، كما حدث في غودريماس وسيرنوفودسك، مما اضطر الجيش إلى العودة لحصارهما من جديد، وغزوهما تحت وابل من النيران والقصف الشامل. وفي غروزني نفسها فإن الوضع غير آمن: في الثاني من يونيو انفجر لغم أثناء مرور عربة مدرعة ولقي أربعة جنود مصرعهم. وبعد ذلك بسبعة أيام سمعت أنا وابلا من طلقات رشاشة ومدفية المورتر العنيفة قبيل الغروب: لقي روسيان مصرعهما في مواجهة مع المقاتلين الشيشان، بينما تقول مصادر أخرى أنهما لقيا مصرعهما برصاص البوليس الشيشاني الرسمي المتحالف معهم. وأحيانا يقوم أحد طوافم الدبابات بإطلاق النار لإرهاب الأهالي، أو لتخويف المدنيين دون أن يكون هناك سبب واضح، أو يكون من يفعلها تحت تأثير السكر، وتأكدت شخصيا من هذا عدة مرات أثناء وجودي هناك، لذلك فإن بضع زجاجات من الفودكا كافية لمنح تصريح المرور إلى أكثر المناطق تحريما.

قال لي القائد الشيشاني رسلان نور الدين، أحد المدافعين عن استقلال قرية كيسكويا أثناء حصارها المدمر، أن القرى التي يعتبرها الجيش الروسي تحت سيطرته تعود إلى سيطرة الاستقلاليين بشكل سري دون أن يتم الإعلان عن ذلك، "ما يحدث كثيرا أن الروس

يعودون إلى تلك القرى للتأكد من استتباب النظام، ومن يرافقهم أثناء جولاتهم في القرى هم أنفسهم القادة الاستقلاليون، الذين يعودون إلى الحياة المدنية بشكل مؤقت، وعندما يتوقف القتال في المناطق "السلمية"، يعود مقاتلونا إلى بيوتهم بكامل أسلحتهم، ويظلون في وضع استعداد لتنفيذ الأوامر الصادرة إليهم بالعودة إلى القتال".

في اليوم التالي من إقامة طقوس "الذكر"، الذي حضرته بوساطة من جانب عثمان أماييف النائب العام السابق لجمهورية الشيشان، ورئيس الوفد الذي وقع اتفاق وقف إطلاق النار الذي تم التوصل إليه في ٣٠ أغسطس ١٩٩٥، التقيت مع رسلان وزميله يعقوب -الذي فقد خمسين من أفراد عائلته منذ بداية الحرب، سبعة عشر منهم في عداد المفقودين- وهما من "مريدي الورد" (الطريقة) القادرية التي يتزعمها "كونتا حاج": كلاهما يرتدي الملابس المدنية، المكونة من سراويل وعباءة قاتمة اللون، ويضعان على رأسيهما "طاقية" الطريقة، وفي أقدامهما أحذية رياضية. وأثناء مشاركتي لهما الطعام المكون من خبز جاف وجبن الضأن، شرح لي يعقوب الذي لفتت نظري لحيته الطويلة وطريقته الحازمة في أداء الذكر الصوفي، الوضع في الشيشان "المفروض عليها السلام".

"الروس يبحثون عن تفاهم ضمني مع القرى، مثلا، لم يضعوا أقدامهم هنا أبدا، فهم يتعاملون في الحقيقة مع إدارة يسيطر عليها الاستقلاليون، وجمهورية الشيشان تتكون من أربعمائة تجمع سكاني أو قرية، فإذا أرادوا غزوها وإدارتها جميعا، ترى كم سنة يحتاجون إلى ذلك؟. لذلك فهم يتدخلون عندما يعلمون بوجود تجمع كبير من المقاتلين، عندها يحاصرون القرية أو المدينة، كما يحدث حاليا في حصارهم لقرية "شالي"، ويمارسون أنواعا متعددة من العقاب، لإثارة الرعب في القرى المجاورة. ويعتقدون بذلك أنه باستطاعتهم القضاء على الذين يسمونهم "إرهابيين"، لكن ما يحدث أننا نخترق صفوفهم ليلا ونتجمع في مكان آخر".

"استخدموا المدفعية الثقيلة، والطائرات المروحية وقاذفات القنابل، وأسلحة محرمة دوليا أثناء حصارهم لغويسكويا، فهرب المدنيون وصمد المقاتلون شهرا كاملا من الحصار: من ٤ إبريل حتى ٨ مايو الماضيين، ولحسن الحظ لم تنفجر العديد من القنابل، فاستعدناها لنستخدمها كألغام مضادة لدباباتهم. وخسروا هم أيضا الكثير من القتلى".

إحصائيات قتلى العسكريين الروس في العمليات متناقضة، لذلك كنت أريد أن أعرف رأيه الشخصي.

"لا يستطيع أحد أن يجيب على ذلك بأرقام محددة، ولكن يجب مضاعفة الأرقام الرسمية المعلنة خمس مرات على الأقل التي تحصر القتلى في رقم ٢٥٠٠ قتيلا. ففي أغلب الأحيان يدفنونهم في مقابر جماعية حتى لا يثيروا الشعب كما حدث في أفغانستان. وآخرون يحملونهم إلى روسيا في ثلاجات، أو يتركونهم في أرض المعارك لتأكلهم الكلاب".

"٩٠ في المئة من الجنرالات لا يخفون ميولهم الشيوعية ويهاجمون يلتسن علنا. كل الأعلام التي ترفرف على قواعدهم العسكرية، والتي ترفرف على مراكز المراقبة تحمل اللون الأحمر للاتحاد السوفييتي، ولا تحمل ألوان علم الاتحاد الروسي، ونحن نلعب معهم لعبة الثور والمصارع: نبارزهم وعندما نتمكن منهم نغرز السهام في أجسادهم، ومن عانوا في حرب أفغانستان مثل الجنرال بروموف يعارضون هذه الحرب. إنهم ثيران خبرت المصارعة ولا ترغب في الاستمرار فيها".

•••

تأكد لي يوم الخميس ٧ يونيو مدى تزعزع السيطرة الروسية في المناطق السهلية المعلنة بشكل رسمي على أنها مناطق تحت السيطرة، فبعد مرورنا بمنطقة تخضع لبوليس الحكومة الموالية للروس، غامرنا بالدخول في مناطق محرمة حيث توجد مناطق بيع البنزين والمثلجات التي يتعامل فيها القرويون مع مستعمريهم.

عندما وصلنا إلى قرية "أليروي"، قام بحراستنا مجموعة من المقاتلين الاستقلاليين حتى بيت "خونكار باشا اسرابيلوف" قائد الجبهة الجنوبية الشرقية، وعضو القيادة العليا مع كل من رسلان خليف قائد الجبهة الجنوبية الغربية، وشاميل باساييف قائد الجبهة المركزية، تلك القيادة التي يرأسها أصلان ماسادوف، القائد العام للقوات المسلحة الشيشانية، والمحاور الذي توصل إلى اتفاق نازران الموقع في ١٠ يونيو، يبدو خونكار باشا نحيفا وضعيف البنية، وقسمات وجهه عادية ومعبرة. كان زراعة الأيسر ملفوفا بضمادات، دعانا للدخول إلى إحدى الغرف برفقة أحد مساعديه: كان شابا بعيون زرقاء تبدو عليه تلك الملامح الجمالية الريفية المعروفة في تركيا، والتي يتمتع بها بعض القوقازيين.

قلت له: "ذكروا لي أنك قائد الجبهة الجنوبية الشرقية، لكننا وصلنا للقائك دون أن يعترضنا أحد. إذن ما نوع هذه الجبهة؟. مرت فترة صمت قدموا لنا خلالها الشاي.

قال: "لدينا أوامر من الرئيس يندربييف بوقف جميع العمليات العسكرية طوال فترة المحادثات العسكرية حول السلام".

(يطلعني على الأمر)

ويضيف: "لكن الروس لازالوا يطلقون النار، هذه الليلة قذفوا القرية بمدفعيتهم الثقيلة، وأول من أمس هاجمت الطائرات قريتي باشي يورت وغانزلوشي وهما من المناطق الخاضعة لسيطرتنا. ويقومون يوميا بطلعات بالطائرات المروحية، لكن رجالنا لا يردون على استفزازاتهم ولا استفزازات المرتزقة الذين يعملون في خدمة الروس".

"يستخدم يلتسن كل وسائل الدعاية التي يملك السيطرة عليها ليصفنا بالتعصب والأصولية واللصوصية، وأوروبا تقف مكتوفة الأيدي وتستغل كل ما يمكنها للحصول على امتيازات من جراء انهيار وبيع الاتحاد السوفييتي".

"نحن لا نطالب بأكثر من استقلالنا، وحقنا في اختيار رئيسنا، وتكوين دولتنا الفقيرة الصغيرة بمطلق الحرية، نحن نريد دولة مواطنين مستقلين بغض النظر عن أصولهم العرقية، أنا أمضيت عامين في "أستراكان" بين مواطنين روس، لذلك لن نقبل توقيع أي عقاب عليهم ماداموا يقبلون العيش بيننا في سلام، وأكثر من هذا، فإنهم إن اختاروا طريق الاستمرار في الحرب، فلتكن الحرب، وسوف نستخدم فيها كل ما يصل إلى أيدينا من أسلحة ووسائل أخرى للدفاع عن أنفسنا. ولن نقبل أية وصاية أبدا".

"يريدون أن يفرضوا علينا ثقافتهم وعاداتهم، إنهم يخرقون حقوق الإنسان بلا خجل، لقنونا منذ طفولتنا في الاتحاد السوفييتي كراهية النازية وحرضونا ضدها، ولكننا نكتشف الآن أن النازية تسربت إلى الاتحاد الروسي وجيشه. كيف يمكن وصف مقدم التليفزيون الحكومي الذي يقدم اثنين من المتطوعين الروس في برنامج يذاع في أكثر الأوقات إقبالا من المشاهدين، وهما يعرضان الآذان التي قطعاها لبعض المقاتلين الشيشان؟".

"هناك خطر استمرار الحرب واتساعها لتشمل باقي مناطق القوقاز، إذا لم نتمكن من الدفاع عن أرضنا سوف نوسع الحرب خارج أراضينا، لن نترك السلاح حتى يعيدوا إلينا حريتنا وأرضنا".

"قلها عالية يا سيدي في بلادكم، أننا مسلمون نقاتل منذ منتي سنة من أجل هويتنا، وكل الجنود الذين يقاتلون تحت قيادتي على استعداد للدفاع عن فكرة مثالية: أن نعيش أحرارا، وطبقا لما يمليه علينا تراثنا وقوانيننا".

ويعود الحديث من جديد إلى موضوع عدد قتلى العدو.

"يريدون خداع الراي العام فيخفون عدد قتلاهم الحقيقي. في قريه شيرج يورت التابعه لشاتوي هناك كلام حول إحراق الجثث. فهم لا يدفنونهم بل يحرقونهم، أو يرسلونهم في ثلاجات إلى رستوف (في مقال للمراسل الخاص لصحيفة "ليبراسيون" عدد ١٢-٦-٩٦ كتبه من تلك المدينة الروسية يؤكد هذا الكلام). ففي آخر العمليات الخاطفة في غروزني، وصل العدد الرسمي للقتلى إلى ٨٩ قتيلا، بينما الحقيقة أنهم كانوا أكثر من ثلاثمئة قتيل".

وقبل أن يودعنا يملي علي خونكار باشا قائمة بأسماء القرى والمدن التي تم قصفها - ستاري أشجوي، وأوريجوفو، وغويسكوي، وتقع كلها في منطقة أشيجو-مارتان، وسيرزين يورت في منطقة شالي، أما زوناج فتقع في منطقة شاتوي، ويحثني على زيارة تلك القرى، لأطلع بنفسي على عنف قصفها.

•••

تعتبر قرية غويسكوي مثالا حيا على سياسة الأرض المحروقة، الموروثة عن النظامين القيصري والسوفييتي، لفرض السيطرة على الشيشان. حتى أشهر قليلة كان يعيش في القرية حوالي ثلاثمئة أسرة، يبلغ عددهم ما يقرب من ١٥٠٠ شخصا، والحصار الذي بدأ في ٤ إبريل بهدف اعتقال مجموعة من المقاتلين -الذين كان يقودهم روستان نصر الدين ويعقوب- استمر هذا الحصار خمسة وثلاثين يوما، استخدم خلاله الجيش المدفعية الثقيلة والطائرات القاذفة والطائرات المروحة قاذفة الصورايخ "جارد" و"هوركان" والقنابل العنقودية. ما تبقى من هذه القرية اليوم عبارة عن حفرة بعمق ستة أمتار وبقطر ثلاثة أمتار: تم تدمير المسجد بضربة واحدة، ولم يعد هناك بيت واحد قائم: حوائط مفرغة ومساكن محترقة، والأسقف لم يتبق منها سوى شباك معدنية تبقت بعد الحريق. وبينما كنت أتجول في القرية، كنت أتأمل البقايا: سيارات مفككة، وجبال من الرديم، وكابلات ملتوية، وجرار محترق، وقبعة، وثلاجة بلا باب، وغلاية شاي محطمة، وكتاب عن الأدب الروسي، وبقايا سجاجيد، وإطارات أبواب وشبابيك، وأواني مطبخ مدررة ومتناثرة.

كان الرجل العجوز أحمد داسييف بملامحه الفلاحية يعيش في البقايا التي كانت يوما بيته، كان يقيم بين بقايا أثاث محطم وبعض السجاجيد.

قال لي وهو يحاول أن يبتسم: "هذه هي ثروتي، حاولت روسيا أن تبرز لنا قوتها فمحت عائلات كاملة، وفجرت غيظها في النساء والأطفال. كل هذه البربرية خليقة برجل مثل جنكيز خان".

وبينما كنا نتحدث كانت هناك ثلاث طائرة مروحية تطير في سماء المنطقة، كنسور تبحث عن جيفة.

فيما كانت الشجيرات البرية المفعمة بالزهور تغطي هذا المشهد الحزين بحنان.

٦- الطرق الصوفية.

الاغتيال باستخدام التكنولوجيا الرقمية المتقدمة الذي راح ضحيته الزعيم الاستقلالي جوهر دوداييف، عن طريق صاروخ جو-أرض موجه بالإرسال التليفوني عبر الأقمار الاصطناعية، أثناء حديثه مع الوسيط الروسي وعضو مجلس النواب "الدوما" قنسطنطين فوروني، يدخل في إطار المنطق الإجرامي للعصابة المحيطة بالرئيس يلتسن، والتي فقدت بعض قوتها مؤخرا، يضاف هذا الاغتيال إلى سلسلة القائمة الطويلة من الاغتيالات التي راح ضحيتها الزعماء السياسيون-الدينيون الشيشان، الذين أعدموا أو قتلوا في السجون الروسية قبل وبعد الثورة. فالإمام منصور موجه الحرب المقدسة ضد غزو القوقاز قضى نحبه عام ١٧٩٣ في قلعة شلوزلبرج القيصرية، و"كونتا حاج" الذي يعتبر اليوم بعد موته مرشدا للمقاتلين من المريدين الشيشان قتل عام ١٨٥٧ في سجن أليكساندر الثاني، ومن بين خلفاء الإمام الشاميل الذين لم يلقوا السلاح كان الشيخ عبد الرحمن السقراطيلي زعيم تمرد ١٨٧٧، الذي أنهى بقية حياته في سيبيريا، والقادة التاليين في "الورد" (الطريقة) وحملة سلاح "باتال حاج"، ماتوا في السجن، أو تم نفيهم خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. بعد ثورة أكتوبر ونهاية إمارة القوقاز الشمالية، قام السوفييت بإعدام جميع الشيوخ النقشبندية والقادرية الذين لم يسقطوا في القتال: نجم الدين القوتسي وزعماء حرب الاستقلال التي دارت فيما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٣، تم القبض عليهم عام ١٩٢٥ في جبال القوقاز، وذبحوا جميعا، ثم الزعيم علي ميتاييف ابن مؤسس ورد "بامات غيراي" لحق بمصير سابقيه، رغم انضمامه للجنة الثورية الشيشانية التي أسسها البولشفيك، وتم إعدام جميع محركي تمرد ١٩٣٠ في العام التالي، رغم العفو العام الصادر بحقهم في إطار اتفاق السلام الشبيه بذلك الذي تم توقيعه يوم ١٠ يونيو الماضي، ويذكر المؤرخ السوفييتي ايه. ام. توتاييف أن خمسة من أبناء "قاطع الطريق" باتال بولهورييف الستة، وثمانية من أحفاده ماتوا وهم يحملون السلاح، أو تم تصفيتهم بلا رحمة، إضافة إلى عدد لا يحصى من أبناء العم والأقارب الذين لحقهم المصير نفسه، وكان "قريش" هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، وقاد مجموعة صغيرة من المقاتلين المعادين للسوفييت حتى عام ١٩٤٧، حيث تم القبض عليه ونفيه. فكان آخر المقاتلين الوحيدين الذين أقلقوا المحتلين بمفردهم محتمين بباقي شعبهم، ونسبت إليه مجلة "زورنالست"

مقتل أربعين من "المواطنين" في عهد خروتشوف وبرجنيف، تم القبض عليه عام ١٩٨٠، وكانت نهايته في إحدى الزنازين (يمكن الرجوع في هذا إلى كتابات بنجشين وليميرسير، وأيضا في مقال منشور في "صوت الله" الصادرة في باريس، عام ١٩٩٦).

والنجاح الرمزي في التخلص من القائد المعادي يجر على الجيش المزيد من الخزي والعار، وإذا كان يمكن لهذا النجاح أن يزيد من شعبية الرئيس يلتسن ويرضي مشاعر الانتقام لدى رجال القيادة العليا، والمقربين من الرئيس الروسي الذين دافع عنهم ليبيد، ولكنه لا يساعد على إنهاء المشكلة، بل على العكس تماما يزيد من تعقيدها، فإن إتباع يلتسن لخطوات سابقيه القيصريين والسوفييت يقوم بإغلاق الأبواب أمام خروج مشرف من الأزمة، فهو محصور بين شعار الانسحاب الذي يبيعه للناخب وبين القضاء التام على الصراصير الشيشانية (كما يقول بافل غراتشيف).

يقول المثل: "ينتهي السعار بموت الكلب"، لكن خبرة الشيشان المتراكمة عبر قرنين من الحرب، وتكتيك الأرض المحروقة، والنفي الجماعي، والإعدام بلا محاكمة، كل هذه الخبرات تؤكد أن هذا الأمر لن ينتهي بمجرد موت جديد، وطبقا لموروثهم من ردود أفعال القادة العسكريين فإن الأمر على العكس من ذلك، حيث تزايدت حدة القمع مع مرور الزمن، وسلسلة الإعدامات المحكمة للأمة والزعماء الدينيين في السجون ومعسكرات الاعتقال في سيبيريا، تعتبر رمزا لهذا النضال، فهم في حال استعداد دائم للدفاع عن النفس، ضد حنق وظلم المحتل. فالحقل الذي سحقته العربة في رواية تولستوي، يخضّر ثانية ولا يستسلم.

إن فقدان ذاكرة الزعماء الروس الحاليين في هذه اللحظات الحرجة من تشوش الأيدلوجية وأزمة الهوية –التي يمكن تبينها مثلا في الدعاية الانتخابية لمرشح الرئاسة "زيغانوف"، خاصة إشاراته إلى المسيح وستالين، وتذكيره الدائم بخطر النهاية وما يوزعه من منشورات دعائية مجانية معادية للسامية الموروثة عن البوليس القيصري في مواجهة بروتوكلات حكماء صهيون– يمكن ترجمته على أنه فقدان للذاكرة التاريخية التي تدفعهم إلى تكرار الأخطاء والجرائم لماض مثالي وسعيد. أما الشيشان فعلى العكس من ذلك، فهم يحافظون بكل حرص على ذاكرتهم التاريخية التي يتوارثونها من جيل إلى جيل ككنز ثمين. وهذا شيء مهم جدا خاصة إذا كانت الأوضاع تفرض عليهم التنازل عن شعار الحرب المقدسة، وتلجئهم إلى "الكتمان" (الخضوع الظاهري)، والركون إلى حياة "المباركين"، أو الأرواح المتلصصة التي تمارس الحياة بشرف، و"المباركون" يشبهون الموريسكيين الذين

مكثوا في إسبانيا بعد سقوط الأندلس، ومارسوا الحرب على طريقة قطع الطريق، وحافظ "المباركون" على جذوة نار القتال متقدة، فكانوا كتذكير حي بروح المقاومة التي لم تخمد، وأي شرارة يمكن أن توقدها من جديد. قال لي مريد من زاكان يورت، أن "الشيشاني يولد بعلامة الموت على جبهته، فهو يعرف أنه في يوم أو آخر سوف يموت وسلاحه بين يديه، هذا قدره، ويعد نفسه منذ طفولته لهذا اليوم المجيد، الذي يجمع روحه بأرواح أجداده".

الدور الذي تلعبه الطرق الصوفية في تاريخ روسيا أكبر وأكثر أهمية مما يعتقده العلماني الخبير في هذا الموضوع، فمن ناحية، كما يؤكد مؤلفو الكتاب الذي ذكرناه من قبل، فإن "حروب القوقاز ساهمت في التدمير المادي والمعنوي للإمبراطورية القيصرية، وشاركت تلك الطرق في إسقاط حكم أسرة رومانوف وإقامة النظام البولشفيكي". ومن ناحية أخرى، أقاموا وضعا مخالفا للوضع الذي أدى إليه غزو واحتلال القوى الأوروبية للدول الإسلامية في أفريقيا وآسيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين: ففي أكثر الدول الإسلامية قام الإسلام الرسمي تحت وصاية المستعمرين بإبعاد وتحجيم الطرق الصوفية، وفي الاتحاد السوفييتي حدث العكس، قامت الطرق الصوفية بامتصاص الإسلام الرسمي الذي أقامه البولشفيك، والخاضع لوصاية النظام السوفييتي، فكانت تلك الطرق العمود الفقري لما أطلق عليه الخبراء السوفييت أسم "الإسلام الموازي". لذلك فإن القمع العنيف وتدمير المساجد -الأراضي التي تضم حاليا جمهوريتي الأنجوش والشيشان كان بها أكثر من ٩٠٠ مسجدا حتى عام ١٩١٧، لم يبق منها سوى تسعة مساجد في عام ١٩٨٤- لم يؤثر في الصوفية، ومنذ نهايات القرن الثامن عشر اختلط الدفاع عن الدين بالحفاظ على الجماعة الوطنية.

ولم يسلم الموتى من المناوشات بين النظام السوفييتي والمتمردين: عندما تم ترحيل الشيشان إلى كازاخستان، تم تدمير مقابرهم، وتم نقل شواهد قبورهم إلى روسيا لاستخدامها كديكور ومواد للبناء، والمقابر الحالية في جمهورية الشيشان يعود تاريخها إلى ما بعد عودتهم، ولا تتعدى تواريخها نهايات الخمسينيات، ويمكن مشاهدة بعضها في مناطق وسط وجنوب الشيشان: المقابر يجري تحديدها بعامود من الحجر أو الخشب، مدهونة بالألوان الحية -أزرق، أخضر، أبيض- بسقف صغير ينتهي بهلال. بعضها مكتوب عليه بحروف عربية أسم "الله" أو "سورة الفاتحة". وبعضها الآخر يحمل أسم ونسب المتوفى وتواريخ ميلاده ووفاته.

أما المزارات المبنية للتذكير بأحد "المجاهدين" (شهداء) أو لإحياء ذكرى شيخ مبروك على طريقة المرابطين في المعتقد الشعبي المغربي، يتجمع حولها أعضاء الطرق والمؤمنون لقراءة أورادهم أو التوسل ببركاتهم، فإن معاداة الدينيين التي طبقها النظام السوفييتي حتى عهد غورباتشوف لحقت بهذه المزارات: فتم هدمها وتحويل معظمها إلى مركز دعاية إلحادية و"معادية للقوى الغيبية"، لكن عند أدنى فرصة سانحة كان المؤمنون يتحلقون من جديد من حولها في تجمعات احتفالية، ينضم إليها العديد من أعضاء الحزب الشيوعي: والصحافة السوفييتية كانت خلال السنوات الأخيرة تعج بوصف هذه الاحتفاليات وتطالب بوقفها، باعتبارها "مراكز دعاية معادية" ويسيطر عليها "الصعاليك" و"الطفيليين" و"المجرمين". والحجيج الأكثر انتشارا كان لمزارات "كونتا حاج" في قرية "فيندو". وعندما التقيت بمريدي زاكان يورت، تمكنت من مقارنة القائمة التي نشرها بنيجسن وليميرسيه بالقائمة التي يحفظها هؤلاء المريدون عن ظهر قلب، فوجدت الفوارق لا تذكر بين القائمتين، وطلبوا مني أن أنقل إليهما تقديرهم وشكرهم.

إذا كانت الطريقة النقشبندية تجسد تاريخ المقاومة الشيشانية في القرن الماضي، فإن الطريقة القادرية تسيطر على هذه المقاومة في الوقت الراهن، أسسها عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر، وانتشرت رويدا رويدا في كل ديار الإسلام، من الصين حتى المغرب، ووجودها في منطقة القوقاز يعود فقط إلى القرن التاسع عشر، وكانت تتجسد في الزعيم الشعبي "كونتا حاج"، الذي كانت دعوته الصوفية سببا في انضمام الوطنيين من سكان الجبال والفقراء الذين خلفتهم هزيمة الشاميل إلى هذه الطريقة، وعلى عكس الذكر الصامت المعروف عن النقشبندية، فإن كونتا حاج أدخل طريقة الذكر الصوتي، والذي ترافقه أحيانا الموسيقى والرقص: وأسطورته وغموض موته -لا يزال تابعوه يكذبون موته- منحاه سيطرة القطبية الروحانية في شمال القوقاز.

***

تلقى عثمان إماييف النائب العام السابق للشيشان علوما سوفييتية بحتة، وأكمل دراساته العليا في جامعة موسكو، التي تعلم فيها الحديث باللغة الإسبانية بطلاقة، ويقيم حاليا في قرية كولاري، حيث يحافظ على علاقات وثيقة بالمقاتلين الاستقلاليين، ويضع قائمة بجرائم الحرب التي ارتكبها المحتلون الروس، دون أمل كبير في محاكمة مرتكبيها، ويتقاسم حياته مع الفرع

القادري لجماعة كونتا حاج، ويعترف بنفسه انــه مبتدئ فـي هـذه الطريقـه، لكنـه ينظـم نشـاط المريدين، وتأكدت بعد ذلك أنه المشرف على طقوسهم الدينية.

يقول لي: "الذكر هو رمز المقاومـة الشيشـانية، حـاول الـروس يـوم ٥ سبتمبر ١٩٩٥ دخول القرية، ولكن نظرا لقيام المريدين بالرقص والغناء علـى الجسر المـؤدي إليهـا، توقـف الروس عن محاولاتهم، لأنهم كانوا يعرفون بالتجربة أن هجومهم علينا سوف يتسبب في ثورة عارمة في العديد من القرى الأخرى".

كان حديثنا في "عنبر" مكون من مطبـخ وغرفـة نـوم بأسـرة متحركـة تحجبهـا سـتارة قديمة، يقيم فيها مجموعة من المقاتلين، يوجدون حاليا في حالة استعداد. وصل أفراد الطريقـة واحدا بعد الآخر، وكلما وصلت مجموعة تبدأ ترتيلا تقليديا "لإبعاد الشيطان" -نوع من التحيـة التي يجب على الغريب أن يؤديها عند دخوله عتبة البيت- إنهم أفراد من مريدي كونتـا حـاج في قرية زاكان يورت.

بعد أن انتهينا من طقوس التعارف والتحية اتجهنا إلى المسجد: مبنى حديـث، مفـروش بالسـجاجيد، وبـه تجويـف يسـتخدم كمنـبر وقبلـة فـي الوقـت نفسـه، وسـاعة حـائط وصورتـان مؤطرتان للكعبة أثناء الحج. يتجمع الحاضرون بجوار المحراب بما فيهم مضيفي حتى يكونوا شكل دائرة: قدموا لي عمامة صغيرة، لكنـي فضلـت الجلوس علـى الأرض ومتابعـة الطقس الديني من مكاني.

كنت شاهدت القادرية فـي المغـرب، ومصـر وسـرايـيفو، وكـان وجـودي فـي سـرايـيفو خلال الأسبوع الذي حدث فيه القصف الجوي لطائرات حلـف الأطلنطـي الـذي أنهـى حصـار المدينـة، لكـن طقـوس الشيشـانيين تتمتـع بـالتركيز العـاطفي الـذي لاحظـه محللـوا الأيدلوجيـة البوليسيين السوفييت، الذين أكدوا أن هذه الطقوس تجذب إليها حتى العلمانيين والملحدين.

ما أن اكتملـت الحلقـة بـالمريدين بقلنسـواتهم المميـزة حتـى بـدأوا الصلـوات والأوراد، هازين أجسادهم في حركات خفيفة، بدأوا أولا بالورد (ذكر على أسم كونتـا حـاج) ثـم التهليـل ("لا إلـه إلا اللـه")، وبعـد ذلـك يبـدأ بالارتفـاع والسـرعة كلمـا تعمقـوا فـي الغنـاء، كالغنـاء الغريغوري (المسيحي) يضبط مرشد الطريقة في القرية إيقاع الجماعـة: المبتـدعون يسـلمون أولا وينسـحبون مـن "النظمـة" قبـل الوصـول إلـى التصـاعد المرحلـي، حيـث يـردد المغنـي والمريدون من ورائه بشكل أقوى، وبأصوات تنبع من أعماق الحلق كالنشيج، وفجـأة يبـدأون في التصفيق الموقع، "لا إله إلا الله"، في كل مرة أكثر وضوحـا وقـوة، يبـدأون فـي الوقـوف،

ويدورون في عكس اتجاه عقارب الساعة بخطوات بطيئة في البداية، ثم بعد ذلك بحيوية وسرعة، دون التوقف عن التصفيق، وصدى أورادهم يتذبذب في الهواء ويفعم فضاء المسجد الممتد، ثم يحدث توقف فجائي، والجلوس من جديد، مع ذكر لكونتا حاج، يبدأ عثمان ايمايف وكبار السن الذين لم يدخلوا حلقة الذكر في سحب السجاجيد، بعد هذه الوقفة يدخل الذكر في مرحلة جديدة، يبدأ المريدون رقصهم من جديد، من اليمين إلى اليسار –شيء جديد في الإسلام– يجرون ويقفزون بلا توقف في إيقاع الورد، ويتقاربون في الحلقة بتزايد مستمر، كل واحد عليه أن يقترب أكثر من ظهر الآخر، فيما تتعالى ضربات أقدامهم على الأرض، ثم يخرج أحدهم من الحلقة ويدور بسرعة أكبر من الآخرين، مندفعا بقوة مغناطيسية، كما لو مسته طاقة كهربية: قام بهذا أولا القائد يعقوب، ثم بعد ذلك شاب ملتح يرتدي عباءة سوداء وقلنسوة منحته هيئة كما لو كان خارجا من أسطورة قديمة في التو. وبعث نشاطه في الجماعة حركة تشبه الساقية، والأقدام تضرب بقوة شديدة تصم الآذان، تتوافق الابتهالات والخطوات الواسعة والجري السريع في حلقة بيضاوية الشكل، تصل قمتها عند المريد فلا يدري بمن هم حوله، في الواقع هو لا يوجد، وهذه الحالة يمكن وصفها بلغة الصوفي الكبير: "أبحر في الفهم، لا لعاب في العزيمة ولا خطاب في الذاكرة".

ما أن انتهي الطقس، حتى تجمع المريدون من جديد في حلقة، ويتلون قارئا ومرددين في صوت واحد "لا إله إلا الله"، ثم يسبحون بمسبحة تحتوي على تسع وتسعين حبة، كان قد مضى على دخولي حوالي الساعتين، لكن الزمن كان متوقفا، صفت السماء بين الجميع، ولمعت النجوم، وأسمع صوت الطيور لأول مرة منذ وصولي إلى الشيشان، أعترف بهذا بلا خجل: سبحت في محيط من الصفاء، لم أعش لحظات من الهياج ولا الفقدان الخاطف للحواس الست: لكن بجمال وبهاء اللحظة. تناغم الغناء في هذا الصمت الليلي، لم يعوضني ولكنه لم يكن أكثر من ثوان من الصفاء النفسي بين كل هذه البربرية المتراكمة؟.

أصاب العصفور الصمت، وعاد النظام إلى العالم: كنت أعيش في ساحة حرب ورعب وقذارة تكرار دورات التاريخ.

٧- نحو الجبال.

في حوالي نهايات شهر مايو، وقبيل لقاء يلتسن والرئيس الشيشاني سليمان ياندرابيف، قام الجيش الروسي بقطع الطرق المؤدية إلى مدينة شالي التي تقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا من العاصمة غروزني: لأن القيادة لاحظت تواجد تجمعات كبيرة من المقاتلين في هذه المنطقة، على استعداد لإجهاض التمثيلية الدعائية التي يحاول القيام بها الرئيس دوكو زافغاييف الموالي لروسيا، وكان رد القرية على ذلك هو حصار معسكر البوليس، وقيادة المنطقة العسكرية هناك، ليكون الرد على المحتل بنفس أسلحته، حصارا بحصار.

وازداد الوضع سوءا يوم ٣٠ مايو، على أثر اغتيال القائد الاستقلالي الذي كان سيشارك في محادثات السلام المزمع عقدها في داغستان، والتي بدأت بالفعل بعد عدة أيام في الأنجوش، وفي يوم ٢ يونيو، طلب الجنرال المتطرف شامانوف، الذراع الأيمن لوزير الدفاع الروسي السابق في الشيشان، من شيوخ المنطقة تسليم المتمردين والتهديد بمد فترة الحصار والعقاب. فلم يتم التسليم المطلوب ولكن الحصار استمر، فكانت شالي منطقة ممنوع على الغرباء والصحافيين دخولها.

باءت محاولاتي بالفشل لدخول المنطقة يوم الخميس ٦ يونيو، بعد أن نجحت في عبور مراكز المراقبة المتعددة بفضل المجلات والولاعات وعلب السجاير التي وزعتها، لكن محاولتي تحطمت أمام المركز الأخير، الذي سحب أحد ضباطه تصريحي وتصريح مرافقي وأعادنا إلى الخلف مرة أخرى.

في اليوم التالي أعدنا المحاولة: كان قد تم تغيير ضابط الخدمة، وبفضل بضع زجاجات من الفودكا التي تعتبر أقوى تصريح، تمكنا من عبور مركز المراقبة، ودخلت سيارتنا المحنكة التي تقلنا إلى المنطقة المحرمة، منطقة بعرض اثنين أو ثلاثة كيلومترات، تجري فيها الحياة بهدوء ظاهري: حوانيت ومواقع لبيع البنزين والمثلجات، منتشرة بشكل طبيعي حتى مدينة شالي.

على مدخل المدينة سمعنا أصوات انفجارات تصم الآذان، فعبرنا مركز مراقبة الاستقلاليين دون عوائق كبيرة، واتجهنا إلى الساحة الرئيسية التي كانت تغلي لأسباب غير مفهومة من أول وهلة.

عشرات المقاتلين المسلحين يمارسون الرقابة على مفارق الشوارع، أو يرابضون في النوافذ وعلى أسطح المباني القريبة. وإلى جوار المسجد كانت هناك جماعة من النساء والشيوخ يتحاورون بحنق، وصورة مؤطرة لدوداييف محاطة بصور للإمام شاميل وكونتا حاج، تنطلق صرخة جريحة بالتكبير "الله أكبر". كنا في نفس المكان الذي سقط فيه أربعة آلاف من المريدين أتباع الإمام كونتا حاج يوم ١٠ يناير ١٨٦٤، راحوا ضحية نيران "المقاتلين الزرق" الذين وصفهم ليرمونتوف بقوله: ذلك الحدث السيء الذين تسبب في مئتي قتيل وعدة آلاف من الجرحى، ورغم مرور أكثر من مئة وثلاثين سنة، إلا أن الوضع يكاد يكون متطابقا مع الواقع الآني، وأطراف الموقعة لم يتغيروا. لكن، ماذا يعرف شامانوف وتيجيملروف وغيرهما من مندوبي الكرملين عن تلك "المذابح" التي ارتكبها من جاءوا قبلهما، ووصفها بادلي في كتابه "الغزو الروسي للقوقاز".

رغم اتفاق وقف إطلاق النار الذي جرى توقيعه قبل أيام، إلا أن طائرة مروحية قصفت مركز الأمن الشيشاني. فاندفع الناس في غضب إلى الساحة التي وصفها تولستوي بإعجاز كبير. وعندما اكتشفوا وصول صحافي أجنبي –شاهد من الخارج– أحاطوا بي نساء وشيوخا، وأنا أنقل هنا ما رددته الأصوات كما ترجمها لي مرافقي ومترجمي "فولوديا":

قالت امرأة تغطي رأسها بمنديل:

– "أراد زيجانوف أن يأتي إلى هنا، لكن من الأفضل له أن يذهب إلى روسيا. لا نريد حكومته غير الشرعية!، إنه يقتلنا منذ سنوات. لماذا؟ نحن لا نريد غير أن تكون لنا جمهوريتنا"

قال شيخ:

– "نحن نتظاهر سلميا وهم يطلقون علينا قذائفهم، الروس يقولون أننا مجرمون، انظر يا سيدي: هنا لا يوجد مجرمون ولا قطاع طرق، هنا أناس يطالبون بحريتهم".

قال عجوز يرتدي قبعة ويحمل بندقية صيد:

– "الأوزبكيون والطاجيكيون والكازخستانيون لهم أوطانهم، ونحن مثلهم، لا نريد أن نكون عبيدا للروس، نطالب بالحرية والاستقلال!".

قال عجوز ذو ملامح فلاحية:

– "الروس يمنعون عنا الصحافة، حتى لا يعرف أحد ما يحدث هنا، قل على ألسنتنا أننا نفضل الموت من الجوع والبرد على تحمل عبوديتهم".

تفرقع عدة طلقات من سلاح اتوماتيكي فنتلقى اوامر بالتفرق، يقودني مرافقي باتجاه مبنى بيت الثقافة الفخم ذي الأعمدة، الذي يغص الآن بالمقاتلين، بعد قليل يظهر أبو موساييف رئيس أمن جمهورية أشكيريا الشيشانية (هكذا يسمي مواطنو الشيشان بلادهم)، ويرافقه "أصلان" العقل المفكر، وأحد المشاركين في عملية احتلال شاميل باساييف لقرية بوندوفوسك الخطرة، في قلب روسيا، يرتدي أبو موساييف ملابس رياضية، وصديريا مضادا للرصاص، ويحمل على كتفه بندقية سريعة الطلقات، تعرفت بين حراسه على اثنين من المقاتلين.

يوضح لي: "زافغاييف ورجاله كانوا يريدون عقد "اجتماع لمجلس وزرائهم" هنا، لكنهم لم يفلحوا، لهذا السبب يقوم الروس بعمليات انتقامية ضدنا، قصفوا منذ قليل مقر قيادتي، فرددنا عليه بإطلاق النار".

"مقاتلونا يحاصرون القيادة العسكرية ومعسكر البوليس. لن نهاجمهما، نريد أن نجبرهم على الحوار ليرفعوا عنا الحصار، لكنني أعتقد أنهم يعدون لهجوم انتقامي".

يعتذر أبو موساييف لنا عن حديثه السريع وخلال دقائق أتجول بين المناطق المتاخمة للساحة، وأسجل الكتابات الموجودة على الحوائط التي ترجمها لي فولوديا: "عاشت إشكيريا!"، "الموت للخونة"، وإهانات موجهة ليلتسن والروس.

•••

أثناء العودة إلى غروزني عبر الطريق الخالي -يمنعون مرور السيارات ويسمحون فقط بمرور النساء والشيوخ والأطفال- نعبر مركز مراقبة الجيش، ونتوقف في أحدها، الذي يرفرف عليه العلم الأحمر المطبوعة عليه صورة لبريجنيف. يدخل مرافقي ومترجمي إلى المكان المحصن بأكياس التراب، وبفضل "التصاريح الناجعة" يسمح لنا الجنود بلقائهم بأذرع مفتوحة.

إنهم متطوعون مخدوعون بالخطاب الرسمي للدفاع عن الوطن الذي يتعرض للخطر، ولهذا فإن من يسقطون في ساحة الشرف عليهم أن يفعلوا ذلك و"الابتسامة على شفاههم" (كما يقول بافيل غراتشيف). حياتهم اليومية بائسة، يقدمون لي مائدة محمية من الشمس بمظلة من أوراق الشجر: غذاؤهم اليومي مكون من رغيف خبز ودهون وقطعة فلفل أخضر وملح. وعندما نتحدث عن الانتخابات الروسية المقبلة: عدا أحدهم كان من المعجبين بليبيد، فإن الآخرين منقسمون بين زيغانوف وزيرونفسكي. وعندما تحل الفودكا عقدة ألسنتهم يتحدثون بطلاقة: فهم يحبون إسبانيا ويحلمون بقضاء إجازاتهم في جزر الكناري، أحدهم طويل القامة

ونحيف وله سن مكسورة، دافع عن زيرونفسكي وكان يرغب في معرفة رأيي فيه، قلت له رأيي بلا مواربة وذكرت له عرضه "الأصيل" بتقسيم بولندا من جديد، ووعوده أن يقوم "الجنود الروس بتنظيف أحذيتهم العسكرية على شواطئ المحيط الهندي".

أجاب: "لم لا؟ بولندا كانت دائمة مقسمة بين الألمان والقياصرة، ولولا الخونة الذين يعيشون بيننا، لكنا الآن على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي".

"قادتنا هنا لا قيمة لهم، بسببهم فقدنا عشرة آلاف قتيل، ترى كم العدد الذي سوف يسقط لو استمرت الحرب عشر سنوات؟ يقول زيرونفسكي علينا أن نقتل مئة من الشيشانيين مقابل كل روسي يموت، ومقابل كل كمين يجب أن نحرق مئة قرية، ولو سخروا منا سوف نستخدم الأسلحة النووية".

عندما أحدثه عن درس حرب فيتنام، يرفض التراجع عن رأيه.

يقول: "الأمريكيون لا يحتملون مثلنا، هل تتخيلهم يعيشون على هذا الشكل الذي نعيشه؟."

نودعهم ونخرج من المركز، ونتركهم ما بين مذهول وما بين عائش في الماضي، ويرفرف عليهم علم يحمل صورة بريجنيف.

•••

الخليط المتفجر من التطرف الوطني الشوفيني، والأحلام التوسعية الإمبريالية التي يطلقونها لتعويض الهزائم العسكرية، إضافة إلى الكراهية للشيشان -الذين يجب سحقهم كحيوانات"، حسب الذين يلتقيهم عضو البرلمان نوفزوروف في البرنامج التليفزيوني الشعبي "أيام"- يكشف عن البلبلة التي سقط فيها جانب كبير من الرأي العام، والكثير من المثقفين الروس، حتى سولجستين، وهذا يهيئ المناخ للمعتقدين بظهور المخلص الذي يبدو في ستالين جديد على هيئة المسيح، ويسمح بنمو الجماعات النازية كجماعة "رابطة الروس"، التي ترفع شعار "القضاء على اليهود والغجر في أسرع وقت"، الذي يعلنه المتحدث باسمها أليكساندر بركاشوف.

انخفاض معنويات الجيش المنتشر في الشيشان، يكشف عن التوتر الموجود بين القيادات الموالية لوزير الدفاع بافيل غراتشيف، وبين المعارضين له: الفجوة المفتوحة بين لغو حفنة من الجنرالات والمتطوعين المتطرفين، وبين جنود الخدمة الإجبارية، شواهد مباشرة

على العجز والبربرية والفساد الذي لاحدود له لحرب يعيشونها كإدانة، وفي أوضاع من الفقر والعوز تستحق الشفقة.

إذا كان الضباط وضباط الصف يسعدون بزجاجة فودكا، كما كان في عهد نيقولا الأول، فإن شهية قياداتهم العليا المرفهة في موسكو أكثر انفتاحا، وطبقا لما كتبته مراسلة صحيفة الباييس بيلار بونيت بتاريخ ٢٦-٥-٩٦، فإن "صحيفة إزفستيا كشفت عن وجود اختلاسات ضخمة في إدارة التجارة لوزارة الدفاع، وطبقا لنتائج تحقيقات النائب العام تم صرف آلاف الملايين من الروبلات لشراء مشروبات كحولية". وطبقا لما ذكرته المراسلة، تم عزل مسئول المالية بالوزارة فاسيلي فيروفيف من منصبه بسبب "الأخطاء المتكررة"، بينما تبين أن الجنرال زيروبتسوف صاحب القرارات غير الشعبية، وعدد من الرتب العليا كونوا "ثروات ضخمة" على حساب ميزانية الدفاع.

في مثل هذه الأحوال لا يبدو غريبا أن يصرح منقذ الوطن -حتى هذه اللحظة- أليكساندر ليبيد بأن ٣٠ في المئة من الجنود يتساءلون بصوت مرتفع "عما أن كانت ساعة تغيير اتجاه المدافع قد حانت"، و٣٠ في المئة منهم يفكرون في الشيء نفسه، لكنهم لا يعلنون عن رأيهم.

في هذا المناخ يمكن كتابة نهاية التآمر المستمر المحيط بيلتسن، كل شيء ممكن: المافيا والموظفون المرتشون على استعداد للتضحية بالعدد المطلوب من الأرواح البشرية، ليحافظوا على ثرواتهم وامتيازاتهم، بعيدا عن مشهد المجندين الذين يعيشون على تسول رغيف من الخبز، من السيارات المارة في الجبال البعيدة والخطرة للشيشان.

•••

اتجهنا إلى الجنوب يوم الأحد ٩ يونيو تحت وابل من الأمطار، كان هدفي الوصول إلى منطقة "فيدينو" و"باموت" الجبلية، للقاء القائد العسكري لهذه المنطقة "الشاميل باساييف"، لكن الطرق الوعرة والممرات غير الصالحة للمرور بسبب الوحل منعتنا، ورغم مهارة السائق، لم نتمكن من الوصول إلى أبعد من شاتوي.

بعد المرور من الحواجز الأولى، بفضل توزيع السجائر الأمريكية، بدأ الطريق المتعرج بالهبوط باتجاه نهر أرجون المتسع بمائه المتدفق، كان المشهد أخاذا: جبال القوقاز الريفية تتقدم بانعكاساتها ويحيط بغاباتها الضباب، وفي تناقض فجائي مع جمال المكان، كان جنود الخنادق ومراكز المراقبة الممتدة على طول الطريق، تبرز مشهدا غير معقول من الفقر

والخذلان: يوقفون العربات القليلة التي تمر بهم، لا ليفتشوا أوراق سكان القرى القريبة، ولكن لطلب سيجارة، أو رغيف خبز، أو أي شيء يصلح كطعام. يسألون مرافقي إن كان هناك حديث حول نهاية الحرب، ويتساءلون حول المحادثات مع أصلان ماساجاييف رئيس القيادة العليا للاستقلاليين، التي تجري في الأنجوش، لا أحد يتحدث عن النصر، ولكن الحديث كله عن السلام.

ما أن نعبر الجسر، حتى نشاهد بقايا الكمين المدمر الذي وقع يوم ١٦ إبريل: دبابات ودبابات متفحمة، وقطع مدفعية ثقيلة مدمرة ومتناثرة على المنحدر، وصليب صغير نصبه الجنود، كاحتجاج صامت ولكنه معبر عن عدم جدوى هذه التضحيات، المشهد عبارة عن سلسلة من مراكز المراقبة والتحكم، ومعسكرات رطبة وغير مرتبة، ومخابئ مدفعية ثقيلة بشباب أنهكهم البرد، ومجندون بلا إمدادات وتنقصهم الأغطية الشتوية، يدفنون أيديهم حول نيران خامدة. ومن وقت لآخر، كان يجب علينا أن نتوقف لنترك الطريق لطابور من العربات القتالية T 90، تخدم كل واحدة منها دستة من الناقلات، والمطر ينهمر بلا توقف، فتمتصها أوراق السرخس، وتزحف أمامها الأوراق المتساقطة، إنها مشاهد من تلك التي وصفها بجمال مدهش كل من ليرمونتوف وتولستوي : ملتحفون بشجر التنوب، والمنحدرات الوعرة، والضباب، وبرج مراقبة غريب، محاط بأكياس طينية، من المؤكد أنه احتمى به أحد مريدي المنصور أو الشاميل. وشواهد سياسة الأرض المحروقة تبدو نفس الشواهد: بيوت محترقة من الزنك، ومبان مهدمة تلخص الحزن والضغينة.

تعكس شاتوي نفس المشهد الكئيب: في سوقها المركزي الذي أنشأه القياصرة، لازالت هناك بضعة حوانيت الدمار في خلفيتها، والساحة الرئيسية ومبنى البلدية كانا طعاما للهب، وهناك كتابة بحروف عربية كصرخة يائسة: "الله أكبر".

•••

بعد ثلاثة أيام من المطر المستمر ، والطرق الموحلة، والنهر الطافح، والممرات المقطوعة أُجبرت على التخلي عن مشروعي، فعدنا إلى غروزني.

في نهاية وجودي هناك تحول سخطي في مواجهة الدمار وجرائم المحتل، إلى مشاعر من قلق وشفقة على مستقبل روسيا. فالجلادون هم في الوقت نفسه ضحايا أحلامهم وكراهيتهم المثالية، وخضوعهم السلفي لظلم حكامهم منقذيهم.

وكما كتب حديثا المخرج السينمائي أندريه كونشاكوفسكي "إن العقلية الأرثوذكسية تشكل وعيا عاما، فالناس لا يشعرون حقيقة أنهم مسئولون عن أفعالهم، ويجدون دائما شيئا آخر ليس مهما طبيعته ليحملوه هذه المسئولية: الله، أو الحكومة، أو القيصر، أو ستالين، أو بريجنيف. ليس هناك من هو على استعداد لتحمل ذنب ارتكبه".

هل يقبل الروس يوما ما مسئوليتهم التي لا تنكر عن سحقهم الوحشي للشيشان؟.

الفهرس

• غزة-أريحا.. لا حرب ولا سلام

• مشاهد حرب، والشيشان خلفيتها

الكتاب التالى

بعبارة أخرى

محاولات بإتجاه سوسيولوجيا إنعكاسية

تأليف

بيير بورديو

ترجمة

أحمد حسان

و

النص القرآنى عند الزركشى بين الفهم والتذوق

تأليف

د. محمد محمد عثمان

صدر عن الدار:

العنوان	المؤلف	السعر
١- الديمقراطية والدولة فى العالم العربى.	تيموثى ميتشل	٦,٥٠
٢- الإنفتاح وتغيير القيم.	أحمد أنور	٢٠,ـ
٣- معضلة الإقتصاد المصرى.	جلال أمين	١٢,ـ
٤- من يبيع مصر.	د. رفيق حبيب	٩,٧٥
٥- الإلتزام عند الكتاب الممصريين.	سهام هاشم	١٠,ـ
٦- مواجهة الأزمات.	عثمان عثمان	١٢,ـ
٧- محاولات تهويد الإنسان المصرى.	مدحت أبو بكر	٥,ـ
٨- أوروبا وتدمير الآخر.	توماس ماستناك	٤,ـ
٩- لحن الصباح.	محمد ناجى	٤,٢٥
١٠- الإمام البخارى محدثا وفقيها.	د. الحسينى عبد المجيد هاشم	٢٠,ـ
١١- أبواب الفرج.	د. السيد محمد العلوى	١٠,ـ
١٢- الحريق وعلوم الكيمياء.	كمال عبد المقصود	٧,ـ
١٣- قف تلك فاتحة والنوى.	فوزى صالح	٦,ـ
١٤- الخطابة وإعداد الخطيب (مجلد).	عبد الجليل شلبى	٣٠,ـ
١٥- تصورات فى الدعوة والثقافة الإسلامية.	عبد الرؤوف شلبى	٢٠,ـ
١٦- أضواء على طريق العودة إلى الإسلام.	د. أحمد خليل	٥,ـ
١٧- الشعر الصوفى بين مفهومى الإنفصال والتوحد.	وفيق سليطين	٩,ـ
١٨- الإعلام التربوى.	محى الدين اللاذقانى	٥,ـ
١٩- مختار الصحاح.	الرازى	١٥,ـ
٢٠- تنظيم المجتمع - النظرية والتطبيق.	عبد الحليم رضا عبد العال	١٥,ـ
٢١- دفاتر العنف المقدس.	غويتيسولو	-